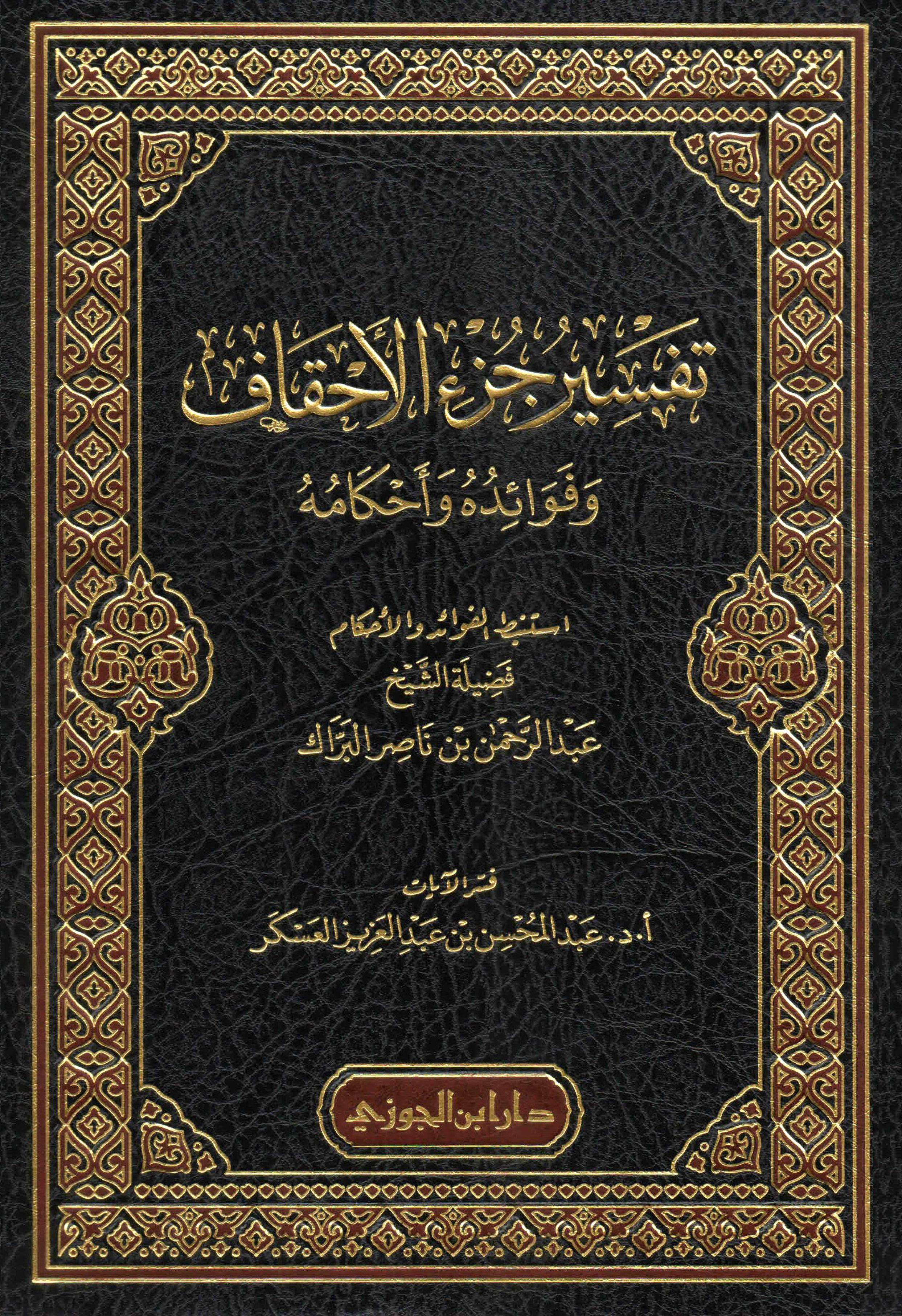
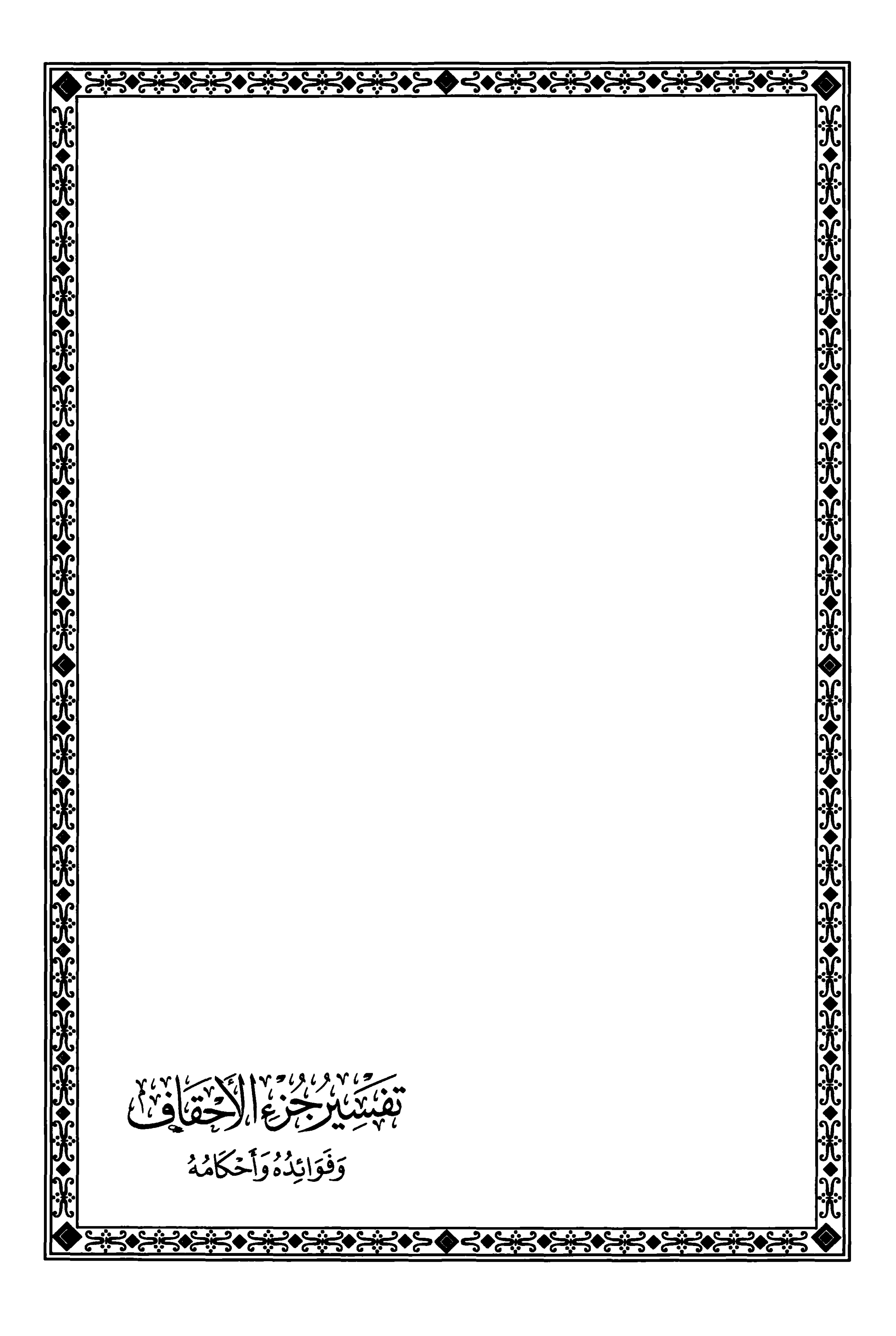

تفسير جزء الأحقاف
وفوائده وأحكامه
استنبط الفوائد والأحكام
فضيلة الشيخ
عبدالرحمن بن ناصر البراك
فسر الآيات
أ.د. عبدالمحسن بن عبدالعزيز العسكر
دار ابن الجوزي



تفسير جزء الأحقاف
وفوائده وأحكامه





دار ابن الجوزي

للنشر والتوزيع

المملكة العربية السعودية:

الدمام - حي الريان - شارع عثمان بن عفان

ت: ٠١٣٨٤٢٨١٤٦ - ٠١٣٨٤٦٧٥٩٣

٠١٣٨٤١٢١٠٠

ص ب. واصل: ٨١١٤

الرمز البريدي: ٣٢٢٥٦

الرقم الإضافي : ٤٩٧٣

الرياض - ت: ٠٥٩٢٦٦٢٤٩٥

جوّال: ٠٥٠٣٨٥٧٩٨٨

الأحساء - ت: ٠١٣٥٨٨٣١٢٢

جدة - ت: ٠١٢٦٨١٤٥١٩

جوّال: ٠٥٨٣٠١٧٩٥١

لبنان:

بيروت - ت: ٠٣/٨٦٩٦٠٠

فاكس: ٠١/٦٤١٨٠١

مصر:

القاهرة - تلفاكس: ٠٢٤٤٣٤٤٩٧٠

جوّال: ٠١٠٠٦٨٢٣٧٣٨٨

aljawzi@hotmail.com

+966503897671

aljawzi

eljawzi

aljawzi.net

ح دار ابن الجوزي للنشر والتوزيع، ١٤٤٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

البراك، عبد الرحمٰن بن ناصر

تفسير جزء الأحقاف وفوائده وأحكامه./ عبد الرحمٰن بن ناصر البراك؛ العسكر، عبد المحسن بن عبد العزيز.- الدمام، ١٤٤٢هـ

٢٤٠ص؛ ١٧×٢٤سم

ردمك: ٩٧٨ - ٦٠٣ - ٨٣٣٨ - ٠٨ - ٧

١ - القرآن - التفسير الحديث أ. العسكر، عبد المحسن بن عبد العزيز (مؤلف مشارك) ب. العنوان

ديوي ٢٢٧,٦ ١٤٤٢/٧٩٠٩

الطبعة الأولى

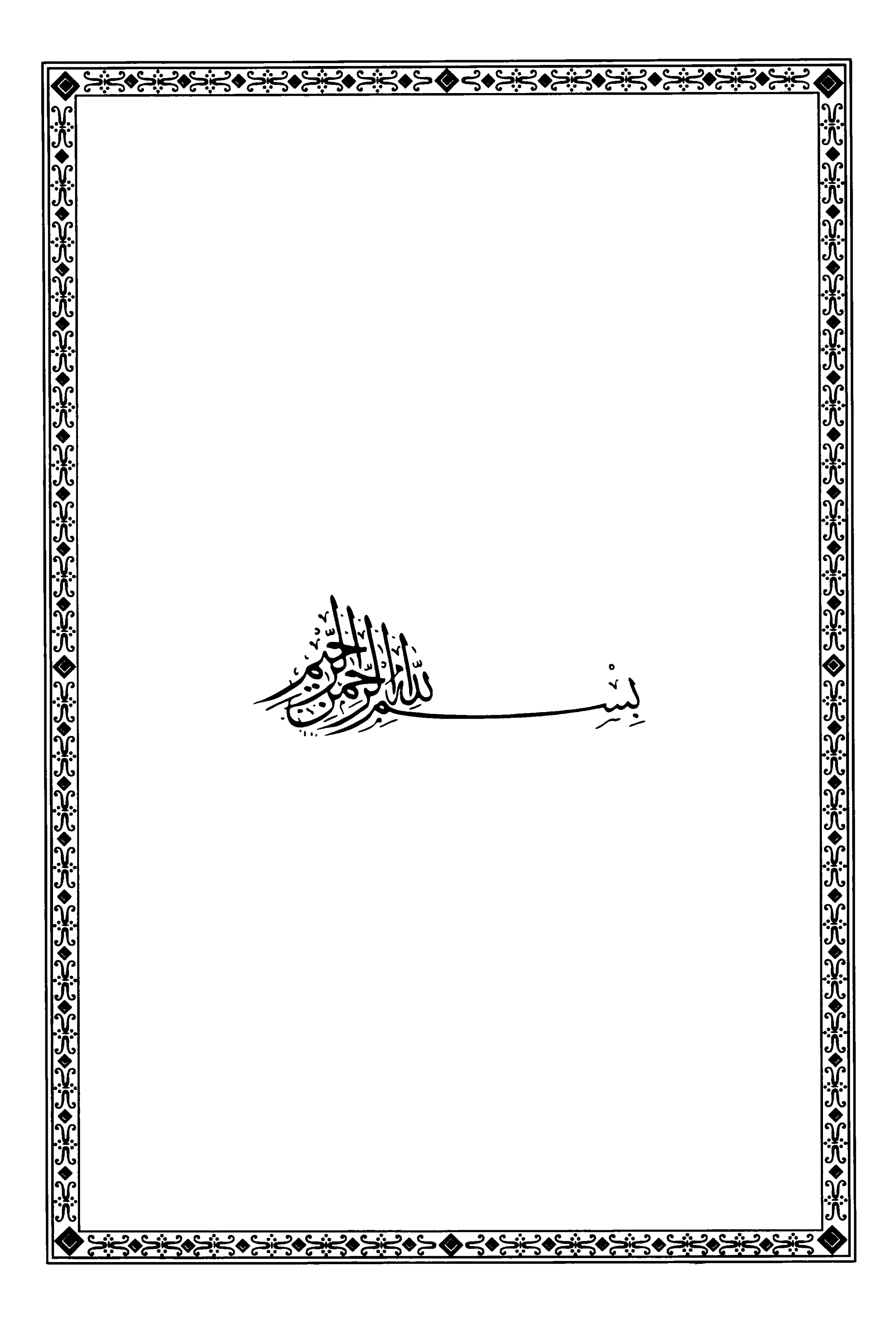
١٤٤٢هـ

طبع على نفقة محسن كريم

جزاه الله خيرا

الباركود الدولي: 9786038338087




بسم الله الرحمن الرحيم



المقدمة

الحمد لله وحده، وصلى الله وسلم على نبيِّنا محمد الذي رفع الله ذكره في العالمين، وأيَّده بالكتاب المعجز المبين، وجعله حجة باقية على وجه الدهر، يهدي به من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم، وعلى آله وصحبه أجمعين، **أما بعد:**

فهذا هو المجلد الخامس من مجلدات التفسير الذي سبق أن بدأناه في سلسلة متصلة في هذا الباب، ويتضمن هذا المجلدُ تفسيرَ جزء الأحقاف، وهو الجزء السادس والعشرون من أجزاء القرآن العظيم، الذي هو آية النبوة، وحجة الله على خلقه، وهو الكتاب الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد، ﴿كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

وقد سبق هذا السِّفْرَ أربعةُ أجزاء صدَرت في تفسير جزء عم يتساءلون، وتبارك، وقد سمع، والذاريات[١]، وقد لقيت من الخاصة والعامة ـ بفضل الله ـ قبولًا وحَمْدًا، وطُبع بعضها مرات، وذلك فضل الله ومنَّته، ولهذا فإنَّ نهْج هذا الجزء كنهج الأجزاء السابقة، من جهة تحرير التفسير، وتحقيق المسائل، واستنباط الفوائد والأحكام العلمية والعملية والسلوكية من الآي، دون تعرض للخلاف الفقهي والجدل اللغوي،

(١) صدرت الأجزاء السابقة عن دار التوحيد بالرياض، خلا تفسير جزء تبارك، فعن دار المنهاج بالرياض.

ودون سرد لأقوال الأئمة؛ فإن الأقوال إذا كثُرتْ وتعدَّدتْ في تفسير الآية حَجَبَتْ معناها، وأوقعت القارئ في حيرة وظلام، وكم من آية تنازع فيها المفسرون، واختلف فيها المعربون، وإنَّ معناها لأقربُ بكثير مما إليه يذهبون، ولا عجب في ذلك؛ فإن كتاب الله يعلو ولا يُعلَى عليه، ولقد وصفه الله بأنه برهان وموعظة منه، وأنه آيات بيِّنات، وشفاء لما في الصدور، وهدى ورحمة للمؤمنين، وسمَّاه الكتاب المبين، والذكر الحكيم، والنور المبين؛ فلا بد مع ذلك كله أن تكون آيات التنزيل في هذا الكتاب واضحة بيِّنة في مُجملها لكل من يعرف العربية ويتكلم بها.

فلِـلَّه الحمد حمدًا كثيرًا على إنزال هذا القرآن العظيم، وعلى ما يسَّر من تلاوته وفهمه، ونسأله تعالى بعزته وكماله، وكرمه وجلاله أن يجعلنا ممَّن يتلو هذا القرآن حقَّ تلاوته، ويحل حلالَه، ويحرم حرامَه، ويعمل بمحكمه ويؤمن بمتشابهه، كما نسأله تعالى أن ينفع بهذا التفسير من كتبه وقرأه، ومن سعى في نشره، وأن يجعله ذخيرة صالحة ليوم الدين، والحمد لله ربِّ العالمين.

وكتب

عبد المحسن بن عبد العزيز العسكر

٢٤ رجب الحرام ١٤٤٢هـ

تفسير سورة الأحقاف

سورة الأحقاف مكيَّة، ومن علامات ذلك: أنها افتُتحت ببعض الحروف المقطعة ﴿حمٓ﴾، فهي من سور آل حم، وهي السابعة منها، وعدد آياتها خمس وثلاثون آية.

تضمَّنت السورةُ التنويهَ بإنزال القرآن، وبخلق السماوات والأرض بالحق استدلالًا على التوحيد، وتضمَّنت إنذارَ الكافرين بالدلالة على صدق الوعد في قيام الساعة، والإنكارَ عليهم، وبيانَ ضلال عقولهم، وذكرَ بعض أقوالهم في القرآن، والردَّ عليهم، ثم الإشارة إلى العلاقة بين الرسولين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام، والكتابين التوراة والقرآن، ثم وصيةَ الإنسان بوالديه، ومدحَ البارِّ بهما، وذمَّ العاقِّ لهما، وتهديدَ الكافرين بالعَرض على النار، ثم تحذيرَ كفار قريش مما جرى على المكذبين قبلهم، ومنهم: عاد قوم هود عليه السلام، ثم ذكرَ قصة الجن الذين صرفوا إلى الرسول ﷺ فاستمعوا القرآن، فولَّوا إلى قومهم منذرين.

وخُتمت السورة بمثل ما بدئت به من ذكر خلق السماوات والأرض استدلالًا على البعث، مع التعقيب بذكر عاقبة الكافرين، تسلية للنبي ﷺ، مع أمره بالصبر، أسوة بالصابرين من المرسلين.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢ مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَمَّآ أُنذِرُوا۟ مُعْرِضُونَ ۝٣﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآياتُ ذكرَ حجة الله الشرعية والكونية على الكافرين: الشرعية وهي تنزيل الكتاب، مع الإشعار بالقوة وكمال القدرة. والحجة الكونية وهي خلق السماوات والأرض، مع التنبيه على كمال الحكمة في ذلك، مع لَوْم الكافرين على الإعراض عن نذر الله.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿حمٓ﴾ هذان حرفان من الحروف المُقطَّعة، مثل: ﴿صٓ﴾ و﴿قٓ﴾ و﴿الٓمٓ﴾، وهذه الحروف تنطق بأسمائها، فيقال: حا ميم، وصاد، وقاف، إلخ، وقد اختلف المفسرون فيها اختلافًا كبيرًا، وحاصل كلامهم فيها يرجع إلى مذهبين:

الأول: أنها ليس لها معنى مفهوم، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

الثاني: أن لها معنى، وهو:

١ ـ تنبيه الأذهان، واستدعاء الانتباه والإصغاء.

٢ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن؛ يعني: أنَّ هذا القرآن الذي أعجزكم ـ أيها العرب ـ منظوم من هذه الحروف التي تعرفونها ويتألَّف منها كلامكم، ومع ذلك لا تَقْدِرون على أن تأتوا بسورة من مثله، وأنتم

أهل البيان والبلاغة، فإذا ثبت عجزُهم تبيَّن لهم أنه ليس كلام بشر، كما يدَّعون، وقامت الحجة به عليهم، والمذهب الثاني هو الصحيح المختار.

وقد جرت عادة المفسرين أن يذكروا الكلام على الحروف المقطعة عند فاتحة سورة البقرة: ﴿الٓمٓ﴾.

قوله تعالى: ﴿تَنزِيلُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ مبتدأ ﴿مِنَ ٱللَّهِ ٱلْعَزِيزِ ٱلْحَكِيمِ ۝٢﴾ خبره. المعنى: أنَّ هذا الكتاب ـ وهو القرآن ـ منزَّل من الله تعالى، وسُمِّيَ القرآنُ كتابًا؛ لأنه مكتوب في اللوح المحفوظ، وفي صحف الملائكة، وفي مصاحف المؤمنين؛ فالكتاب اسم من أسماء القرآن، و(أل) في الكتاب للعهد الذهني.

قوله تعالى: ﴿ٱلْعَزِيزِ﴾؛ أي: القوي الذي له القدرة التامة ـ ﷻ ـ والإرادة النافذة فلا يُغلب ﴿ٱلْحَكِيمِ﴾؛ أي: الحكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدره، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

وفي الإخبار عن القرآن بأنه منزَّلٌ من الله ما يقطع بأنه حقٌّ وصدق وصواب؛ كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا﴾ [الأنعام: ١١٥]، وكونه من العزيز يدل على أنه يَغلب ولا يُغلب، وكونه من الحكيم يدل على أنه مُحكَم في نفسه، وأنه مشتمل على الحكم البالغة، والحجج القاطعة، والبراهين الساطعة.

قوله تعالى: ﴿مَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾؛ أي: الأرضين السبع؛ كما يدل له قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢]، ﴿وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ حال مصاحبة؛ أي: ما خلقنا السماوات السبع والأرضين السبع وما بينهما من المخلوقات إلا خلقًا مصحوبًا بالحق ملابسًا له؛ أي: لا عبثًا ولا لعبًا، قال سبحانه: ﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَآءَ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَٰطِلًا ذَٰلِكَ ظَنُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ [ص: ٢٧] وقال:

﴿وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَٰعِبِينَ ۝٣٨ مَا خَلَقْنَٰهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ﴾ [الدخان: ٣٨، ٣٩].

فهذه المخلوقات العظيمة من السماوات والأرضين وما بينهما من المخلوقات، كلُّها خُلقت بالعدل والحكمة البالغة، ليَعرف العباد عظمةَ خالقها ومُوجِدها، فيعظِّموه ويُفردوه بالعبادة.

قوله سبحانه: ﴿وَأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ معطوف على قوله: ﴿بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: وبأجل مسمًّى، والجار والمجرور حال مقدَّرة؛ أي: مقدَّرًا لها أجلٌ مسمًّى للسماوات والأرض وما بينهما، وهو يوم القيامة، فما خُلق هذا العالم ليبقى مخلَّدًا سرمدًا؛ بل خلقه الله ليكون دارًا للعمل، وبعد فنائه ترجع الخلائق إلى ربها للحساب والجزاء.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مبتدأ ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣﴾ خبره؛ أي: وهؤلاء الكفار ﴿عَمَّآ أُنذِرُوا۟﴾؛ أي: عن الذي أُنذروه من البعث والحساب وأهوال الآخرة ﴿مُعْرِضُونَ ۝٣﴾؛ أي: لاهون غافلون، فلا يتفكرون فيه، ولا يقيمون له وزنًا، كما قال تعالى: ﴿وَهُمْ عَنِ ٱلْآخِرَةِ هُمْ غَٰفِلُونَ﴾ [الروم: ٧].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السورة مكية؛ لافتتاحها بالحروف المقطعة.

٢ ـ أن القرآن منزَّلٌ من الله تعالى.

٣ ـ أن إنزال القرآن كان مفرَّقًا، لا جملة.

٤ ـ إثبات العلو لله تعالى.

٥ ـ إثبات الاسمين الشريفين لله تعالى، وهما: العزيز والحكيم، وما تضمَّناه من صِفَتي العزة والحكمة.

٦ ـ تضمُّن القرآن أسباب العزة والحُكم والحِكمة.

٧ ـ أن الله خالق السماوات والأرض وما بينهما.

٨ ـ أن من أفعاله تعالى: الخلق.

٩ ـ التنبيه على حكمته تعالى من خلق السماوات والأرض وما بينهما.

١٠ ـ الرد على الكافرين في ظنهم أن خلق السماوات والأرض باطلٌ لا حكمة له.

١١ ـ أن لبقاء السماوات والأرض أجلًا مسمًّى عند الله.

١٢ ـ أن السماوات والأرض محدَثة، ففيه:

١٣ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بِقِدَم الأفلاك.

١٤ ـ أن السماوات ذوات عدد، وهنَّ سبع.

١٥ ـ أن بين السماوات والأرض مخلوقات عظيمة.

١٦ ـ إقامة الحجة على الكفار بالإنذار.

١٧ ـ ذمُّ الكفار بالإعراض عمَّا أُنذروه.

١٨ ـ أن من أنواع الكفر: كفرَ الإعراض.

١٩ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على عظمته تعالى.

ولما ذكر الدليل على وجود الله العزيز الحكيم وقدرته وحكمته وعلى وقوع البعث، أتبعه الردَّ على المشركين عباد الأصنام؛ فقال سبحانه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ ۖ ٱئْتُونِى بِكِتَـٰبٍ مِّن قَبْلِ هَـٰذَآ أَوْ أَثَـٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٤﴾ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَـٰمَةِ وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ غَـٰفِلُونَ ﴿٥﴾ وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ كَانُوا۟ لَهُمْ أَعْدَآءً وَكَانُوا۟ بِعِبَادَتِهِمْ كَـٰفِرِينَ ﴿٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ توبيخَ المشركين الذين يدعون من دون الله آلهة، جعلوهم أندادًا لله، وتوبيخهم بذكر الدليل العقلي على بطلان إلٰهيتهم؛ إذْ لم يخلقوا شيئًا من الأرض وما عليها، وليس لهم شرك في السماوات، هذا وهم يعلمون أن الله هو خالق السماوات والأرض وما فيهن، وما لهم على شِركهم حجةٌ من كتاب، ولا مأثورٌ من العلم، ولذا تحدَّاهم الله أن يأتوا بكتاب يدل على صحة شِركهم، إن كان لديهم كتاب قبل هذا القرآن، ثم سفَّه عقولهم لدعائهم من لا يستجيب لهم، ولو طال الزمان؛ بل الذين يدعون غافلون عن دعائهم، وإذا كان يوم القيامة وحُشر الناسُ للجزاء والحساب تبرؤوا منهم، وأنكروا عبادتهم لهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُلْ﴾ هذا خطاب للرسول ﷺ، وهو يدل على أهمية ما بعده ﴿أَرَءَيْتُم مَّا تَدْعُونَ﴾؛ أي: أخبروني أيها الكافرون عن الذين تدعونهم ﴿مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ من الأصنام وغيرها ﴿أَرُونِى مَاذَا خَلَقُوا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ﴾؛

أي: ما الذي خلقوا من الأرض من جبالها أو أنهارها أو دوابها، أو غير ذلك، وهذا أمر تعجيز وتهكُّم، والاستفهام إنكاري؛ أي: لم يخلقوا شيئًا ﴿أَمْ لَهُمْ شِرْكٌ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾؛ أي: بل أَلَهُم مشاركة في خلق السماوات، فـ﴿أَمْ﴾ هي المنقطعة التي تقدر بـ(بل) والهمزة، فهو إضراب عن الاستفهام الأول إلى الاستفهام الثاني؛ أي: انتقال من نفي أن لأصنامهم خلقًا من الأرض إلى نفي أن يكون لهم شَرِكة في السماوات، وهمزة الاستفهام للإنكار والتوبيخ.

أفادت الآية أنهم لم يخلقوا شيئًا من الأرض، فلم يكن لهم شرك فيها، ولم يكن لهم شرك في السماوات؛ إذْ لم يخلقوا شيئًا منها؛ فالخلق والشَّركة متلازمان، فصُرِّح في الجملة الأولى بنفي أحد المتلازمين وهو الخلق، وفي الثانية بنفي الآخر وهو الشريك، ويسمَّى هذا عند البلاغيين بالاحتباك، وهو فنٌّ بديعيٌّ رفيع.

ولما أبطل تعالى ما يدَّعيه المشركون في معبوداتهم من الإلٰهية بالبرهان العقلي، ذكر ما يبطله من جهة النقل، فقال سبحانه: ﴿ٱئْتُونِي﴾ هذا من جملة القول المأمور به؛ أي: قل لهم أيها الرسول: ﴿ٱئْتُونِي﴾؛ أي: أعطوني، والأمر للتعجيز والتوبيخ ﴿بِكِتَٰبٍ﴾؛ أي: من عند الله ﴿مِّن قَبْلِ هَٰذَآ﴾؛ أي: من قبل القرآن؛ لأنهم لا يؤمنون بالقرآن، فليأتوا ـ إذن ـ بكتاب سابق كالتوراة والإنجيل وغيرهما يشهد بأن معبوداتهم خَلقت شيئًا من الأرض أو أن لها مشاركة في خلق السماوات، وهذا من أعلام النبوة؛ فإن الكتب السماوية كلها شاهدة بالتوحيد، ولو كانت على خلاف ذلك لاستشهدوا بها ﴿أَوْ أَثَٰرَةٍ مِّنْ عِلْمٍ﴾؛ أي: أو ائتوني ببقية من علم الأولين تشهد بذلك وباستحقاقها العبادة في زعمكم ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ۝٤﴾؛ أي: إن كنتم صادقين فأتوني بكتاب، وهذا تبكيت لهم وإفحام، وقَطْع بأنهم غير صادقين، ولا دليل عندهم ولا ما يقارب الدليل.

ولما أبطل اللهُ استحقاقَ آلهتهم العبادة، وألزمهم بدليل العقل والنقل بيَّن أن المشركين أضلُّ من كلِّ أحد، فقال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَضَلُّ﴾ الواو ابتدائية، والاستفهام إنكاري؛ أي: لا أحد أشدُّ ضلالًا ﴿مِمَّن يَدْعُواْ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يعبد غير الله ﴿مَن لَّا يَسْتَجِيبُ لَهُۥٓ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ﴾؛ أي: لا يجيبه إن دعاه أبدًا ﴿وَهُمْ عَن دُعَآئِهِمْ﴾؛ أي: والمعبودات عن دعاء عابديها ﴿غَٰفِلُونَ ۝٥﴾؛ لأنها أحجار وجمادات لا تعي شيئًا، ولا تسمع، ولا تبصر، ولا تتكلم.

وعُبِّر عن هذه المعبودات بضمير العقلاء (هم) وبالغفلة التي هي من أوصاف العقلاء مراعاة لحال عابديها؛ فإنهم يعاملونها معاملة العقلاء في العبادة والتعظيم والدعاء، ويحتمل ـ والله أعلم ـ أن يكون هذا من قبيل التغليب؛ ليَعُم الأصنامَ وغيرَها ممن عُبد من الجن والإنس والملائكة.

ثم بيَّن حالهم وإجابتهم يوم القيامة، فقال سبحانه: ﴿وَإِذَا حُشِرَ ٱلنَّاسُ﴾؛ أي: للجزاء والحساب ﴿كَانُواْ لَهُمْ أَعْدَآءً﴾؛ أي: كان هؤلاء المعبودون أعداءً لمن عبدوهم ﴿وَكَانُواْ بِعِبَادَتِهِمْ﴾؛ أي: وكان المعبودون بعبادة المشركين لهم ﴿كَٰفِرِينَ ۝٦﴾؛ أي: جاحدين متبرئين منهم ومن عبادتهم، كما قال تعالى: ﴿كَلَّاۚ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِدًّا﴾ [مريم: ٨٢].

الفوائد والأحكام:

ثَمَّ فوائد تتعلق بقوله تعالى لنبيِّه ﷺ: ﴿قُلْ﴾، وقد كثر وُرود ذلك في القرآن في فواتح بعض السور، وفي فواتح كثير من الآيات، وهي:

١ ـ أن الله سبحانه يتكلم.

٢ ـ أن الله يأمر.

٣ ـ أن الرسول ﷺ مأمور.

٤ ـ أن هذا القرآن كلام الله.

٥ ـ أن الرسول مبلِّغٌ، وفي ذلك إعلام المخاطبين بأنه لم يأت بهذا الكلام ابتداءً من عند نفسه؛ بل هو مبلغ لكلام مرسلِه، وهم قوم مربوبون.

٦ ـ وجوب التبليغ على الرسول ﷺ.

٧ ـ التنبيه على أهمية مضمون الجملة.

٨ ـ تشريف المأمور بتوجيه الخطاب له.

٩ ـ الرد على الجبرية؛ فإن العبد لو كان مجبرًا لما توجه إليه الأمر.

❁ ومن فوائد الآيات وأحكامها:

١ ـ أن من طرق دعوة المشركين: الاحتجاجَ عليهم من جهة العقل بما يدل على بطلان آلهتهم.

٢ ـ اشتمال القرآن على الأدلة العقلية في أصول الدين من التوحيد والنبوة والمعاد.

٣ ـ أن دلالة العقل على التوحيد من الأمور المشتركة بين بني آدم، فلذا قدم ذكر الدليل العقلي في الآية.

٤ ـ بطلان الشرك عقلًا وسمعًا.

٥ ـ تعليم الله نبيَّه ﷺ مناظرة المكذبين.

٦ ـ أن آلهة المشركين لم تخلق شيئًا في الأرض ولا في السماء.

٧ ـ تحدي المشركين ببيان عجز آلهتهم.

٨ ـ أن العاجز عن الفعل لا يصلح أن يكون إلٰهًا.

٩ ـ أنه لا حجة للمشركين على شركهم، لا من سمع ولا من عقل.

١٠ ـ مشروعية مناظرة أهل الباطل؛ لإحقاق الحق وإبطال الباطل.

١١ ـ أن من أصول المناظرة: مطالبةَ الخصم بالبرهان على دعواه.

١٢ ـ أن من أصول المناظرة: التنويعَ في الحجج وفي مطالبة الخصم؛ إظهارًا لعجزه.

١٣ ـ تسفيه من خرج عن موجَب العقل بقول أو عمل.

١٤ ـ أن كُتب الله المنزَّلة متفقةٌ على إبطال الشرك، والأمرِ بعبادة الله وحده.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَسْـَٔلْ مَنْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ مِن رُّسُلِنَآ﴾ الآية [الزخرف: ٤٥].

١٦ ـ أن دعاء من لا يستجيب وإن طال الزمان من أعظم الضلال.

١٧ ـ أن الدعاء نوع من العبادة.

١٨ ـ أن دعاء غير الله من الأصنام والأموات والغائبين عبادةٌ لهم وشرك بالله.

١٩ ـ أن معبودات المشركين غافلة عن دعاء المشركين إياها، ولو كانوا من الملائكة.

٢٠ ـ أن معبودات المشركين تتبرَّأ من المشركين ومن عبادتهم.

٢١ ـ أن معبودات المشركين تصير أعداءً لعابديها يوم القيامة.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ٱلْأَخِلَّآءُ يَوْمَئِذٍۭ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [الزخرف: ٦٧].

٢٣ ـ التعبير عن معبودات المشركين بما يختص بالعقلاء تنزيلًا أو تغليبًا.

٢٤ ـ إثبات البعث والحشر.

٢٥ ـ تسفيه عقول المشركين.

قال تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾ أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ ۖ قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا ۖ هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ ۖ كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ ۖ وَهُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٨﴾ قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴿٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآياتُ الإخبارَ عن أقوال الكفار في القرآن، والردَّ عليهم بكمال قدرة الله، وكمال علمه بحال الرسول ﷺ وحالهم، وأنه ﷺ لا يعلم إلا ما علَّمه الله، وأنه لم يكن بِدْعًا من الرسل؛ بل هو رسول قد خلت من قبله الرسل؛ فما هو إلا نذير مبين من نُذُر الله، وهو خاتمهم ﷺ.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: وإذا تُقرأ على المشركين ﴿ءَايَٰتُنَا﴾؛ أي: آيات القرآن، جمع آية، وهي في اللغة العلَامة، وسمِّيت آيات القرآن بذلك؛ لأنها علامات دالة على صدق من جاء بها ﴿بَيِّنَٰتٍ﴾؛ أي: واضحات المعاني ﴿قَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ﴾؛ أي: قال الكافرون ـ بسبب كفرهم وعنادهم دون تأمل وتدبر ـ عن الحق الذي دلت عليه الآيات من البعث واليوم الآخر والدعوة إلى التوحيد ﴿هَٰذَا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿٧﴾﴾؛ أي: سحر بيِّنٌ ظاهر؛ أي: لما فيه من مناقضة المعقول بزعمهم، فجعلوا هذا الكلام من جنس أقوال السحرة؛ لفرط عنادهم وتكذيبهم.

ومما هو معلوم عن السَّحرة أن لهم في السحر طريقين:

أولهما: أقوال يُموِّهون بها ويُرجِفون، وهي مشتملة على كذب ومغالطات.

وثانيهما: أفعالٌ ذات أسباب خفية مستورة بحيل وخفة أيد تحركها، فيوهمون بها الناس أنها من تمكين الجن إياهم ليصلوا إلى ما يريدون؛ فالمشركون إذا سمعوا القرآن ألحقوه بالنوع الأول، وهذا اعترافٌ منهم بإعجاز القرآن، وإذا رأوا المعجزات ألحقوها بالنوع الثاني، كما قالت المرأة التي شاهدت معجزة تكثير الماء في بعض غزوات النبي ﷺ، فقالت لقومها: لقيتُ أسحر الناس، أو هو نبيٌّ كما زعموا[(١)].

ولو جرى أسلوبُ الآية على مقتضى الظاهر لكان السياق هكذا: قالوا سحر مبين، ولكن عَدَل القرآنُ عن ضمير الكفار إلى اسمهم الظاهر تسجيلًا عليهم بالكفر، وليشمل الحكمُ غيرَهم ممن يقول بمقالتهم، كما عَدَل القرآنُ عن ضمير الآيات، فسمَّاها (حَقًّا)؛ فعلى هذا يكون وصفُها بالسحر بهتانًا عظيمًا.

قوله تعالى: ﴿أَمْ يَقُولُونَ ٱفْتَرَىٰهُ﴾ إضراب وانتقال عن قولهم: هذا سحر، إلى ذكر قول آخر لهم في القرآن؛ أي: أيقول هؤلاء الكافرون: إن محمدًا اختلق هذا القرآن كذبًا من عند نفسه؟! فهو استفهام إنكار وتوبيخ وتعجب، ولهذا أمَر الله نبيّه ﷺ أن يجيبهم عن هذه الدعوى الباطلة: ﴿قُلْ إِنِ ٱفْتَرَيْتُهُۥ فَلَا تَمْلِكُونَ لِى مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾؛ أي: قل لهم: إن كنت افتريته كما تزعمون، فسينتقم الله منِّي، ولا تدفعون عنِّي شيئًا من

---

(١) رواه البخاري (٣٣٧٨)، ومسلم (٦٨٢) عن عمران بن حصين ﷺ.

عذاب الله العظيم؛ فكيف أجترئ على ذلك؟! فإنه تعالى لا يُقِرُّ أحدًا يفتري عليه الكذب فضلًا عن أن ينصره ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِمَا تُفِيضُونَ فِيهِ﴾؛ أي: هو تعالى وحده أعلم بما تتكلمون به دائمًا في شأن القرآن من القدح والتكذيب؛ فمرة تقولون: سحر، وتارة تقولون: افتراه.

وأصل الإفاضة: الأخذ في الشيء باندفاع.

قوله تعالى: ﴿كَفَىٰ بِهِۦ شَهِيدًۢا﴾؛ أي: كفى بالله شهيدًا، ومعنى ﴿كَفَىٰ﴾ بلغ الكمال في الكفاية والإغناء عمَّا سواه ﴿شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾؛ أي: فيشهد لي بالصدق ويشهد عليكم بالتكذيب، وفي ذكر الشهادة ـ وهي العلم والاطلاع ـ وعد ووعيد ﴿وَهُوَ ٱلْغَفُورُ﴾ أي: الله ﷻ كثير المغفرة لذنوب عباده، فيستر ذنوبهم ويتجاوز عنهم ﴿ٱلرَّحِيمُ ⁨٨⁩﴾؛ أي: واسع الرحمة، ولم يقل: وهو شديد العقاب؛ إشارة إلى أنهم لو تابوا لقَبِل اللهُ توبتهم، وإشعارًا بحلم الله عليهم؛ حيث لم يعاجلهم بالعقوبة مع عظم جُرمهم.

ثم يأمر الله نبيّه ﷺ أن يرد على هؤلاء الذين نسبوه إلى الافتراء ببرهان آخر؛ فيقول سبحانه:

﴿قُلْ مَا كُنتُ بِدْعًا مِّنَ ٱلرُّسُلِ﴾ البِدْع هو: المتفرِّد الذي لم يُر له مثيل؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ: لستُ أولَ رسولٍ طَرَق العالم فتُنكروا رسالتي؛ بل سبقني رسلٌ كثيرون دعوا إلى مثل ما دعوتُ إليه من الإسلام والتوحيد ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾؛ أي: ولا أعلم ما يفعله الله بي ولا بكم في هذه الدنيا من تفاصيل ما يجري على الفريقين من النصر أو العقاب، فهذا غيبٌ أمْره إلى الله ﴿إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ﴾؛ أي: لا أتبع إلا ما ينزله الله عليَّ من القرآن، ولا أبتدع شيئًا من عندي ﴿وَمَآ أَنَا۠ إِلَّا نَذِيرٌ﴾؛ أي: وما أنا إلا منذرٌ مهددٌ بعذاب الله لمن كفر

﴿مُّبِينٌ ۝٩﴾؛ أي: بيِّن الإنذار بالبراهين الظاهرة والأدلة القاطعة لا مُفترٍ لما جئتكم به من هذا القرآن.

الفوائد والأحكام:

١ ـ مشروعية قراءة القرآن على الكفار؛ لإقامة الحجة عليهم.

٢ ـ أن آيات القرآن واضحات مبيِّنات للحق من الباطل.

٣ ـ أن من أقوال الكفار في القرآن أنه سحر، فلا بد أن يكون الذي جاء به ساحرًا.

٤ ـ أن هذه الدعوى مما تتابعت عليها الأمم.

٥ ـ التشابه بين أعداء الرسل في طعنهم فيهم وفيما جاؤوا به.

٦ ـ مبالغتهم في الكذب على القرآن؛ إذْ زعموا أنه سحر بيِّن.

٧ ـ أن عادة الكفار عند دعوتهم المبادرةُ إلى التكذيب دون التدبر والنظر.

٨ ـ أن من أقوال الكفار في القرآن أن الرسول افتراه.

٩ ـ الردُّ عليهم في هذه الفرية بأن لو كان ذلك لانتقم الله منه.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ ٱلْأَقَاوِيلِ ۝٤٤ لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِٱلْيَمِينِ ۝٤٥ ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ ٱلْوَتِينَ ۝٤٦ فَمَا مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَـٰجِزِينَ﴾ [الحاقة: ٤٤ ـ ٤٧].

١١ ـ جواز وصف الله بأفعل التفضيل في صفاته تعالى، كأعلم وأرحم وأشد قوة.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [فصلت: ٥٣].

١٣ ـ أن شهادته تعالى واطِّلاعه مع كمال حكمته وقدرته، يقتضي الحكم بينهما بنصر المُحِق وإهلاك المُبطِل.

١٤ ـ شهادة الله بصدق الرسول ﷺ بإمهاله له، ففيه:

١٥ ـ علم من أعلام نبوته ﷺ.

١٦ ـ إثبات اسمين من أسمائه تعالى، وهما: الغفور والرحيم، وما دلَّا عليه من صِفَتي المغفرة والرحمة.

١٧ ـ أن هذا الرسول ﷺ ليس بِدعًا من الرسل؛ بل سبقه كثيرون، وهو على طريقهم.

١٨ ـ أن الرسول ﷺ لا يعلم الغيب، وهو يُقِر بذلك ﷺ.

١٩ ـ أن الرسول ﷺ لا يعلم من الغيب إلا ما علَّمه الله.

٢٠ ـ التنزُّل مع الخصم بعدم القطع بعاقبة واحد من الخصمين؛ لقوله: ﴿وَمَآ أَدْرِى مَا يُفْعَلُ بِى وَلَا بِكُمْ﴾.

٢١ ـ أن أعظم مقصود الرسالة إنذار العباد.

ثم أمر الله نبيَّه ﷺ أن يذكر لهم حجة أخرى لإثبات أن القرآن حقٌّ؛ فقال سبحانه:

﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ وَكَفَرْتُم بِهِۦ وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَوْ كَانَ خَيْرًا مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِ ۚ وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُوا۟ بِهِۦ فَسَيَقُولُونَ هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾ وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً ۚ وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

يأمر الله نبيَّه في هذه الآيات أن يقول للمشركين: أخبروني إن كان هذا القرآن من عند الله، والحال أنكم كفرتم به، وقد شهد شاهد من بني إسرائيل على مثل هذا القرآن، وهو التوراة، فآمن الشاهد بما شهد به، واستكبرتم، وذلك من الظلم البيِّن، والله لا يهدي القوم الظالمين.

ثم أخبر تعالى أن الكفار يفخرون على المؤمنين، ويُهوِّنون من شأن القرآن، ومضمون قولهم: أن القرآن ليس بخير، ولو كان خيرًا لكانوا أسبق إليه من المؤمنين.

ولما ذكر الله هذا القرآن وحال الكفار معه أخبر عن كتاب موسى ـ التوراة ـ المنزَّل قبله إمامًا ورحمة، وأنَّ هذا القرآن مصدق له بلسان عربي مبين، أنزله الله نذيرًا للظالمين، وبشيرًا للمحسنين.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قُلْ أَرَءَيْتُمْ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ لقومك المكذبين من أهل مكة: أخبروني ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: إن ثبت أن هذا القرآن الموحَى به إليَّ ﴿مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾ حقًّا، وليس سحرًا ولا

افتراءً ﴿وَكَفَرْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: وكذَّبتم به ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ﴾؛ أي: وقد شهد شاهد عظيم ﴿مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ﴾؛ أي: من أهل الكتاب العارفين بالوحي ﴿عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾؛ أي: على نزول مثله من عند الله؛ لاشتماله ـ أي: القرآن ـ على الأخبار الصادقة والعقائد الصحيحة والشرائع المستقيمة؛ فالقرآن مشابه في أصوله ومعانيه الكليَّة لكتب الله السابقة، والمراد بالمِثل الذي شهد الشاهد عليه هو: التوراة، ولهذا قال تعالى بعد هذه الآية: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾.

قوله تعالى: ﴿فَـَٔامَنَ﴾؛ أي: فآمن هذا الشاهد ﴿وَٱسْتَكْبَرْتُمْ﴾؛ أي: تكبرتم عن الإيمان، وجواب الشرط محذوف يدل عليه آخر الآية، تقديره: فأنتم إذن ظالمون، وحذف الجواب من ضُروب البلاغة ومن حسن البيان، وفيه شحذ للأذهان وتوجيه لها للإحاطة بمعاني الكلام ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٠﴾﴾؛ أي: لا يوفِّق للخير والفلاح من كان ظالمًا فاجرًا، جزاءً وفاقًا، وسنن الله لا تتبدل في خذلان الظالمين، وحرمانهم من الهداية.

والشاهد المذكور في الآية على قول جمهور المفسرين هو: عبد الله بن سلَام رضي الله عنه، وجاء هذا عن طائفة من السلف، وفي «صحيح البخاري» في (باب من فضائل عبد الله بن سلام): عن عبد الله بن يوسف قال: سمعت مالكًا يحدث عن أبي النَّضْر مولى عمر بن عبيد الله عن عامر بن سعد بن أبي وقاص عن أبيه قال: ما سمعت النبي ﷺ يقول لأحد يمشي على الأرض: إنه من أهل الجنة إلا لعبد الله بن سلام. قال: وفيه نزلت هذه الآية ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ﴾ الآية. قال عبد الله بن يوسف: لا أدري قال مالك الآية أو في الحديث[1].

(١) البخاري (٣٠٦١).

ويؤيد هذا أيضًا ما رواه البخاري عن أنس أن عبد الله بن سلام لما بلغه مقدم رسول الله ﷺ المدينة أتاه فقال: إني سائلك عن ثلاث لا يعلمهن إلا نبي: ما أول أشراط الساعة؟ وما أول طعام يأكله أهل الجنة؟ ومن أيِّ شيء ينزع الولد إلى أبيه؟ ومن أيِّ شيء ينزع إلى أخواله؟ فقال رسول الله ﷺ: «**أما أول أشراط الساعة فنار تحشر الناس من المشرق إلى المغرب، وأما أول طعام يأكله أهل الجنة فزيادة كبد الحوت، وأما الشبه في الولد فإن الرجل إذا غشي المرأة فسبقها ماؤه كان الشبه له، وإذا سبق ماؤها كان الشبه لها**». قال عبد الله: أشهد أنك رسول الله[(١)]، الحديث.

وعند ابن كثير أن هذا الشاهد اسم جنس يعم عبد الله بن سلام وغيره[(٢)]، ويشهد لذلك آيات من كتاب الله، منها: قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، وقوله: ﴿فَإِن كُنتَ فِي شَكٍّ مِّمَّآ أَنزَلْنَآ إِلَيْكَ فَسْـَٔلِ ٱلَّذِينَ يَقْرَءُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكَۚ﴾ [يونس: ٩٤]، فيكون ذكر السلف لعبد الله بن سلام من باب ذكر المثال، أو من باب ذكر بعض أفراد العام.

قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: قال كفار مكة عن المؤمنين ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾؛ أي: لو كان هذا الإسلام والقرآن خيرًا ﴿مَّا سَبَقُونَآ إِلَيْهِۚ﴾؛ أي: ما سبقنا إليه هؤلاء، يريدون المستضعفين من أمثال عمار وبلال وابن مسعود ﷺ وغيرهم، وهذا من غرور الكفار وإعجابهم بأنفسهم واحتقارهم للمؤمنين ﴿وَإِذْ لَمْ يَهْتَدُواْ بِهِۦ﴾ (إِذْ) للتعليل؛ أي: ومن أجل أنهم لم يهتدوا بالقرآن ﴿فَسَيَقُولُونَ﴾ منكرين ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ ﴿١١﴾﴾؛ أي: كذب من أساطير الأولين.

---

(١) البخاري (٣١٥١). (٢) تفسير القرآن العظيم (٧/ ٢٧٨).

قوله تعالى: ﴿وَمِن قَبْلِهِۦ كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾ جملة من مبتدأ وخبر؛ أي: ومن قبل القرآن كتاب موسى، وهو التوراة ﴿إِمَامًا وَرَحْمَةً﴾ حالان من ﴿كِتَٰبُ مُوسَىٰٓ﴾؛ أي: أنزل الله كتاب موسى إمامًا يُقتَدى به في دين الله وشرائعه، ويُتبع كما يُتبع الإمام ﴿وَرَحْمَةً﴾؛ أي: ورحمةٌ للمؤمنين به من بني إسرائيل ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ مُّصَدِّقٌ لِّسَانًا عَرَبِيًّا﴾؛ أي: وهذا القرآن العظيم الذي يكذبونه المنزَّل على محمد ﷺ كتابٌ مصدِّق لما سبقه من الكتب، أنزله الله حال كونه بلسان عربي فصيح تفهمونه حق الفهم، لم يقل: مصدق له؛ ليشمل التوراة وغيرها من الكتب السماوية؛ فكيف لا تؤمنون بالقرآن، وتقولون عنه: إفك مفترى؟!

قوله تعالى: ﴿لِّيُنذِرَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟﴾؛ أي: أنزل الله القرآن ليكون إنذارًا متجددًا لكل ظالم من مشركي مكة وغيرهم ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُحْسِنِينَ ﴿١٢﴾﴾؛ أي: وبشارة بالسعادة التامة في الدنيا والآخرة للمؤمنين المحسنين، وفيه إشعار بسبب هذه البشارة، وهو إحسانهم في عبادة ربهم، وفي معاملة الخلق.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ التنزُّل مع الخصم في المناظرة بفرض ما يُقطع به محتمَلًا؛ لقوله تعالى: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٢ ـ أنَّ جحد ما جاء من عند الله وقام عليه البرهان: من الظلم المناقض للعقل.

٣ ـ أنَّ الظلم من أسباب حرمان الهداية.

٤ ـ أنَّ أمر الهدى والإضلال إلى الله ﷻ.

٥ ـ إثبات عندية الابتداء؛ لقوله: ﴿إِن كَانَ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾.

٦ ـ إثبات فعل العبد، والردُّ على الجبرية؛ لقوله: (كَفَرْتُمْ)، (اسْتَكْبَرْتُمْ)، و(آمَنَ).

٧ ـ الاعتداد بشهادة أهل الكتاب على صحة القرآن، ولو كفروا به، مع مخالفة أهوائهم.

٨ ـ أن شهادة مؤمني أهل الكتاب أحقُّ بالاعتبار.

٩ ـ فضل عبد الله بن سلَام ﷺ؛ لأنه من مؤمني أهل الكتاب.

١٠ ـ أن المانع للمشركين من الإيمان بالقرآن هو الاستكبار.

١١ ـ فيها شاهد لقول الرسول ﷺ: «**الكبر بطر الحق**»[(١)]؛ أي: ردُّه.

١٢ ـ احتقار الكفار للمؤمنين، وفخرهم عليهم، وهذا من كبرهم.

١٣ ـ أنَّ الكبر يحمل صاحبه على المكابرة بجحد الحق البيِّن؛ لقولهم: ﴿لَوْ كَانَ خَيْرًا﴾.

١٤ ـ أنَّ من عقوبات الكبر والمكابرة وردِّ الحقِّ أن حُرموا من الاهتداء بالقرآن.

١٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَقَالُوٓاْ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ٱكْتَتَبَهَا فَهِىَ تُمْلَىٰ عَلَيْهِ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الفرقان: ٥]، وهي مفسِّرة لقولهم: ﴿هَٰذَآ إِفْكٌ قَدِيمٌ﴾.

١٦ ـ التنويه بكتاب موسى (التوراة) على إثْر ذكر القرآن.

١٧ ـ التشابه بين الكتابين التوراة والقرآن، والرسولين موسى ومحمد عليهما الصلاة والسلام؛ لكثرة ما يقرن الله بين الكتابين والرسولين في الذكر.

١٨ ـ أنَّ إنزال الكتب وإرسال الرسل رحمةٌ من الله بعباده؛ ليهتدوا إلى ما به سعادتهم في الدنيا والآخرة.

---

(١) رواه مسلم (٩١) عن عبد الله بن مسعود ﷺ.

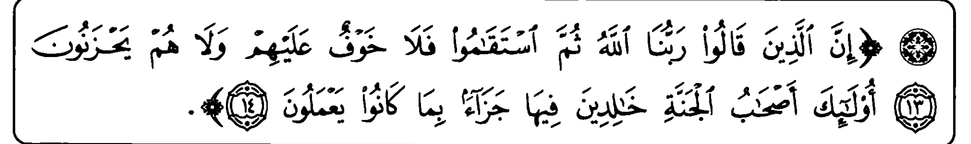
١٩ ـ أنَّ هذا القرآن مصدق للتوراة، وإن اختلف اللسانان.

٢٠ ـ أنَّ إنزال القرآن ليس بِدْعًا من كتب الله؛ بل هو مسبوق بكتب منزلة من عنده تعالى.

٢١ ـ فضل اللغة العربية على غيرها من اللغات؛ لأنَّ الله أشاد بها في وصف كتابه العظيم؛ فهي أشرف اللغات، وأفصحها، وأقربها إلى القلوب، وأدلُّها على المعاني؛ لأن الله اختارها لأفضل كتبه.

٢٢ ـ أنَّ الغاية من إنزال القرآن: إنذار الظالمين وبشارة المحسنين.

ولما أخبر سبحانه عن المحسنين وأن لهم البشرى؛ أتبع ذلك ببيان حالهم وما أعد لهم من الجزاء؛ فقال سبحانه:


﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءَۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الإخبارَ عن عاقبة حزبه تعالى وأوليائه الذين آمنوا واستقاموا بأنهم لا يخافون ولا يحزنون، وأنهم أصحاب الجنة يدخلونها خالدين فيها، جزاء على أعمالهم الصالحة.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ﴾؛ أي: قالوا عن اعتقاد جازم: ربُّنا الله؛ أي: خالقنا ومالكنا ومُربِّينا بنعمه اللهُ لا إلَهَ غيرُه، وهذا هو التوحيد وأصل الإيمان، فهم مُقِرُّون به ﴿ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ﴾؛ أي: استقاموا على الإيمان؛ أي: ثبتوا عليه، وعلى العمل بالشريعة فعلًا لما أمر الله به ورسوله، وتركًا لما نهى الله عنه ورسوله ﷺ، فجمعوا بين العلم والعمل وبين التوحيد والطاعة، ولم ينحرفوا عن صراط الله.

ومجيء (ثم) للدلالة على تراخي العمل عن الإيمان رتبة وزمانًا؛ فالإيمان أعلى منزلة، وهو يسبق العمل ولا بد ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: لا خوفٌ عليهم في المستقبل؛ لأنهم آمنون ﴿وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾﴾ على ما تركوا في الدنيا من متاعها، وجملة ﴿فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ﴾ هي خبر (إن)، وزيدت الفاء لتضمُّن اسم (إن) ـ وهو الاسم الموصول ـ معنى الشرط.

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلۡجَنَّةِ﴾؛ أي: أهلها الملازمون لها الذين لا يتحولون عنها، وإشارة البعيد ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ تدل على علو منزلتهم ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَا﴾ منصوب على الحال؛ أي: ماكثين فيها لا يُخرجون منها، وهذا من تمام النعيم، ولهذا إذا دخل أهلُ الجنة الجنة نادى مناد: يا أهل الجنة خلود ولا موت ﴿جَزَآءَۢ﴾ منصوب على المصدر؛ أي: أجازيهم جزاءً ﴿بِمَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ١٤﴾؛ أي: بسبب أعمالهم الصالحة التي قدموها في الدنيا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن أصل السعادة والفلاح: الإيمانُ بالله.

٢ ـ أن أصل الإيمان بالله: الإقرارُ بربوبيته تعالى المقتضيةِ لعبادته وحده لا شريك له.

٣ ـ أنه لا يكفي في تحقيق ولاية الله مجردُ الإيمان به؛ بل لا بد من الاستقامة على هذا الإيمان؛ بالدوام عليه والعمل بمقتضاه، وهو فعل المأمور وترك المحظور.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَلَآ إِنَّ أَوۡلِيَآءَ ٱللَّهِ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ ٦٢ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ ٦٣ لَهُمُ ٱلۡبُشۡرَىٰ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَفِي ٱلۡأٓخِرَةِۚ﴾ [يونس: ٦٢ ـ ٦٤].

٥ ـ أن من أعظم ما يحقق السعادة: الأمنَ وذهاب الحَزن.

٦ ـ أن المؤمنين المتقين هم أهل الجنة.

٧ ـ أن من يدخل الجنة يخلُد فيها، لا يظعن منها أبدًا.

٨ ـ أن العمل الصالح سبب لدخول الجنة.

٩ ـ اعتبار العمل في النجاة من العذاب وترتب الثواب، ففيها:

١٠ ـ الرد على المرجئة.

١١ ـ إثبات الجنة ودوامها.

١٢ ـ إثبات الأسباب، والردُّ على منكريها.

١٣ ـ إثبات الجزاء.

ولما ذكر اللهُ أمرَ الكتابين: التوراة والقرآن، وافتراقَ الناس فيهما بالإيمان والكفر، وما اشتملا عليه من إنذار الظالمين وبشرى المحسنين؛ وصَّى سبحانه الإنسان بنوع من الإحسان، وهو بر الوالدين، وشكر نعم الله السابقة واللاحقة، فقال سبحانه:

﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ إِحْسَانًا حَمَلَتْهُ أُمُّهُ كُرْهًا وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا وَحَمْلُهُ وَفِصَالُهُ ثَلَاثُونَ شَهْرًا حَتَّىٰ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَبَلَغَ أَرْبَعِينَ سَنَةً قَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَصْلِحْ لِي فِي ذُرِّيَّتِي إِنِّي تُبْتُ إِلَيْكَ وَإِنِّي مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّئَاتِهِمْ فِي أَصْحَابِ الْجَنَّةِ وَعْدَ الصِّدْقِ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ ﴿١٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان وصيةَ الله للإنسان بالإحسان إلى والديه، خصوصًا الأم، مع التنبيه على المقتضي لهذا الإحسان في حق الأم، وقد تضمَّن ذلك بيانَ مدة الحمل والرضاع، وذكْرَ ما ينبغي للإنسان إذا بلغ أشده، وبلغ أربعين سنة؛ من شكر الله على نعمه السابقة واللاحقة، وذكْرَ نص الدعاء مما فيه تفضيله وإرشاده إلى الدعاء به، ثم الثناءَ على صاحب هذا الدعاء، ووعْدَه بقبول عمله، والتجاوز عن سيئاته، وسلوكِهِ في أصحاب الجنة، وعدَ الصدق الذي وعَدَ الله به عباده الصالحين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَوَصَّيْنَا الْإِنسَانَ بِوَالِدَيْهِ﴾؛ أي: أمرناه وألزمناه، والمراد بالإنسان المؤمن، كما يدل له آخر الآية، ويدل له أيضًا ما جاء في سبب نزول آيتي العنكبوت ولقمان، وهما بمعناها، فقد روى مسلم

عن مصعب بن سعد عن أبيه أنه نزلت فيه آيات من القرآن، قال: حلفت أم سعد ألَّا تكلمه أبدًا حتى يكفر بدينه، ولا تأكل ولا تشرب، قالت: زعمتَ أن الله وصَّاك بوالديك، وأنا أمُّك، وأنا آمرك بهذا. قال: مكثت ثلاثًا حتى غُشي عليها من الجَهد، فقام ابن لها يقال له: عُمارة، فسقاها، فجعلت تدعو على سعد، فأنزل الله ﷻ في القرآن هذه الآية: ﴿وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حُسْنًا ۖ﴾ [العنكبوت: ٨] ﴿وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى﴾ [لقمان: ١٥] وفيها ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ﴾ [لقمان: ١٥][1].

قوله تعالى: ﴿بِوَٰلِدَيْهِ﴾ الوالدان تثنية والد، وفيه تغليب الذكر على الأنثى ﴿إِحْسَٰنًا ۖ﴾؛ أي: وصيناه أن يحسن إليهما بجميع أنواع البر، في حياتهما وبعد مماتهما، ثم ذكر السبب في هذه الوصية فقال: ﴿حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ كُرْهًا﴾؛ أي: بمشقة، وفي ذلك إشارة إلى ثقل الحمل وأعراضه وأمراضه ﴿وَوَضَعَتْهُ كُرْهًا ۖ﴾؛ أي: ولدته بمشقة بعد تمام مدة حمله، وخصَّ الكلام بالأم للتنبيه على أن حقَّها أعظم، وأنها أحقُّ بالرعاية لضعفها، ولهذا أكَّد النبي ﷺ على حق الأم بقوله لمن سأله: من أحقُّ الناس بحسن الصحبة؟ قال: «**أمُّك، ثم أمُّك، ثم أمُّك، ثم أبوك، ثم أدناك أدناك**»[2].

قوله تعالى: ﴿وَحَمْلُهُۥ﴾؛ أي: مدةُ حمل الإنسان ﴿وَفِصَٰلُهُۥ﴾؛ أي: فِطامه، وسمِّي الفِطام فِصالًا؛ لأن الفِصال يعقب الرضاع، والتسمية تكون لأدنى ملابسة ﴿ثَلَٰثُونَ شَهْرًا ۚ﴾ فتلك مدة الحمل والرضاعة، وهذه الآية مع قوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ﴾ [لقمان: ١٤]، وقوله: ﴿وَٱلْوَٰلِدَٰتُ يُرْضِعْنَ أَوْلَٰدَهُنَّ حَوْلَيْنِ كَامِلَيْنِ ۖ لِمَنْ أَرَادَ أَن يُتِمَّ

---

(١) مسلم (١٧٤٨).

(٢) البخاري (٥٦٢٦)، ومسلم (٢٥٤٨)، واللفظ له عن أبي هريرة رضي الله عنه.

﴿ٱلرَّضَاعَةَۚ﴾ [البقرة: ٢٣٣] تدل على أن أقل مدة الحمل التي يعيش الحمل بعدها ستة أشهر.

قوله سبحانه: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُۥ﴾؛ أي: بلغ الحُلم وهو سن التكليف، وصار رشيدًا، ويؤيد هذا التفسير قوله تعالى: ﴿وَٱبۡتَلُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا فَٱدۡفَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ﴾ [النساء: ٦]، مع قوله سبحانه: ﴿وَلَا تَقۡرَبُواْ مَالَ ٱلۡيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِي هِيَ أَحۡسَنُ حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ [الأنعام: ١٥٢]، قال ابن كثير: «قوله: ﴿حَتَّىٰ يَبۡلُغَ أَشُدَّهُۥۚ﴾ قال الشعبي ومالك وغير واحد من السلف: يعني: حتى يحتلم»[(١)].

وهذا التفسير للآية هو الصحيح، واختاره الشيخ محمد الأمين الشنقيطي رَحِمَهُ ٱللَّهُ عند آية الأنعام، قائلًا: «والتحقيق أن المراد بالأشد في هذه الآية البلوغ؛ بدليل قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنۡ ءَانَسۡتُم مِّنۡهُمۡ رُشۡدٗا﴾ الآية [النساء: ٦]»[(٢)]، فهذا هو الصواب؛ لأنه دلَّ عليه القرآن، وأولى ما يفسر به القرآن القرآن، وإن ذهب إلى خلافه كثير من المفسرين.

قوله تعالى: ﴿وَبَلَغَ أَرۡبَعِينَ سَنَةٗ﴾ وهو نهاية الأشد، وهو السِّنُّ الذي يكتمل به العقل، وهو سنُّ النبوة فيما قيل: ﴿قَالَ رَبِّ﴾؛ أي: يا ربِّي، حُذف حرف النداء (يا) استشعارًا لقربه تعالى من الداعي، وحُذفت ياء المتكلم للتخفيف ﴿أَوۡزِعۡنِيٓ أَنۡ أَشۡكُرَ نِعۡمَتَكَ ٱلَّتِيٓ أَنۡعَمۡتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَٰلِدَيَّ﴾؛ أي: ألهِمْني ووفِّقني لشكر نعمك، فـ(نعمة) مفرد مضاف فيفيد أن ثَمَّ نعمًا كثيرة دينية ودنيوية أنعم الله بها على عبده، أعظمها الهداية إلى الإيمان، كما قال سبحانه: ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ﴾ [الحجرات: ٧]، وقال: ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيۡكُمۡ أَنۡ هَدَىٰكُمۡ لِلۡإِيمَٰنِ﴾

---

(١) «تفسير القرآن العظيم» (٣/ ٣٦٤).
(٢) «أضواء البيان» (١/ ٥٤٥).

[الحجرات: ١٧]، وشكر النعمة يكون باستحضارها دائمًا؛ باللسان ثناء وتحدثًا بها، وبالقلب إقرارًا وتعظيمًا للمنعم، وبالجوارح طاعةً وانقيادًا، ومن النعم التي تستوجب الشكر: نعمة الله على الوالدين، فإنها نعمة على الولد أيضًا.

قوله تعالى: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَٰلِحًا تَرْضَىٰهُ﴾؛ أي: وفِّقني يا ربي أن أعمل عملًا صالحًا ترضاه مني وتتقبله ﴿وَأَصْلِحْ لِى فِى ذُرِّيَّتِىٓ﴾؛ أي: اجعل الصلاح راسخًا في نسلي، وهذا ما تعطيه (في) الظرفية، وإلا فإن الفعل (أصلح) يتعدَّى بنفسه، كما قال تعالى: ﴿وَأَصْلَحْنَا لَهُۥ زَوْجَهُۥٓ﴾ [الأنبياء: ٩٠]، فهذا الداعي طلب من الله ثلاثة أشياء:

١ ـ أن يوفقه لشكر نعمه تعالى.

٢ ـ أن يوفقه للعمل الصالح.

٣ ـ أن يصلح ذريته.

ثم توسَّل إلى الله بقوله: ﴿إِنِّى تُبْتُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: رجعتُ إليك من جميع ذنوبي ﴿وَإِنِّى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: المستسلمين لأمرك بعبادتك وحدك لا شريك لك، وطاعتك وطاعة رسولك. وفي ذكر هذا الدعاء إرشادٌ من الله لعبده المسلم أن يدعو الله به في كل وقت، من حين بلوغه، ويتأكد ذلك عند سنِّ الأربعين؛ لأنها سنُّ اكتمال القوة العقلية والبدنية.

قوله سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ؛ أي: أولئك الموصوفون بتلك الصفات الجليلة، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنْهُمْ أَحْسَنَ مَا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: نتقبل منهم أحسن ما عملوا في الدنيا، وهي أعمالهم الصالحة، فنجازيهم عليها، ونثيبهم عليها ﴿وَنَتَجَاوَزُ عَن سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: ونعفو عن سيئاتهم، وفي هذا إشارة إلى أن الإنسان لا يخلو عن ذنب، فهؤلاء مع أنهم

محسنون فقد وقعت منهم سيئات، فعلى الجميع التوبة إلى الله دائمًا ﴿فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلۡجَنَّةِۖ﴾ الجملة حالية؛ أي: داخلين في أصحاب الجنة ﴿وَعۡدَ ٱلصِّدۡقِ﴾ ﴿وَعۡدَ﴾ مصدر مؤكد لمضمون الجملة، وإضافته إلى الصدق من إضافة الموصوف إلى صفته؛ أي: موعودين الوعدَ الصِّدقَ؛ لأنَّ قولَه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ نَتَقَبَّلُ عَنۡهُمۡ﴾ في معنى الوعد ﴿ٱلَّذِي كَانُواْ يُوعَدُونَ ١٦﴾؛ أي: يوعدونه من الله تعالى، وعلى ألسنة الرسل والأنبياء. ووعده تعالى لا يُخلَف، فهو تعالى أصدق من وعد، وأكرم من وفَى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أنواع كلامه تعالى: الوصية، كما أن من أنواع كلامه الأمر والنهي والإنباء.

٢ ـ عِظَم حق الوالدين على الولد.

٣ ـ وجوب بر الوالدين، وتحريم عقوقهما.

٤ ـ فضل الأم على الأب في ذلك.

٥ ـ سبب هذه الخصوصية.

٦ ـ أنَّ ما يَلحق الإنسان من المشاق في سبيل مصلحة غيره وإن لم تكن المشاق باختياره؛ بل على كُره منه، أنَّ ذلك يستدعي مزيد شكرٍ ممن له المصلحة. وجه ذلك: أن ما يحصل للأم من آلام الحمل والوضع ليس باختيارها، لكن سبب ذلك واقع باختيارها وهو النكاح.

٧ ـ أن أقل مدة الحمل ستة أشهر؛ لأن مدة الفِصال عامان؛ لقوله تعالى: ﴿وَفِصَٰلُهُۥ فِي عَامَيۡنِ﴾ [لقمان: ١٤].

٨ ـ أن بِرَّ الوالدين يكون بالإحسان إليهما بشتى وجوه الإحسان القولية والعملية.

٩ ـ أن بلوغ الأشد وبلوغ الأربعين من العمر من النعم التي تقتضي شكرًا وتذكُّرًا لنعم الله.

١٠ ـ أن نعمة الله على الوالدين نعمة على الولد تستوجب الشكران.

١١ ـ فقر العبد إلى ربه، وحاجتُه إلى عونه في شكر نعمه وفي العمل الصالح.

١٢ ـ الرد على القدرية في قولهم باستغناء العبد بقدرته ومشيئته عن إقدار الله له ومشيئته.

١٣ ـ التوسل إلى الله باسم الرب.

١٤ ـ أن الله لا يرضى من العمل إلا ما كان صالحًا.

١٥ ـ إثبات صفة الرضا لله.

١٦ ـ أن أهم ما يطلبه الوالد لولده صلاحُه في دينه.

١٧ ـ التوسل إلى الله في الدعاء بالتوبة والإسلام.

١٨ ـ فضل هذا الدعاء؛ لأن الله ذكَره وأثنى على من دعا به.

١٩ ـ ما وعد الله به العبد الشاكر العامل بما يرضي الله، وهو ثلاثة أمور:

١ ـ تقبُّل أحسن عمله.

٢ ـ التجاوز عن سيئاته.

٣ ـ دخوله في عداد أصحاب الجنة.

٢٠ ـ أن وعد الله لأوليائه لا يخلف.

ولما ذكر الله حال المؤمن بربه الشاكر له المحسن لأبويه البار بهما، ذكر الكفور بربه العاقَّ لوالديه؛ فقال سبحانه:

﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ أُفٍّ لَّكُمَا أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ وَقَدْ خَلَتِ الْقُرُونُ مِن قَبْلِي وَهُمَا يَسْتَغِيثَانِ اللَّهَ وَيْلَكَ آمِنْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَيَقُولُ مَا هَٰذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٧﴾ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴿١٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان خبرًا من الله عن شخص من الكفار بالبعث، أو صنف منهم من أولاد المؤمنين، وما كان من الأبناء المكذبين من عناد لوالديهم، وما كان من الآباء من دعوة لأبنائهم إلى الإيمان بالبعث فيردُّون بالإصرار على التكذيب، ثم يخبر تعالى أن أولئك الكفار المكذبين بمحمد ﷺ وما جاء به هم من الذين حق عليهم القول بالشِّقوة، وليسوا أول من حق عليهم القول؛ بل سبقتهم أمم من الجن والإنس، ثم أخبر عن منتهى أمرهم، وهو الخسران.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾ مبتدأ، والمراد به الجنس، والخبر: ﴿أُولَٰئِكَ﴾، فقوله: ﴿وَالَّذِي قَالَ لِوَالِدَيْهِ﴾؛ أي: قال لهما حين دعواه إلى الإيمان متضجِّرًا منهما، ومنكرًا عليهما ﴿أُفٍّ لَّكُمَا﴾؛ أي: قُبحًا لكما على هذه الدعوة، و(أفٍّ) كلمة تضجر وتبرم، وهي اسم فعل مضارع مبني على الكسر؛ أي: أتضجَّر، واللام لبيان المؤفَّف له؛ أي: هذا التأفيف لكما خاصة ﴿أَتَعِدَانِنِي أَنْ أُخْرَجَ﴾؛ أي: أتعدانني أن أُبعث

حيًّا؟! وهو استفهام تهكم وإنكار وتعجب؛ أي: لا يصح أن تعدانني بالخروج من القبر، ومراده إنكار البعث ﴿وَقَدْ خَلَتِ ٱلْقُرُونُ مِن قَبْلِى﴾؛ أي: مضت أمم كثيرة قبلي ولم يبعث منهم أحد ﴿وَهُمَا﴾ الواو للحال؛ أي: والحال أن والديه ﴿يَسْتَغِيثَانِ ٱللَّهَ﴾ يقال: استغاث الله واستغاث به، إذا طلب أن يغيثه، المعنى: أنهما يسألان الله الغوث والهداية لهذا الولد ليدخل في الإسلام، قائلَين له: ﴿وَيْلَكَ﴾؛ أي: هلاكًا لك، وهذا دعاء يراد به التخويف والحث على الإيمان لا حقيقة الهلاك ﴿ءَامِنْ﴾؛ أي: أسلم ﴿إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ﴾؛ أي: إن وعد الله بالبعث حق، وأضافه إلى الله تحقيقًا له، وأنه كائن لا محالة ﴿فَيَقُولُ مَا هَٰذَآ﴾؛ أي: فيقول مصرًّا على كفره وتكذيبه: ما هذا الذي يقال عن البعث ﴿إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ ۝١٧﴾؛ أي: خرافاتهم وأباطيلهم التي سطروها في كتبهم ولا أصل لها، والأساطير جمع أُسطُورة، وغلب استعمالها في الحكايات المكذوبة.

ولما كان المراد بقوله: ﴿وَٱلَّذِى قَالَ لِوَٰلِدَيْهِ﴾ جنسًا أي: فريقًا من الناس، وليس شخصًا مُعَيَّنًا، ولعلهم الذين أسلم آباؤهم ولم يسلموا حينئذ = جاء الخبر بأسلوب الجمع، فقال تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾؛ أي: القائلون ذلك القول ﴿ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ﴾؛ أي: هم الذين وجب عليهم قول الله بأنهم من أهل النار، كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّى لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣].

قوله سبحانه: ﴿فِىٓ أُمَمٍ﴾؛ أي: في جملة أمم كثيرة ﴿قَدْ خَلَتْ﴾؛ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهِم مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ﴾ عملوا مثل أعمالهم وكذبوا بالبعث ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ خَٰسِرِينَ ۝١٨﴾ هذا تعليل لدخولهم جهنم؛ أي:

عذبوا؛ لأنهم كافرون بالله مكذبون بالبعث، فخسروا في الآخرة أعظم خسران، ويذكر بعض المفسرين أن الآية نزلت في عبد الرحمٰن بن أبي بكر رضي الله عنه، ولا يصح ذلك؛ لأن عبد الرحمٰن أسلم وحسن إسلامه، والآية في قوم حقَّ عليهم القول بالعذاب، فلا يسلمون أبدًا، فيبطل حمل الآية عليه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من المؤمنين من يُبتلَى بشقيٍّ من أولاده، يدعوهما إلى الكفر، وهما يدعوانه إلى الإيمان.

٢ ـ فيها شاهد لقصة نوح عليه السلام مع ابنه، كما يحصل العكس، كما في قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه.

٣ ـ فيها شاهد لقصة الغلام الذي قتله الخضر.

٤ ـ إثبات البعث.

٥ ـ أن من شُبَه المكذبين بالبعث: هلاك القرون قبلهم، ولم يرجع منهم أحد.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُنَا بَيِّنَٰتٍ مَّا كَانَ حُجَّتَهُمْ إِلَّآ أَن قَالُوا۟ ٱئْتُوا۟ بِـَٔابَآئِنَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الجاثية: ٢٥].

٧ ـ أن من صفات المؤمنين في كل ما أهمهم: أن يستغيثوا الله.

٨ ـ حرص الوالدين على هداية ولدهما، واستغاثتهما الله في ذلك.

٩ ـ دعوة الوالدين ولدهما الكافر إلى الإيمان.

١٠ ـ أن من أَصَرَّ على التكذيب بالبعث حتى مات، فهو ممن حقَّ عليه القول بالشِّقوة.

١١ ـ إثبات صفة الكلام لله تعالى؛ لقوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ ٱلْقَوْلُ فِىٓ أُمَمٍ﴾.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ حَقَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّهُمْ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ﴾ [غافر: ٦].

١٣ ـ أن من حَقَّتْ عليه كلمة العذاب فلن يهتدي.

١٤ ـ أن التكذيب بالبعث واقع من جميع الأمم المكذبة للرسل.

١٥ ـ حكم الله المؤكَّد على جميع هذه الأمم بالخسران.

١٦ ـ إثبات وجود الجن.

١٧ ـ أنهم مكلَّفون، وأن منهم مؤمنين وكفارًا.

١٨ ـ أن الجن يموتون؛ لقوله: ﴿خَلَتْ﴾، ويؤيده حديث: «**والجن والإنس يموتون**»[1].

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وقوله: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٧٩].

---

(١) البخاري (٢٦٨٨)، ومسلم (٢٧١٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ولما ذكر الله الفريقين أخبر عن تفاوت أعمالهم وجزائهم؛ فقال سبحانه:

﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟ وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴿٢٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الخبر من الله أن لكلٍّ من أمم الجن والإنس من مؤمنين وكفار درجات؛ أي: منازل من الثواب والعقاب بسبب أعمالهم، وأن الله سيوفيهم ذلك من غير ظلم بنقص من الثواب أو زيادة في العقاب، ثم أخبر تعالى عن اليوم الذي يعرض فيه الكفار على النار، فيوبَّخون على التفريط أيام ما كانوا في الدنيا، فضيَّعوا حظوظهم في الآخرة بالإعراض عنها وإقبالهم على حظوظهم في الدنيا، فكان جزاؤهم عذابًا يلقون فيه الهوان بسبب استكبارهم في الأرض بغير الحق وبسبب فسقهم؛ أي: خروجهم عن طاعة الله وطاعة رسله.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَٰتٌ مِّمَّا عَمِلُوا۟﴾؛ أي: ولكلٍّ فردٍ من الفريق المؤمن والكافر منازل متفاوتة في الثواب والعقاب في الآخرة، مناسبة لأعمالهم، ودرجاتُ أهل الجنة إلى عُلو، ودرجات أهل النار إلى سُفل ﴿وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ اللام للتعليل؛ أي: وليوفيهم الله جزاء أعمالهم من خير أو شر جعلهم الله كذلك؛ أي: درجات ﴿وَهُمْ﴾؛ أي: والحال أنهم ﴿لَا يُظْلَمُونَ ﴿١٩﴾﴾؛ فالمؤمن لا ينقص من حسناته، ويزيده الله من فضله، والكافر لا يزاد في سيئاته، ويعامله الله بعدله.

ثم ذكر الله حال أهل العقاب في الآخرة، فقال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ﴾؛ أي: اذكر ـ أيها الرسول ـ لقومك من قريش على سبيل التهديد والتخويف يوم يوقَفُ الذين كفروا على النار، وعبَّر عنهم بالاسم الظاهر (الموصول) دون ضميرهم؛ تشنيعًا عليهم، ولبيان أن عذابهم مسبَّب عن كفرهم، وليشمل هذا الحكمُ غيرَهم ممن سلك طريقهم ﴿أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَاتِكُمْ﴾؛ أي: يقال لهم توبيخًا وتقريعًا إما من الله ﷻ أو من الملائكة: أفنَيْتم نصيبكم من الطيبات من المآكل والملابس وسائر المشتهيات، واستوفيتموها ﴿فِي حَيَاتِكُمُ الدُّنْيَا﴾ أضاف الحياة إليهم؛ لأنهم رضوا بها وآثروها على الآخرة ﴿وَاسْتَمْتَعْتُمْ بِهَا﴾ فلم يبق لكم بعد ذلك شيء من طيبات الآخرة.

وليس في الآية ما يدل على كراهة استمتاع المؤمن بالطيبات فضلًا عن تحريمها، قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾ [الأعراف: ٣٢]، وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوا﴾ [المائدة: ٨٧].

قوله تعالى: ﴿فَالْيَوْمَ﴾؛ أي: في هذا اليوم الذي أنتم فيه، وهو يوم القيامة، فـ(أل) للعهد الحضوري ﴿تُجْزَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ﴾؛ أي: العذاب المُهين، من إضافة الموصوف إلى صفته، والهُون مصدر عُبِّر به عن اسم الفاعل للمبالغة.

قوله تعالى: ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ﴾؛ أي: بسبب استكباركم عن الإيمان ﴿فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾؛ أي: ظلمًا، وهذا ليس قيدًا؛ بل هو وصف كاشف؛ لأن كل استكبار في الأرض فهو بغير الحق ﴿وَبِمَا كُنْتُمْ تَفْسُقُونَ (٢٠)﴾؛ أي: وبسبب فسقكم؛ أي: خروجكم عن طاعة الله واجتراحكم السيئات، فذكر الله لعذابهم سببين:

الأول: الاستكبار والأنفة عن قبول الحق، وهو عمل القلب.
الثاني: الفسق، وهو عمل الجوارح، وقدم الأول؛ لأنه سبب للثاني.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تفاوت منازل المكلفين ثوابًا وعقابًا، تبعًا لتفاوت أعمالهم حسنها وسيئها.

٢ ـ أن الإيمان يتفاضل، وكذلك أهله.

٣ ـ أن الكفر يتفاوت، وكذلك أهله.

٤ ـ إثبات الجزاء على الأعمال حسنها وسيئها.

٥ ـ الرد على غلاة المرجئة الذين يقولون: لا يضر مع الإيمان ذنب.

٦ ـ أنه لن يُظلم أحد من العاملين بنقص ثواب أو زيادة عقاب.

٧ ـ تنزيه الله عن الظلم.

٨ ـ عَرض الكفار على النار بوقفهم عليها قبل دخولها.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ وُقِفُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾ [الأنعام: ٢٧].

١٠ ـ إثبات النار، نعوذ بالله منها.

١١ ـ توبيخ الكفار على التفريط في أيام الدنيا وإيثارهم لذَّاتها على لذَّات الآخرة في الجنة.

١٢ ـ أن عذاب الكفار حسيٌّ للأجساد، ومعنويٌّ للأرواح؛ لقوله: ﴿عَذَابَ ٱلْهُونِ﴾.

١٣ ـ إثبات الأسباب.

١٤ ـ أن أعظم أسباب العذاب: الاستكبارُ عن عبادة الله بغير الحق، والخروجُ عن طاعة الله وطاعة رسله.

ولما خوَّف الله المشركين بعقوبة الآخرة، أمر نبيَّه ﷺ أن يذكر لهم قصة قوم عاد الذين كذبوا نبيَّهم هودًا، فحل بهم عذاب الله في الدنيا؛ فقال سبحانه:

﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ إِذۡ أَنذَرَ قَوۡمَهُۥ بِٱلۡأَحۡقَافِ وَقَدۡ خَلَتِ ٱلنُّذُرُ مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦٓ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ﴿٢١﴾ قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٢﴾ قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات أمْرَ الله نبيَّه محمدًا ﷺ أن يذكر لقومه خبر هود عليه السلام حين أنذر قومه عادًا في بلادهم الأحقاف، وأنه عليه الصلاة والسلام ليس أول رسول ولا آخر رسول، فقد خلت النُّذرُ من قبله ومن بعده، وأنه عليه السلام أمَر قومه أن يعبدوا الله وحده لا شريك له، وخوَّفهم عذابه، وأنَّ قومه ردوا عليه، باستنكار ما أمرهم به، واستعجال ما توعدهم به من العذاب، فردَّ عليهم بأنَّ أمْرَ ذلك إلى الله، وأنه لا يقدر على ما طلبوا منه، وإنما الذي يملكه هو تبليغهم رسالة ربه، وأنهم بسبب ما قالوه يجهلون.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَٱذۡكُرۡ أَخَا عَادٍ﴾؛ أي: اذكر ـ أيها الرسول ـ لكفار مكة وغيرهم نبيَّ الله هودًا أخا عاد في النسب لا في الدين، وما جرى لقومه حين كذبوه؛ فإن الله أهلكهم ولم يبق لهم باقية إلا من آمن مع هود، قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَآءَ أَمۡرُنَا نَجَّيۡنَا هُودٗا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَعَهُۥ بِرَحۡمَةٖ مِّنَّا

﴿وَنَجَّيْنَاهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ﴾ [هود: ٥٨]، ففي أخبارهم عظة وعبرة لقومك وغيرهم ليعتبروا، وقد كانت عادٌ أكثر من قريش مالًا، وأشدَّ قوة؛ فقد أوتوا بسطة في أجسامهم، وكانوا يتخذون القصور المشيدة والحصون المنيعة، فلم تغن عنهم من عذاب الله شيئًا.

ويمكن أن يكون معنى قوله: ﴿وَاذْكُرْ﴾؛ أي: تذكَّر في نفسك ـ أيها الرسول ـ قصة هود؛ تسلية لك وطمأنة، ولتقتدي به في صبره وتَحَمُّله أذى قومه، والآية تحتمل المعنيين، ولا تَنافي بينهما.

قوله تعالى: ﴿إِذْ أَنذَرَ قَوْمَهُ بِالْأَحْقَافِ﴾؛ أي: حين خوَّف قومه المقيمين بالأحقاف، وهو موضع يقع جنوبيَّ جزيرة العرب بين عُمان وحضرموت، والأحقاف في الأصل جمع حِقْف ـ بكسر فسكون ـ وهو الرمل المستطيل مع ارتفاع وانحناء، ولا يبلغ أن يكون جبلًا، فهذا يدل على أنهم يسكنون بين رمال.

قوله تعالى: ﴿وَقَدْ خَلَتِ النُّذُرُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾ جملة حالية؛ أي: والحال أنه قد مضت النُّذُر، جمع نذير بمعنى المنذِر، والمراد: الرسل الذين يحذرون أقوامهم ويخوفونهم عذاب الله، فمُعظَم شأنهم الإنذار ﴿مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ﴾؛ أي: من قبل هود ومن بعده، فقبله نوح وبعده صالح ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ هذه الجملة مفسِّرة لقوله: ﴿إِذْ أَنذَرَ﴾، فهي متضمنة لمعنى القول دون حروفه، والجملة الحالية معترضة، قُصد بها أن الإنذار لم يكن خاصًّا بهود عليه السلام ﴿أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا اللَّهَ﴾؛ أي: وحده لا شريك له، ولا تعبدوا أحدًا سواه، فهو المستحق للعبادة؛ لأنه الخالق المالك المدبر ﴿إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢١﴾﴾ وهو عذاب الآخرة؛ أي: بسبب إعراضكم عن التوحيد وشرككم بالله، ويحتمل أن المراد عذاب الدنيا، والآية شاملة للمعنيين.

ووصفُ اليوم بالعظيم؛ لما فيه من الهول والشدائد، كما قال تعالى: ﴿أَلَا يَظُنُّ أُولَٰٓئِكَ أَنَّهُم مَّبۡعُوثُونَ ۝٤ لِيَوۡمٍ عَظِيمٖ﴾ [المطففين: ٤، ٥].

قوله تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِتَأۡفِكَنَا عَنۡ ءَالِهَتِنَا﴾؛ أي: قالوا بعد أن أنذرهم هود: أجئتنا لتصرفنا عن عبادة آلهتنا؟ ﴿فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ﴾ من العذاب ﴿إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ۝٢٢﴾؛ أي: إن كنت صادقًا في وعدك بالعذاب فأتِ به، وهذا من استبعادهم للعذاب ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قال هود عليه السلام: إنما العلم بوقت مجيء العذاب عند الله وحده لا عندي ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾؛ أي: أبلغكم ما أرسلت به من ربكم من الأمر والنهي والتبشير والإنذار ﴿وَلَٰكِنِّيٓ أَرَىٰكُمۡ قَوۡمٗا تَجۡهَلُونَ ۝٢٣﴾؛ أي: صفتكم الجهل، فتجهلون وظيفة الرسل وأنهم جاؤوا مبلغين لرسالات الله، وليس في أيديهم شيء من أمر العذاب، كما قال تعالى: ﴿لَيۡسَ لَكَ مِنَ ٱلۡأَمۡرِ شَيۡءٌ أَوۡ يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡ أَوۡ يُعَذِّبَهُمۡ فَإِنَّهُمۡ ظَٰلِمُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٨]، ومن جهلهم: استعجالهم للعذاب الذي فيه هلاكهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من طرق التذكير والإنذار: ذكر قصص الرسل مع أممهم، ومنهم هود عليه السلام المذكور في هذه الآيات.

٢ ـ أن هودًا رسول من الله إلى عاد.

٣ ـ أنه لم يكن أول رسول؛ فقبله نوح، وليس آخر رسول؛ فبعده صالح ومن بعده من الأنبياء.

٤ ـ أن من منهج القرآن في قصص الرسل: الإجمال والتفصيل.

٥ ـ أن مساكن عاد الأحقاف، وهي معروفة للعرب.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في العنكبوت: ﴿وَقَد تَّبَيَّنَ لَكُم مِّن مَّسَٰكِنِهِمۡۖ﴾ [العنكبوت: ٣٨].

٧ ـ أن أخوة النسب لا يبطلها الكفر، ويتفرع على هذا فائدة، وهي:

٨ ـ أنه يجوز وصْف المسلم بأخوته إلى قبيلته الكافرة، وهذا في القرآن كثير، لكن تجب براءته منهم.

٩ ـ أن دعوة هود عليه السلام هي دعوة إخوانه المرسلين، وهي الدعوة إلى عبادة الله وحده ﴿أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّا ٱللَّهَ﴾.

١٠ ـ أن الإنذار يكون بالتخويف من عذاب الله في الدنيا والآخرة.

١١ ـ شفقة الرسل على أقوامهم من عذاب الله ﴿إِنِّيٓ أَخَافُ عَلَيۡكُمۡ عَذَابَ يَوۡمٍ عَظِيمٖ ٢١﴾.

١٢ ـ استحكام الجهل في أعداء الرسل.

١٣ ـ أن العلم بمجيء العذاب عند الله دون الرسول؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٤ ـ إثبات عندية إحاطة العلم؛ لقوله تعالى: ﴿قَالَ إِنَّمَا ٱلۡعِلۡمُ عِندَ ٱللَّهِ﴾.

١٥ ـ أن وظيفة الرسول ومقدوره: تبليغ رسالة ربه؛ لقوله: ﴿وَأُبَلِّغُكُم مَّآ أُرۡسِلۡتُ بِهِۦ﴾.

١٦ ـ جواز مواجهة المكذبين المعاندين بالتجهيل.

ثم ذكر الله نزولَ العذاب المدمِّر بهم؛ فقال سبحانه:

﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ عَارِضًا مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ قَالُوا۟ هَٰذَا عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا ۚ بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ ۖ رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾ تُدَمِّرُ كُلَّ شَىْءٍۭ بِأَمْرِ رَبِّهَا فَأَصْبَحُوا۟ لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلْقَوْمَ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الخبرَ من الله بإهلاك عاد ومكر الله بهم، وصفة العذاب الذي أهلكوا به.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَلَمَّا رَأَوْهُ﴾؛ أي: رأوا العذاب الذي وُعدوا في صورة سحاب ﴿عَارِضًا﴾؛ أي: سحابًا يعرض في أفق السماء، ويسمَّى السحاب عارضًا؛ لأنه يبدأ عند ظهوره عريضًا في الأفق، و﴿عَارِضًا﴾ منصوب على الحال؛ لأن الرؤية المذكورة هي رؤية العين ﴿مُّسْتَقْبِلَ أَوْدِيَتِهِمْ﴾؛ أي: مقبلًا عليها ﴿قَالُوا۟﴾؛ أي: قالوا فرحين واثقين لفرط جهلهم بحقيقة الأمر، واغترارهم بالأمن ﴿هَٰذَا﴾؛ أي: الذي نراه ﴿عَارِضٌ مُّمْطِرُنَا﴾؛ أي: سحاب منزلٌ مطرَه علينا، ولعلهم في زمن جدب، فقال لهم هود: ﴿بَلْ هُوَ مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾؛ أي: طلبتم تعجيله؛ أي: العذاب، وذلك قولهم: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأحقاف: ٢٢]، ويرى بعض المفسرين: أن القائل هو الله تعالى إخبارًا بسرعة هلاكهم.

قوله تعالى: ﴿رِيحٌ فِيهَا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: ريح مدمرة فيها عذاب مؤلم شديد، فريح بدل من ﴿مَا﴾ في قوله: ﴿مَا ٱسْتَعْجَلْتُم بِهِۦ﴾،

ويحتمل أن تكون خبرًا لمبتدأ محذوف تقديره (هو ريح)، والأول أولى؛ لعدم التقدير ﴿تُدَمِّرُ كُلَّ شَيْءٍ﴾ هذا من العام المخصوص بدلالة الحس والواقع، والمعنى: أن هذه الريح تُهلك كثيرًا مما مرَّت به مما أراد اللهُ تدميرَه من الأموال والأنفس وغيرها؛ بدليل قوله تعالى في الآية الأخرى: ﴿مَا تَذَرُ مِن شَيْءٍ أَتَتْ عَلَيْهِ إِلَّا جَعَلَتْهُ كَالرَّمِيمِ﴾ [الذاريات: ٤٢] فحصر ما دمَّرته بما أتت عليه، وإنما أتت على أرض عاد.

قوله تعالى: ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾؛ أي: دمَّرت الريحُ عادًا بسبب أمر الله لها خالقها ومدبرها، والمراد أمر الله الكوني، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَآ أَمْرُهُۥٓ إِذَآ أَرَادَ شَيْـًٔا أَن يَقُولَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢]، والباء في ﴿بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ للسببية، كما هي في قوله تعالى: ﴿وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَٰتٌۢ بِأَمْرِهِۦٓۗ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ [النحل: ١٢]، وإضافة اسم الرب إلى الريح؛ للدلالة على عِظم شأنها، وأنها من جنوده تعالى، ومظهرٌ من مظاهر قدرة خالقها العظيم الذي يُصرِّفها كيف يشاء وعلى وجوه مختلفة.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾ الفاء للترتيب والتعقيب؛ فتدل على سرعة هلاكهم بعد نزول العذاب بهم؛ وأنه من العذاب المستأصِل؛ أي: فنزل بهم العذاب ﴿فَأَصْبَحُوا۟﴾؛ أي: فصاروا صرعى بحيث ﴿لَا يُرَىٰٓ إِلَّا مَسَٰكِنُهُمْ﴾؛ أي: أنقاض بيوتهم؛ لأن الريح لم تبق منهم أحدًا.

ثم يحكم الله حكمًا عامًّا، فيقول سبحانه: ﴿كَذَٰلِكَ﴾ الكاف اسم بمعنى مثل، فهي للتشبيه والتحقيق؛ أي: مثلَ هذا الجزاء ﴿نَجْزِى﴾؛ أي: نعاقب ﴿الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: المشركين المكذبين.

وفي هذه القصة تهديد بالغ لكفار مكة وغيرهم لو كانوا يعقلون؛

لأن هذه سُنَّته تعالى في كل من كذَّب رسله وعصى أمره، وهو العذاب الأليم، عن عائشة رضي الله عنها زوج النبي ﷺ قالت: ما رأيت رسول الله ﷺ ضاحكًا حتى أرى منه لهَواته إنما كان يبتسم. قالت: وكان إذا رأى غيمًا أو ريحًا عرف في وجهه. قالت: يا رسول الله؛ إن الناس إذا رأوا الغيم فرحوا رجاء أن يكون فيه المطر، وأراك إذا رأيته عرف في وجهك الكراهية؟ فقال: «**يا عائشة ما يؤمنني أن يكون فيه عذاب؟ عُذب قوم بالريح، وقد رأى قوم العذاب فقالوا: هذا عارض ممطرنا**»[1].

وعن ابن عباس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: «**نُصِرْتُ بالصَّبا، وأُهلِكَتْ عاد بالدَّبور**»[2].

◙ الفوائد والأحكام:

١ ـ مكر الله بعاد؛ إذْ أظهر لهم العذاب بصورة سحاب؛ لأنهم كانوا في حاجة إلى الغيث.

٢ ـ استحكام الغفلة والجهل في عاد.

٣ ـ غلبة الأمن عليهم من عذاب الله، مع عِظم جُرمهم.

٤ ـ أنهم أُهلكوا بالريح العاتية التي سخرها الله عليهم سبع ليال وثمانية أيام.

٥ ـ أن ريح عاد دمَّرت كلَّ شيء إلا المساكن.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ

(١) البخاري (٤٥٥١)، ومسلم (٨٩٩).

(٢) البخاري (٩٨٨)، ومسلم (٩٠٠).

ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [الأعراف: ٧٠].

٧ ـ أن الأحقاف فيها أودية.

٨ ـ أن الريح تأتي بالعذاب.

٩ ـ أن الريح مأمورة؛ أي: بمعنى أنها مرسلة ومسخَّرة.

١٠ ـ إثبات الأمر الكوني.

١١ ـ أن عذاب الله مؤلم للمعذبين.

١٢ ـ أن عموم (كل) في كل مقام بحسبه.

١٣ ـ أن التدمير سُنَّة الله في المجرمين.

١٤ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع المفيدة للعظمة.

ثم أخبر تعالى عن قوة عاد وأنها لم تُغن عنهم شيئًا، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَٰرًا وَأَفْـِٔدَةً فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾ فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ وَذَٰلِكَ إِفْكُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبرَ عن عاد قوم هود وأن الله مكَّن لهم في الأرض، وآتاهم قوة عظيمة حتى قالوا: ﴿مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً﴾ [فصلت: ١٥] ولم يمكِّن لقريش ما مكَّن لهم، وجعل لهم سمعًا وأبصارًا وأفئدة يدركون بها مطالبهم في الحياة، فما أغنى ذلك كلُّه عنهم شيئًا، وما منعهم من عذاب الله، وذلك بسبب جحدهم وتكذيبهم بآيات الله، فدمَّرهم عذابُ الله الذي كانوا يستهزئون به إذْ خوفهم منه نبيُّهم، وأحاط بهم حتى أبادهم، ثم أخبر تعالى عن إهلاك ما حول قريش من القرى، وعن تصريفه الآيات إنذارًا لهم، كما أنذرهم بما جرى على عاد، فلم تغن عن أولئك المهلَكين آلهتهم التي اتخذوها من دون الله لتُقرِّبهم إليه؛ بل ذهبوا عنهم، فلا نصروا عابديهم، ولا أنفسهم ينصرون؛ لأنها آلهة باطلة اتخذها المشركون كذبًا وافتراءً على الله.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّٰهُمْ﴾؛ أي: مكَّنَّا عادًا قوم هود؛ أي: أعطيناهم مَكِنةً؛ أي: تمكينًا وقوةً وملكًا ﴿فِيمَآ إِن مَّكَّنَّٰكُمْ فِيهِ﴾ ﴿إِن﴾

نافية؛ أي: مكَّناهم في الذي لم نمكنكم فيه ـ يا أهل مكة ـ من قوة الأجساد، وكثرة العدد، وسعة العيش ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَـٰرًا وَأَفْـِٔدَةً﴾؛ أي: منحناهم السمع والأبصار والأفئدة، ولكنهم لم يستعملوا هذه النعم في معرفة الله وتوحيده وعبادته وتدبُّر آياته؛ بل صرفوها إلى طلب الدنيا ولذَّاتها، وجاء السمع في الآية مفردًا مع جمع الأبصار والأفئدة؛ لأن السمع مصدر، والمصدر يقع على القليل والكثير، بخلاف الأبصار والقلوب.

قوله تعالى: ﴿فَمَآ أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَآ أَبْصَـٰرُهُمْ وَلَآ أَفْـِٔدَتُهُم مِّن شَىْءٍ﴾ ﴿مِّن﴾ حرف يفيد النص على عموم نفي ما بعده؛ أي: لم تُغْن عنهم شيئًا من الإغناء، وهو القليل، المعنى: أن تلك الحواس لم تنفعهم في دفع العذاب حين نزل بهم ﴿إِذْ كَانُوا۟ يَجْحَدُونَ﴾؛ أي: لأنهم كانوا يُكذِّبون ويكفرون ﴿بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بآياته المنزَّلة على رسله، وبدلائل قدرته تعالى وملكوته ﴿وَحَاقَ بِهِم مَّا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: نزل وأحاط بهم ما كانوا يستهزئون به ويستعجلونه من العذاب الذي حذَّرهم منه هود عليه السلام.

ففي الآية تخويف بالغ لكفار قريش، فإذا كان الله أهلك عادًا مع قوتهم حين كفروا، فأهل مكة أولى بأن يحذروا العذاب؛ لأنهم أضعف من أولئك وأقل عددًا.

ثم ذكَّر الله بأقوام آخرين مهلَكين، فقال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْقُرَىٰ﴾؛ أي: أهلكنا ما حولكم من البلاد، والمراد أهلها؛ كثمود وسبأ وقوم لوط، وفي هذا زيادة تهديد لكفار مكة ﴿وَصَرَّفْنَا ٱلْـَٔايَـٰتِ﴾؛ أي: نوَّعنا البراهين والحجج والمواعظ وكرَّرناها ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: لعلهم يرجعون عن كفرهم وتكذيبهم.

قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَا نَصَرَهُمُ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ قُرْبَانًا ءَالِهَةًۢ﴾ (لولا) حرف تحضيض معناه طلب حصول ما بعده، والمراد هنا التوبيخ والتهكم المتضمن للنفي، والقُربان كلُّ ما يتقرب به إلى الله؛ أي: هلَّا نصَرهم وأنقذهم من العذاب آلهتُهم التي اتخذوها قربانًا متقربين بها إلى الله، والفعل ﴿ٱتَّخَذُوا۟﴾ ينصب مفعولين؛ مفعوله الأول: الضمير المحذوف الهاء، والثاني: ﴿قُرْبَانًا﴾.

قوله سبحانه: ﴿بَلْ ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾؛ (بل) حرف إضراب يفيد إبطال ما قبله وإثبات ما بعده؛ أي: ما نصرهم الذين اتخذوهم آلهة حين نزل العذاب بل ﴿ضَلُّوا۟ عَنْهُمْ﴾؛ أي: غابوا عنهم فلم ينفعوهم ﴿وَذَٰلِكَ﴾؛ أي: غياب آلهتهم عنهم وخذلانها لهم ﴿إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: عاقبة إفكهم؛ أي: كذبهم ﴿وَمَا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٨﴾﴾ معطوف على ﴿إِفْكُهُمْ﴾؛ أي: وعاقبة افترائهم على الله؛ حيث جعلوا الأصنام شركاء لله وشفعاء لهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من سُنَّة الله التمكين للكفار ابتلاءً واستدراجًا.

٢ ـ تفاضُل الكفار في التمكين لهم.

٣ ـ التحذير من الاغترار في التمكين والإمداد بالحظوظ.

٤ ـ الاحتجاج بإهلاك الأقوى على إهلاك من دونه.

٥ ـ اعتبار القويِّ بمن هو أقوى منه، فأخذهم الله بذنوبهم.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَقَدْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمْ ۖ فَسَوْفَ يَأْتِيهِمْ أَنۢبَٰٓؤُا۟ مَا كَانُوا۟ بِهِۦ يَسْتَهْزِءُونَ ﴿٥﴾ أَلَمْ يَرَوْا۟ كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا ٱلسَّمَآءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا ٱلْأَنْهَٰرَ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَٰهُم بِذُنُوبِهِمْ﴾ [الأنعام: ٥، ٦].

٧ ـ أن السمع والأبصار والقلوب أعظم الوسائل للوصول إلى جلب المنافع ودفع المضار.

٨ ـ أن القوة والتمكين لا تمنع من عذاب الله مع الجحد بآيات الله.

٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ﴾ [هود: ٥٩].

١٠ ـ أن دأب الكفار الاستهزاء بوعيد الله وبرسل الله.

١١ ـ تحذير كفار مكة مما جرى على عاد ومن حولهم.

١٢ ـ أن من أعظم الخذلان عدم الاعتبار بالآيات والمثُلات.

١٣ ـ أن الله يصرِّف الآيات؛ أي: ينوِّعها لهداية الخلق وإقامة الحجة.

١٤ ـ أن من آيات الله الآيات الكونية، ومنها إهلاك الأمم المكذبة.

١٥ ـ الحكمة من تصريف الآيات؛ لقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: يرجعون عن الكفر إلى الإيمان.

١٦ ـ إظهار عجز آلهة المشركين عن نصرة عابديهم، وذلك حجة عليهم.

١٧ ـ أن كل ما يعبد من دون الله كذب لا حقيقة له، وافتراء على الله.

١٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى عن أهل الكهف: ﴿لَوْلَا يَأْتُونَ عَلَيْهِم بِسُلْطَانٍ بَيِّنٍ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ كَذِبًا﴾ [الكهف: ١٥].

ولما بيَّن تعالى أن الإنس فريقان فيما أنذروا به؛ مؤمنون وكافرون، بيَّن أن الجن منهم مؤمنون ومنهم كافرون، فقال سبحانه:

۞ ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾ يَٰقَوْمَنَآ أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾ وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَيْسَ لَهُۥ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٣٢﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات تذكير الله نبيَّه ﷺ بخبر الجن الذين صرفهم إليه ليستمعوا القرآن؛ وأنهم لما حضروا عند النبي ﷺ وفرغ من التلاوة انصرفوا إلى قومهم منذرين، وأخبروهم بخبر القرآن، ودعوهم إلى الإيمان به، وحذروهم من الإعراض عنه، وبشَّروا من آمن بالمغفرة والنجاة من العذاب، ومن لم يستجب فالله ينتقم منه، وليس بمعجز له، وأنه في ضلال بيِّن.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ﴾؛ أي: اذكر ـ أيها الرسول ـ لقومك حين وجَّهنا إليك نفرًا من الجن، النَّفر ما بين الثلاثة والعشرة، ويطلق على ما فوق ذلك تجوُّزًا، كما يطلق جمع القلة على ما فوق العشرة، و(النَّفر) اسم جمع لا واحد له من لفظه، وإطلاقه على الفرد غير صحيح في اللغة.

والجنُّ واحدهم جِنِّي وجانٌّ، سُمُّوا بذلك؛ لاستتارهم، وهم عالم غيبي مخلوق من نار، ليسوا أجسادًا، ولا يراهم الناس إلا أن يتشكلوا فيروهم، وهم يسكنون الأرض بعد أن أهبط أبوهم الجانُّ إبليس إليها، كما أهبط أبونا آدم، قال تعالى: ﴿فَسَجَدُوٓاْ إِلَّآ إِبۡلِيسَ كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢۚ﴾ الآية [الكهف: ٥٠].

قوله تعالى: ﴿يَسۡتَمِعُونَ ٱلۡقُرۡءَانَ﴾ الجملة حال مقدَّرة؛ أي: يستمعون القرآن منك حين يصلون إليك، والاستماع يدل على قصد وقبول ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ﴾؛ أي: حضروا تلاوته ﴿قَالُوٓاْ أَنصِتُواْۖ﴾؛ أي: قال بعضهم لبعض: اسكُتوا وأصغُوا؛ تعظيمًا للقرآن، وتأدُّبًا معه، ولئلا يفوت منه شيء، وفي هذا تعريض بقريش وتوبيخ لهم؛ فإنهم يقولون: لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه ﴿فَلَمَّا قُضِيَ﴾؛ أي: فلما فرغ النبي ﷺ من تلاوته ﴿وَلَّوۡاْ إِلَىٰ قَوۡمِهِم﴾؛ أي: رجعوا إلى بني جنسهم من الجن ﴿مُّنذِرِينَ ٢٩﴾ منصوب على الحال؛ أي: مخوفين لهم من العذاب، وهذا يدل على أنهم آمنوا وصدَّقوا، ويشهد لهذا قوله تعالى: ﴿قُلۡ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسۡتَمَعَ نَفَرٞ مِّنَ ٱلۡجِنِّ فَقَالُوٓاْ إِنَّا سَمِعۡنَا قُرۡءَانًا عَجَبٗا ١ يَهۡدِيٓ إِلَى ٱلرُّشۡدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦۖ﴾ [الجن: ١، ٢]، فقد قال بعض المفسرين: إن المذكورين في هذه الآيات هم المذكورون في سورة الجن، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰقَوۡمَنَآ﴾ إضافة القوم إلى أنفسهم فيه تلطُّف وتودُّد ﴿إِنَّا سَمِعۡنَا كِتَٰبًا﴾؛ أي: كتابًا عظيم الشأن، وهو القرآن ﴿أُنزِلَ مِنۢ بَعۡدِ مُوسَىٰ﴾ الجملة صفة لكتاب؛ أي: أنزل على رسول من بعد موسى، وخصُّوا موسى بالذكر دون من بعده من الأنبياء؛ لأن كتابه التوراة أصل كتب بني إسرائيل، فما بعدها مكمِّل لها بما يناسب الزمان

الذي أنزلت فيه، كالزبور والإنجيل ﴿مُصَدِّقًا﴾ حال من الضمير في ﴿أُنزِلَ﴾، ﴿لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ﴾؛ أي: موافقًا لما سبقه من الكتب المنزَّلة؛ فإن كتب الأنبياء السابقين متفقة في الدعوة إلى التوحيد وتعظيم الله وإفراده بالعبادة، وفي الحديث عن النبوات والمعاد والجنة والنار، كما أنها تدعو إلى البر والإحسان وتطهير النفوس من الرذائل، وهكذا القرآن؛ بل هو أجمعها وأعظمها.

قوله سبحانه: ﴿يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: هذا القرآن يدعو ويرشد إلى سبيل الحق، وهو ما اشتمل عليه من العقائد والشرائع ﴿وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: واضح لا اعوجاج فيه، وهو الإسلام، وهذا الطريق ينتهي بسالكه إلى الجنة.

قوله تعالى: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾ تكرار النداء لاستمالة المدعوين؛ لأنهم يدعونهم إلى أمر عظيم ﴿أَجِيبُوا۟ دَاعِىَ ٱللَّهِ﴾ وهو محمد ﷺ، والإضافة بمعنى إلى، على حد قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾ وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الأحزاب: ٤٥، ٤٦]، ﴿وَءَامِنُوا۟ بِهِۦ﴾؛ أي: صدِّقوا برسالته ﴿يَغْفِرْ لَكُم مِّن ذُنُوبِكُمْ﴾؛ أي: يغفرْ لكم ربكم من ذنوبكم، والفعل المضارع مجزوم؛ لأنه واقع في جواب الطلب، وغفران الله للذنب تجاوزه عنه وستره، و﴿مِّن﴾ للتبعيض؛ أي: يغفر لكم ما سلف من الذنوب، كما قال سبحانه: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِن يَنتَهُوا۟ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ﴿وَيُجِرْكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣١﴾﴾؛ أي: ويؤمنْكم من عذاب شديد مؤلم، وهو عذاب النار.

قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّا يُجِبْ دَاعِىَ ٱللَّهِ فَلَيْسَ بِمُعْجِزٍ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ هذا ترهيب بعد ترغيب؛ أي: ومن لا يجبْ رسول الله وما دعا إليه من التوحيد والطاعة فليس بمستطيع أن يُعْجِز الله بالهرب من عقابه، فمهما

هرب في الأرض فهو في ملك الله، والله قادر عليه ومحيط به فلا يفوته ﴿وَلَيْسَ لَهُ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءُ﴾؛ أي: وليس له من دون الله أنصار يحمونه ويدفعون عنه عذاب الله ﴿أُولَٰٓئِكَ﴾؛ أي: المعرضون عن إجابة داعي الله ﴿فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٣٢﴾؛ أي: في حَيرة وخطأ واضح، والضلال في الأصل عدم الاهتداء إلى الطريق.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن نبيَّنا محمدًا ﷺ رسولٌ إلى الثقلين الجن والإنس.

٢ ـ أن موسى عليه السلام مرسلٌ إلى طائفة من الجن، كما أرسل إلى طائفة من الناس.

٣ ـ أن الجن مكلَّفون، وأنهم مثابون أو معاقبون.

٤ ـ تعجُّب الجن من القرآن؛ أي: من حسن ألفاظه ومعانيه.

٥ ـ حسن أدب الجن مع القرآن؛ لقوله: ﴿فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓاْ أَنصِتُواْ﴾.

٦ ـ أن القوم يطلق على الجن؛ لأن فيهم رجالًا.

٧ ـ قيامهم بواجب النِّذارة، وهذا يدل على أنهم قد آمنوا.

٨ ـ سلوك أولئك النفر من الجن في دعوة قومهم طرق الدعوة من الأمر والنهي والوعد والوعيد.

٩ ـ أن القرآن منزَّل.

١٠ ـ أنه مصدِّقٌ لما بين يديه؛ أي: لما تقدمه من الكتب.

١١ ـ أن القرآن يهدي إلى الحق وإلى الصراط المستقيم.

١٢ ـ اتفاق الكتب المنزَّلة فيما دلَّت عليه من أصول الشرائع.

١٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُلْ أُوحِيَ إِلَيَّ أَنَّهُ ٱسْتَمَعَ نَفَرٌ مِّنَ ٱلْجِنِّ فَقَالُوٓا۟ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾ الآيات [الجن: ١، ٢].

١٤ ـ التلطف في الدعوة مع المدعوين؛ لقولهم: ﴿يَٰقَوْمَنَآ﴾.

١٥ ـ أن الرسل دعاة إلى الله.

١٦ ـ الموعظة في الدعوة بالترغيب والترهيب.

١٧ ـ أن من لم يجب داعي الله فلن يعجز الله إن أراده بسوء، وليس له وليٌّ من دون الله ينصره ويتولاه.

١٨ ـ أن من لم يجب دعوة الرسول فقد ضل ضلالًا مبينًا.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في سورة الرحمٰن: ﴿يَٰمَعْشَرَ ٱلْجِنِّ وَٱلْإِنسِ إِنِ ٱسْتَطَعْتُمْ أَن تَنفُذُوا۟ مِنْ أَقْطَارِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ فَٱنفُذُوا۟ ۚ لَا تَنفُذُونَ إِلَّا بِسُلْطَٰنٍ﴾ [الرحمٰن: ٣٣].

ولمّا كانت السورة من أولها إلى هنا في تقرير التوحيد والنبوة، ذكر ما يقرر المعاد الذي بدئت به السورة، فقال سبحانه:

﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾ وَيَوْمَ يُعْرَضُ الَّذِينَ كَفَرُوا عَلَى النَّارِ أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ۖ قَالُوا بَلَىٰ وَرَبِّنَا ۚ قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ﴿٣٤﴾ فَاصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُولُو الْعَزْمِ مِنَ الرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ ۚ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوا إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ ۚ بَلَاغٌ ۚ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا الْقَوْمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات تذكير الله عباده بما يرون من خلق السماوات والأرض الدال على كمال قدرته تعالى، وأنَّ ذلك دليلٌ على قدرته سبحانه على إحياء الموتى، وعلى كلِّ شيء، ثم التذكير باليوم الذي يعرض فيه الكفار على النار، ويقرَّرُون بما أنكروه، فيُقِرُّون عند ذلك ويوبَّخون على كفرهم، ثم تختم السورة بأمر النبي ﷺ بالصبر على أذى قومه، متأسِّيًا بإخوانه المرسلين، ولا يستعجل لقومه المكذبين ما يستعجلون به؛ فإنه آت، ويومئذ يرون أنهم لم يلبثوا إلا ساعة من نهار، فيكون قاطعًا لعذرهم، ولا يهلك الله إلا الفاسقين.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾؛ أي: أَغَفَل هؤلاء المشركون وأعرضوا ولم يعلموا؟ ﴿أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ﴾؛ أي: خلقهن بعد العدم، وعلى غير مثال سابق، والاستفهام للتقرير والإنكار، وفيه إلزام

لهم بمضمون الكلام ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾؛ أي: ولم يَضعُف ولم يعجِز بخلقهن؛ بل أحكمهن إحكامًا بديعًا، يقال: عَيِي ـ كفرح ـ عِيًّا؛ أي: ضعُف، وهذا احتراس لدفع الظن الباطل، المعنى: أليس الذي خلقهن ﴿بِقَادِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ﴾؛ أي: قادرٌ على بعث الموتى بعد البِلى وإخراجهم من قبورهم أحياء.

والباء في خبر (أنَّ) زائدة؛ لأنها في هذا التركيب أشبهت (ليس) حيث عمل فيها فعلٌ منفيٌّ، وهو ﴿يَرَوْا﴾، فصار الكلام بمعنى أليس الله، فاقتضى ذلك زيادة الباء في الخبر (أنَّ)، والذي سهَّل ذلك تباعد ما بين (أنَّ) وخبرها بذكر جملة ﴿وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ﴾، ولهذا لم تدخل الباء في خبر (أنَّ) في قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ قَادِرٌ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمْ﴾ [الإسراء: ٩٩] لعدم التباعد[1].

قوله تعالى: ﴿بَلَىٰٓ﴾ حرف جواب، وهو جواب عن الاستفهام؛ أي: بلى هو قادر على إحياء الموتى ﴿إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٣﴾﴾ هذا كالدليل لما قبله؛ أي: قدير على كل شيء؛ فلا يخرج عن قدرته شيء، ومن ذلك البعث بعد الموت، ولا يعجزه تعالى شيء في الأرض ولا في السماء، وهذا عموم لا مخصِّص له.

قوله سبحانه: ﴿وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ﴾؛ أي: اذكر لقومك ـ أيها الرسول ـ على سبيل التهديد والتخويف يوم يوقف الذين كفروا على نار جهنم، ويعذَّبون بها، ويقال لهم تقريعًا: ﴿أَلَيْسَ هَٰذَا بِٱلْحَقِّ﴾؛ أي: أليس هذا العذاب الذي تعذبون به بالأمر الحق، وكنتم تقولون في الدنيا: ﴿وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ﴾ [سبأ: ٣٥]، ﴿قَالُوا۟ بَلَىٰ وَرَبِّنَا﴾؛ أي: قال الكفار: بلى وربنا إنه الحق، ما اكتفوا بتكذيب أنفسهم؛ بل أقسموا على

---

(١) ينظر تفصيل ذلك في: «مغني اللبيب بحاشية الدسوقي» (٣/ ٥٠٧).

ذلك؛ لأنهم يطمعون في الخروج، وأنَّى لهم ذلك؟! ولهذا يقال لهم توبيخًا: ﴿فَذُوقُواْ ٱلْعَذَابَ﴾؛ أي: اصلوه وقاسوا شدائده ﴿بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ ۝٣٤﴾؛ أي: بسبب كفركم.

ثم خاطب الله نبيَّه محمدًا ﷺ واعظًا له ومسليًّا، فقال: ﴿فَٱصْبِرْ﴾؛ أي: اصبر على أذى قومك، وعلى الدعوة ﴿كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ﴾؛ أي: كما صبر أصحاب الثبات والقوة والصبر على الشدائد من الرسل، و(مِنْ) يحتمل أن تكون للتبعيض، وأولو العزم هم نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ونبيُّنا محمد عليهم الصلاة والسلام، ويجوز أن تكون (مِن) بيانية؛ أي: للتبيين، كما تقول: خاتم من حديد، المعنى: اصبر كما صبر جميع الرسل من قبلك؛ فالرسل كلهم أولو عزم وحزم ورأي وكمال عقل، عليهم الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ﴾؛ أي: لا تستعجل لهم العذاب بدعائك عليهم؛ فإنه واقع بهم لا محالة، والاستعجال ينافي العزم والصبر، وفي الآية وعد من الله لنبيِّه بالنصر ﴿كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ﴾؛ أي: من العذاب العظيم يوم القيامة ﴿لَمْ يَلْبَثُوٓاْ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍ﴾؛ أي: لم يمكثوا في الدنيا إلا مدة ساعة على تقديرهم؛ أي: وقت قليل، كما قال سبحانه: ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ ٱلسَّاعَةُ يُقْسِمُ ٱلْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُواْ غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَٰلِكَ كَانُواْ يُؤْفَكُونَ﴾ [الروم: ٥٥].

قوله تعالى: ﴿بَلَٰغٌ﴾ خبر لمبتدأ محذوف؛ أي: هذا الذي وُعظتم به بلاغٌ كافٍ لقومك وللناس كافة ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ۝٣٥﴾؛ أي: ما يُهلك بعذاب الله إلا القوم الخارجون عن طاعته وطاعة رسله، وفي هذه الجملة حسن ختام للسورة، وفيه أيضًا تناسُب مع أولها؛ حيث فُتحت بالخبر عن إعراض الكفار عمَّا أنذروا به، وخُتمت بالخبر عن إهلاكهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أعظم آيات الله خلق السماوات والأرض.

٢ ـ أن الله لم يلحقه في خلقها عِيٌّ ولا لغوب.

٣ ـ أن خلق السماوات والأرض من أعظم الأدلة على قدرته تعالى على البعث.

٤ ـ الرد على الفلاسفة في قولهم بقِدم السماوات والأفلاك.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم ۚ بَلَىٰ وَهُوَ ٱلْخَلَّٰقُ ٱلْعَلِيمُ﴾ [يس: ٨١].

٦ ـ إثبات قياس الأولى؛ فإن القادر على خلق العظيم قدرتُه على ما دونه من باب أولى.

٧ ـ إثبات عموم قدرة الله.

٨ ـ الرد على القَدَرية.

٩ ـ عرض الكفار على النار.

١٠ ـ إثبات النار، نعوذ بالله منها.

١١ ـ أن الكفر سبب عذاب المعذَّبين في النار.

١٢ ـ إثبات البعث والجزاء.

١٣ ـ تصبير النبي ﷺ على أذى قومه.

١٤ ـ أن مما يعين على الصبر وغيره من الطاعات الأسوة بالصابرين والقائمين بأمر الله.

١٥ ـ تسلية الرسول ﷺ بأسلافه من الأنبياء الصابرين.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ﴾ [الأنعام: ٣٤].

١٧ ـ أن من آثار الصبر انتظار النصر وعدم الاستعجال.

١٨ ـ فضل الصبر على مشاق الدعوة.

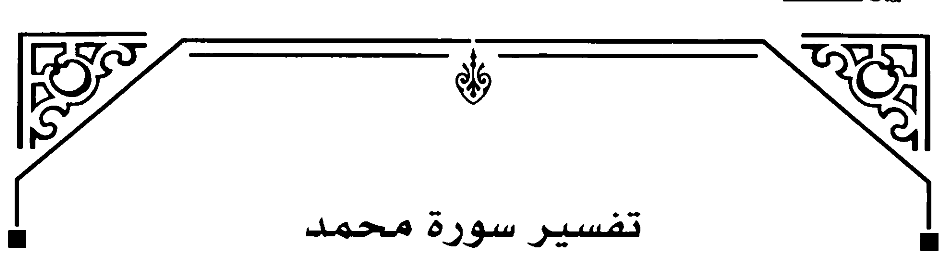
١٩ ـ أن من محاسن الأخلاق قوة العزم.

٢٠ ـ استقلال الكفار يوم القيامة مقامهم في الدنيا.

٢١ ـ أن ما في هذه السورة من التذكير بآيات الله ووعيده للكافرين بلاغٌ قاطعٌ لعذر المكذبين، ولهذا قال: ﴿فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾﴾.

٢٢ ـ أن سبب هلاك المهلَكين خروجُهم عن طاعة الله وطاعة رسله.





تفسير سورة محمد

تسمَّى هذه السورة سورة: محمد، وسورة القتال، وهي مدنية بالاتفاق، وعدد آياتها ثمان وثلاثون، افتتحت بموازنة بين المؤمنين والكافرين في أعمالهم ومآلهم، وذكر سبب هذا التباين، وتضمَّنت أمرَ المؤمنين بقتال الكافرين المحاربين حتى تنكسر شوكتهم، ويقلعوا عن حربهم، ثم بيَّن تعالى حكمته في هذه الحروب بين المسلمين والكفار، وهو ابتلاء بعضهم ببعض، وذكرَ ما أعدَّه للذين قتلوا في سبيل الله.

ثم نَدبَ المؤمنين إلى نصرة دينه، وأنه يجزيهم على ذلك النصر والتثبيت، وأن الكافرين على النقيض من ذلك، ثم بيَّن أصل ذلك ومنشأه، وهو أن الله مولى المؤمنين، فللمؤمنين الكرامة في الدنيا والآخرة، وللكافرين الذل والهوان في الدنيا والآخرة، ثم سلَّى الله نبيّه ﷺ فيما فعلته قريش من إخراجه من وطنه.

ثم يعود السياق إلى الموازنة وذكر التباين بين مَن زُيِّن له سوء عمله، ومَن كان على بينة مِن ربه، وذكر مصير كل منهما، وحال كل منهما بعد سماعهم لما يتلوه الرسول ﷺ من القرآن، ثم هدَّد الكافرين بقيام الساعة، وأنها آتية لا محالة، ثم أمر الله نبيّه ﷺ بالعلم وبالاستغفار لنفسه وللمؤمنين والمؤمنات، ثم ذَكر تمني المؤمنين أن تنزل عليهم سورة يؤمرون فيها بالقتال، ثم ذَكر حال الذين في قلوبهم مرض عند نزول هذه السورة.

ثم ذمَّ سبحانه الكارهين للقتال وبيَّن أن ذلك ينافي صدقَ الإيمان، ثم أخبر أن منهم من ارتدَّ عن دينه بتسويل الشيطان، وذمَّهم على موافقة الكافرين، وأن ذلك سبب ردتهم، ثم ذكر تعالى بعض أحوال الكافرين والمنافقين، وأن الله سيفضحهم ويعرف نبيّه بهم، ثم أخبر تعالى عن ابتلائه للمؤمنين حتى يتبيَّن من يجاهد ويصبر، ومن يقعد ويدبر، ثم أخبر أن الكافرين والمنافقين والقاعدين لن يضروا الله شيئًا، وإنما يعود ضرر ذلك إلى أنفسهم، ثم عقَّب ذلك بأمر المؤمنين بطاعته تعالى وطاعة رسوله، ونهاهم عن التسبُّب في إبطال أعمالهم، ثم أخبر تعالى أن من مات من الكفار على كفره فإن الله لا يغفر له.

ثم يعود السياق إلى أمر المؤمنين بجهاد الكافرين وأن القعود عن ذلك لا يليق بهم؛ فإنهم الأعلون والله معهم، ثم يحقِّر تعالى هذه الدنيا بأن إيثارها من أعظم أسباب القعود عن الجهاد، وأنه تعالى لم يسألهم كل أموالهم، وإنما يريد اللهُ منهم الإيمانَ والتقوى، فلو سألهم أموالهم لبخلوا، وظهر مكنونُ نفوسهم في حب المال، ثم يذكر تعالى الدليل على هذه الحقيقة من حالهم حين دُعوا إلى الجهاد والإنفاق فيه أن منهم من بخل، وهو إنما يبخل عن نفسه، ثم ختم تعالى السورة بذكر كمال غناه وحمده وفقرهم إليه، وبيَّن تعالى أنهم إن تمادوا في ترك الجهاد وشحُّوا بالأنفس والأموال فإنه سيستبدل بهم غيرهم، ولا يكونون مثلهم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢ ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْبَٰطِلَ وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّبَعُواْ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ۝٣﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات ذكرَ عاقبة الكافرين الصَّادِّين عن سبيل الله، وهي إحباط أعمالهم، وعاقبة المؤمنين الذين عملوا الصالحات، وآمنوا بالنبي محمد ﷺ وما أنزل عليه، وهي تكفير السيئات وإصلاح شأنهم في دينهم ودنياهم، ثم بيَّن تعالى سبب عاقبة الفريقين، وهو اتباع الكافرين للباطل، واتباع المؤمنين للحق، وأنَّ حكم الفريقين حكمُ أمثالهم ممن مضى أو يأتي.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ مبتدأ، خبره ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾، ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: كفروا بالله ورسوله ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وصدوا غيرَهم عن دين الله ﴿أَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝١﴾؛ أي: أضل الله أعمالهم؛ أي: أبطلها وأذهبها فلا يثابون عليها في الآخرة؛ لأنهم لا يؤمنون بها، والمراد بأعمالهم: ما كانوا يقومون به من إكرام الضيف، وإطعام الطعام، وحفظ الجوار، وغير ذلك مما هو محمود عندهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣]،

وقد يجزيهم الله عنها في الدنيا، كما روى الإمام أحمد عن عدي بن حاتم، قال: قلت: يا رسول الله؛ إن أبي كان يصل الرحم، ويفعل كذا وكذا، قال: «**إن أباك أراد أمرًا فأدركه**؛ يعني: الذِّكر»[1]، ويدخل في أعمالهم الحابطة ما كانوا يكيدون به للإسلام وأهله، و﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ في الآية عام في كل من كفر.

ولما ذكر الكفار وعملهم وجزاءهم ذكر المؤمنين وعملهم وجزاءهم، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: آمنوا بالله ورسله، وهذا مبتدأ، وجملة ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾ خبره، ﴿وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: عملوا الأعمال الصالحات؛ وهي المبنية على الإخلاص لله، والمتابعة للرسول ﷺ ﴿وَءَامَنُواْ بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ﴾؛ أي: آمنوا بالقرآن، وهذا من عطف الخاص على العام؛ لأن الإيمان بالله ورسله يتضمن الإيمان بالقرآن وبمن أنزل عليه، وفي هذا التخصيص وذكر القرآن بالاسم الموصول إظهار لفضل هذا الكتاب على سائر الكتب المنزَّلة.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ﴾؛ أي: القرآن ﴿ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ﴾ جملة معترضة لتأكيد الثناء على القرآن وفيها أسلوب حصر؛ أي: هو الحق البالغ أقصى مراتب الكمال، فليس بباطل ولا مفترى ولا تناقض فيه، وهو المهيمن على الكتب السابقة والناسخ لها وليس بمنسوخ ﴿كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّـَٔاتِهِمْ﴾؛ أي: غفرها لهم وسترها عليهم ﴿وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝٢﴾؛ أي: أصلح شأنهم في دينهم ودنياهم، وهذا الحكم عام في كل من آمن وعمل صالحًا إلى يوم القيامة.

---

(١) «المسند» (١٨٢٦٢) قال محققوه: حسن.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: إضلال أعمال الكافرين، وإصلاح بال المؤمنين ﴿بِأَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: بسبب أن الذين كفروا ﴿ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْبَٰطِلَ﴾؛ أي: سلكوا طريق الباطل الذي زيَّنه لهم الشيطان ﴿وَأَنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّبَعُوا۟ ٱلْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: سلكوا طريق الحق وثبتوا عليه، وآثروه على ما سواه، وهو ما أنزل على الرسول من الكتاب والحكمة، وأضاف اسم الرب إلى الذين آمنوا تكريمًا لهم وتشريفًا، وتنبيهًا على لطفه بهم ﴿كَذَٰلِكَ﴾؛ أي: مثلَ ذلك البيان الواضح لحال الفريقين ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَٰلَهُمْ ﴿٣﴾﴾؛ أي: يبيِّن الله للناس أحوال كل كافر وكل مؤمن في كل زمان؛ ليعتبروا ويتعظوا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الناس فريقان: كفار ومؤمنون.

٢ ـ التباين بين الفريقين في الاعتقاد والأعمال.

٣ ـ أن أقبح أعمال الكافرين الصدُّ عن سبيل الله.

٤ ـ بطلان أعمال الكافرين، ومن ذلك: عملُهم في الصدِّ عن دين الله، وليس المراد حرمان الثواب؛ بل المراد أعمُّ من ذلك، وهو أثرها المطلوب لهم، يوضحه قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ﴾ [الأنفال: ٣٦].

٥ ـ التحذير من الكفر والعمل السيئ.

٦ ـ أن الدين الحق هو سبيل الله؛ لأنه الدين الذي يرضاه، وهو السبيل الموصل إليه.

٧ ـ أن المؤمنين بالله ورسله هم الذين يعملون الأعمال الصالحة.

٨ ـ فضل الإيمان بمحمد ﷺ وبما أنزل عليه.

٩ ـ الحث على الإيمان والعمل الصالح.

١٠ ـ التنويه بشخص الرسول ﷺ حيث ذكر باسمه العلم الذي يعرفه به كلٌّ أحد.

١١ ـ أن عاقبة المؤمنين تكفير سيئاتهم وإصلاح أحوالهم.

١٢ ـ أن المؤمن تقع منه السيئات ولا يكاد يسلم منها.

١٣ ـ أن سبب بطلان أعمال الكفار اتباع الباطل.

١٤ ـ أن سبب إصلاح أعمال المؤمنين اتباع الحق.

١٥ ـ إثبات الربوبية الخاصة التي من مقتضاها هدايتهم، وحصول المغفرة لهم، وإصلاح أحوالهم.

١٦ ـ الترغيب في سلوك سبيل المؤمنين في القدوة بهم.

١٧ ـ التحذير من سلوك سبيل الكافرين باتباع سننهم.

ولما بيَّن تعالى أن أعمال الكافرين ضالة وأنهم اتبعوا الباطل، أمر بقتالهم، وعلَّم عباده المؤمنين كيفية القتل؛ فقال سبحانه:

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ (٤) سَيَهْدِيهِمْ وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ (٥) وَيُدْخِلُهُمُ الْجَنَّةَ عَرَّفَهَا لَهُمْ (٦)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات أمر المؤمنين بضرب أعناق الكافرين عند لقائهم، وترك الأسر إلا بعد الإثخان، ومن أُسِر منهم فالمسلمون مخيَّرون فيهم بين المنِّ والمفاداة، وأن يكون ذلك دأب المسلمين مع الكفار حتى تضع الحرب أوزارها، بكفِّ الكفار عن المحاربة بموادعة أو غيرها، ثم أخبر تعالى عن قدرته على أخذ الكافرين دون أن يكلِّف المسلمين قتالهم، ولكن اقتضت حكمته تعالى أن يبتلي المؤمنين والكفار بعضهم ببعضهم، ثم ذكر تعالى عاقبة الشهداء الذين يقتلون في سبيل الله، وهي قبول أعمالهم وصلاح أحوالهم، حتى تكون الجنة مآلهم، فيدخلونها وقد عرَّفها لهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾؛ أي: في الحرب ﴿فَضَرْبَ الرِّقَابِ﴾؛ أي: فاضربوا رقابهم ضربًا بالسيوف، حُذف الفعل وأقيم المصدر مقامه، وأضيف المصدر إلى المفعول به، والمراد القتل، وإنما ذكر ضرب الرقاب؛ لأنه الغالب في القتل في الحروب.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثۡخَنتُمُوهُمۡ﴾؛ أي: استمِرُّوا في قتل الكافرين أعداء الله حتى إذا أضعفتموهم بكثرة القتل والجراحات وانكسرت شوكتهم ﴿فَشُدُّواْ ٱلۡوَثَاقَ﴾؛ أي: فكُفُّوا عن قتلهم وشُدُّوا عليهم القيد، وهو كناية عن الأسر ﴿فَإِمَّا مَنَّۢا﴾؛ أي: أنتم مخيَّرون بعد أسرهم؛ إما أن تمنُّوا عليهم مَنًّا بإطلاقهم بلا مقابل ﴿بَعۡدُ﴾؛ أي: بعدَ شدِّ الوَثاق والأسر ﴿وَإِمَّا فِدَآءً﴾؛ أي: وإما أن تَفدُوا فداءً؛ أي: تفادوهم بمال أو بأسرى مسلمين، ويجوز أيضًا للمسلمين في هؤلاء الأسرى أمران آخران: استرقاقهم، وقتلهم، فهذه أربعة أمور: الإطلاق مجَّانًا، والإطلاق بمقابل، والاسترقاق، والقتل، كلها جائزة، حسبما يراه الإمام من المصلحة للإسلام والمسلمين.

قوله تعالى: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾؛ أي: دُوموا على قتال الكافرين وأسرهم حتى تنتهي الحرب إما بالانتصار عليهم، أو بصلح وعهد، أو يسلموا، والأوزار جمع وِزْر ـ بكسر فسكون ـ وأصله الحِمْل الثقيل، والمراد بها أهوال الحرب، فقوله: ﴿حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلۡحَرۡبُ أَوۡزَارَهَاۚ﴾ مجاز عن انتهاء الحرب، شبهت حال انتهاء القتال بحال وضع الحمَّال أثقاله عن ظهره.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَلَوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنۡهُمۡ﴾، اسم الإشارة ﴿ذَٰلِكَ﴾ في هذا الموضع من أساليب البلغاء؛ إذْ يؤتى به بين كلامين، أو للانتقال من موضوع إلى موضوع، وهو كثير في القرآن، قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ وَمَن يُعَظِّمۡ حُرُمَٰتِ ٱللَّهِ فَهُوَ خَيۡرٞ لَّهُۥ عِندَ رَبِّهِۦۗ﴾ [الحج: ٣٠]، ومثل ﴿ذَٰلِكَ﴾ ﴿هَٰذَاۚ﴾، قال تعالى: ﴿هَٰذَاۚ وَإِنَّ لِلطَّٰغِينَ لَشَرَّ مَـَٔابٖ﴾ [ص: ٥٥]، ومن كلام البُلَغاء في هذا: قول زهير بن أبي سلمى:

هذا، وَلَيسَ كمَنْ يَعْيَا بخُطّتِهِ وَسْطَ النّديِّ إذا ما ناطِقٌ نَطَقَا[1]

---

(١) ديوان زهير (ص٤٠).

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾ مبتدأ، وخبره محذوف؛ أي: ذلك ما ذكرت لكم من الحكم في الكفار من القتل والأسر، ثم يجيء الكلام اللاحق: ﴿وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ﴾؛ أي: لو أراد الله لانتقم منهم بغير الحرب بعذاب من عنده ﴿وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَاْ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾؛ أي: ولكن أمَرَكم بالقتال ليختبر المؤمن بالكافر، والكافر بالمؤمن، لينفُذ قدر الله في الفريقين؛ بنصر المؤمن أو ثوابه، وهلاك الكافر أو إسلامه ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: قتلوا وقاتلوا لإعلاء كلمة الله ﴿فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾؛ أي: لن يبطلها؛ بل يتقبلها ويضاعفها ويعظم ثوابها، ومن ذلك أنه تعالى أعدَّ في الجنة للمجاهدين في سبيله مئة درجة، ما بين الدرجتين كما بين السماء والأرض[(١)].

قوله تعالى: ﴿سَيَهْدِيهِمْ﴾؛ أي: يهديهم في الآخرة طريق الجنة، والسين للتأكيد ﴿وَيُصْلِحُ بَالَهُمْ ﴿٥﴾﴾؛ أي: ويصلح شأنهم في الآخرة بما يرضيهم ﴿وَيُدْخِلُهُمُ ٱلْجَنَّةَ﴾ التي عرضها السماوات والأرض، وفيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر ﴿عَرَّفَهَا لَهُمْ ﴿٦﴾﴾ من المعرفة؛ أي: عرَّفهم منازلهم فيها بإلهام منه تعالى، قال ﷺ: **«والذي نفس محمد بيده لأحدهم أهدى بمنزله في الجنة منه بمنزله كان في الدنيا»**[(٢)].

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إغراء المؤمنين بقتل الكافرين المحاربين عند لقائهم.

٢ ـ القصد إلى قطع رقابهم بضربها بالسيوف.

---

(١) البخاري (٢٦٣٧) عن أبي هريرة ﵁.

(٢) البخاري (٦١٧٠) عن أبي سعيد الخدري ﵁.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَٱضۡرِبُواْ فَوۡقَ ٱلۡأَعۡنَاقِ وَٱضۡرِبُواْ مِنۡهُمۡ كُلَّ بَنَانٖ﴾ [الأنفال: ١٢].

٤ ـ ترك الأسر إلا بعد الإثخان.

٥ ـ التخيير في الأسرى بين المنِّ والفداء.

٦ ـ دوام القتل والأسر في الكافرين حتى تقف الحرب بيننا وبينهم بالصلح أو بغلبة المسلمين للكافرين.

٧ ـ أن أمر الله بقتال الكفار ليس لعجزه عن إهلاكهم.

٨ ـ أن الحكمة في ذلك ابتلاء المؤمنين والكافرين بعضهم ببعض.

٩ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى.

١٠ ـ التنويه بفضل من يقتل في سبيل الله.

١١ ـ التنبيه على الإخلاص؛ لقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ قُتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٢ ـ الوعد بقبول أعمالهم الصالحة وإثابتهم عليها.

١٣ ـ الوعد بهدايتهم وإصلاح شأنهم، وإدخالهم الجنة.

١٤ ـ أن أهل الجنة يهتدون إلى منازلهم دون حاجة إلى من يدلُّهم عليها.

ولما بيَّن الله تعالى ما أعد للمجاهدين في سبيله في الآخرة، وعدهم بالنصر في الدنيا حثًّا لهم على قتال الكافرين، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ۝٧ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعۡسٗا لَّهُمۡ وَأَضَلَّ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٨ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَرِهُواْ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحۡبَطَ أَعۡمَٰلَهُمۡ ۝٩﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات ندبًا من الله للمؤمنين أن ينصروه بنصر دينه، ووعدًا منه لهم بالنصر والتثبيت؛ إذِ الجزاء من جنس العمل، وتهديدًا للكافرين بالتَّعْس وبطلان العمل، عقوبة لهم على كراهتهم للحق الذي أنزل الله، فعوقبوا بحبوط أعمالهم، وبطلان كيدهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: يا من صدَّقوا الله ورسوله واتبعوه، وكثيرًا ما تصدَّر الأوامر والنواهي في القرآن بهذا النداء، وإن له فوائد منها:

الأولى: أنه دليل على أهمية المأمور به؛ لما في هذه الصيغة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ من أنواع التأكيد؛ وهي:

١ ـ تكرير المنادَى؛ فـ(أيُّ)، منادَى وهي نكرة مقصودة، والموصول ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ منادَى، وهما شيء واحد.

٢ ـ الإيضاح بعد الإبهام في قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ بعد قوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا﴾.

٣ ـ اجتماع المعرفتين (أيُّ) و﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾.

٤ ـ التأكيد بحرف التنبيه (يا)؛ فإن النداء يوجب انتباه المنادَى، فإذا قلت: يا فلان، التفت تجاهك، وأصغى إليك.

الفائدة الثانية: أن النداء بوصف الإيمان دليلٌ على أن امتثال الأمر من مقتضيات الإيمان، وأنه يزيد في الإيمان، فهذا فيه استثارة لهمم المؤمنين وعزائمهم، ولهذا قال ابن مسعود ﷺ: إذا سمعت الله يقول: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ فأرْعِها سمعك؛ فإنه خيرٌ تؤمر به، أو شرٌّ تنهى عنه[(١)]؛ يعني: يحصل لك به العبرة والاتعاظ، فيؤول إلى خيرٍ لك أيضًا.

قوله تعالى: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ﴾؛ أي: تنصروا دينه ورسوله ﷺ بقتال الكفار ﴿يَنصُرْكُمْ﴾ بالغلبة عليهم ﴿وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ۝٧﴾؛ أي: يثبتكم في ساحات الحرب، ويملأ قلوبكم طمأنينة وسكينة، فلا تفرون من عدوكم؛ بل تطلبونه.

ولما ذكر سبحانه جزاء المؤمنين المجاهدين ذكر جزاء الكافرين، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فَتَعْسًا لَّهُمْ﴾؛ أي: هلاكًا لهم وشقاءً وخيبة في الدنيا بالقتل وفي الآخرة بالنار، وهذا دعاء عليهم، و(تعسًا) مفعول مطلق منصوب، وهو من المصادر التي يجب حذف فعلها سماعًا، مثل: تبًّا له، وويحًا له، والتقدير: أتعسهم الله تعْسا ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ الواو عطف على محذوف تقديره: فتعَسوا وأضل أعمالهم؛ أي: أحبط أعمالهم وأبطلها جزاءً وِفاقًا.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الذي فعلنا بهم من التَّعْس والإضلال لأعمالهم ﴿بِأَنَّهُمْ كَرِهُواْ﴾؛ أي: بسبب أنهم أبغضوا ﴿مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ﴾ من القرآن والشرائع، كما قال سبحانه: ﴿وَإِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَحْدَهُ ٱشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱلْآخِرَةِ﴾ [الزمر: ٤٥]، ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٩﴾؛ أي: أبطلها، وهذا تكرار لقوله: ﴿وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ۝٨﴾ بغير لفظه تأكيدًا لحبوط أعمال المشركين، فأعمالهم لا تنفعهم؛ لفقدان شرط القبول، وهو

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في التفسير (١/ ١٩٦).

التوحيد، قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ﴾ [الزمر: ٦٥].

الفوائد والأحكام:

١ ـ تكريم المؤمنين في خطابهم بوصف الإيمان.

٢ ـ وصفهم بما يبعث على الامتثال، وهو الإيمان.

٣ ـ أن الجهاد نصرٌ لله؛ أي: نصر لدينه.

٤ ـ أن ثبات أقدام المجاهدين بالإقدام وترك الفرار هو من تأييد الله لهم.

٥ ـ أن استشعار نصر دين الله في كل قول وعمل سببٌ لنصر الله للعبد وتأييده وحفظه من عدوه.

٦ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ﴾ [الحج: ٤٠].

٨ ـ عقوبة الله للكافرين بالتَّعْس وبطلان العمل.

٩ ـ المقابلة بين جزاء المؤمنين الناصرين لدين الله، وجزاء الكافرين المحاربين لأولياء الله.

١٠ ـ أن كراهة الكافرين لما أنزل الله من الهدى والبينات هو سبب ما يصيبهم من الخزي والبوار.

١١ ـ إثبات السببية في الخير والشر.

١٢ ـ أن ما جاء به الرسول منزَّل من الله.

١٣ ـ أن أعمال المشركين حابطة.

١٤ ـ أن الكفار يكرهون ما أنزل الله على نبيِّه محمد ﷺ، فعُلم أن المؤمنين يحبونه.

ثم إنه تعالى خوَّفهم عاقبة كفرهم بما نزل بالأمم المكذبة قبلهم ليعتبروا؛ فقال سبحانه:

﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ دَمَّرَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلِلْكَافِرِينَ أَمْثَالُهَا ﴿١٠﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللَّهَ مَوْلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَأَنَّ الْكَافِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿١١﴾ إِنَّ اللَّهَ يُدْخِلُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات دعوة الذين كفروا إلى السير في الأرض، ليشهدوا مصارع المكذبين من أمثالهم الذين حلَّت بهم المثُلات فدمَّر الله عليهم، فكان ذلك عاقبة كفرهم وتكذيبهم، وتهديد هؤلاء الكفار بمثل ما حل بمن قبلهم، وقد نجَّى الله الرسل ومن آمن بهم؛ لأن الله مولاهم، وهلك الكافرون؛ لأنه لا وليَّ لهم إلا الشيطان، كما قال تعالى: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النحل: ٦٣]، ثم أخبر عن أعمال الفريقين في الدنيا ومصيرهم في الآخرة، بنحو ما افتتحت به السورة.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنظُرُوا﴾ للمفسرين في هذا الاستفهام مذهبان:

الأول: أنه استفهام تقرير؛ أي: أليسوا قد ساروا في الأرض؟! يعني: أنهم قد ساروا، ولكنهم لم ينتفعوا بهذا السير بأخذ العبرة والموعظة، فالسير على هذا الوجه واقع، والفاء في ﴿فَيَنظُرُوا﴾ عاطفة للفعل على قوله: ﴿يَسِيرُوا﴾.

الثاني: أنه استفهام إنكار وتوبيخ لهم على ترك السير لأخذ العبرة؛ أي: فتكون الفاء عاطفة على معطوف على محذوف؛ أي: أَقَعَدوا عن السير فلم يسيروا؟! فهو حثٌّ لهم على السير في البلاد؛ ليشاهدوا مصارع الكفار فيعتبروا، فالسير على هذا الوجه منتفٍ، والفاء في ﴿فَيَنظُرُواْ﴾ سببية؛ أي: فبِسَبب سيرهم ينظرون، ويدل على أنها سببية قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ﴾ [الحج: ٤٦]، فقوله: ﴿فَتَكُونَ﴾ فعل مضارع منصوب بأن المضمرة بعد فاء السببية.

قوله تعالى: ﴿كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ﴾؛ أي: مآل ﴿ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾؛ أي: من الكافرين الذين كذبوا رسلهم كعاد وثمود، وما حلَّ بهم من العذاب العظيم ﴿دَمَّرَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ﴾؛ أي: دمَّر الله عليهم بلادهم وأهلكهم، وعُدِّي ﴿دَمَّرَ﴾ بعلى لتضمينه معنى أطبق، وإلا فهو يتعدى بنفسه، قال تعالى: ﴿فَدَمَّرْنَٰهُمْ تَدْمِيرًا﴾ [الفرقان: ٣٦]، وإذا أطبق الله عليهم الدمار والهلاك لم يُبق منهم والدًا ولا ولدًا ﴿وَلِلْكَٰفِرِينَ﴾؛ أي: من كفار مكة وغيرهم ﴿أَمْثَٰلُهَا ۝١٠﴾؛ أي: أمثال تلك العاقبة من الدَّمار، وفي ذلك تهديد بالغ لكل مكذب.

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: الأمر العظيم الذي فعله بالفريقين، وهو تدمير الكافرين ونصر المؤمنين عليهم ﴿بِأَنَّ ٱللَّهَ﴾؛ أي: بسبب أن الله ﴿مَوْلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾؛ أي: وليُّهم وناصرهم على أعدائهم ﴿وَأَنَّ ٱلْكَٰفِرِينَ لَا مَوْلَىٰ لَهُمْ ۝١١﴾؛ أي: لا وليَّ لهم ينصرهم، فأفاد نفي أن يكون الله مولًى لهم ولاية النصر والنفع، وهو مولاهم ولاية المِلك والقهر والإحاطة، كما قال سبحانه: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّ﴾ [الأنعام: ٦٢]، فلا تعارض بين الآيتين.

ثم بيَّن سبحانه مآل الفريقين في الآخرة إشعارًا بأن تمام النصر يكون فيها، فقال سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُدْخِلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾؛ أي: آمنوا بالله ورسوله، وعملوا الأعمال الصالحات؛ وهي المبنية على

الإخلاص لله، والاتباع للرسول ﷺ ﴿جَنَّٰتٍ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۖ﴾؛ أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار، وهي جنات النعيم التي فيها ما لا عينٌ رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر، وأسند سبحانه إدخالهم الجنة إلى نفسه؛ تشريفًا لهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: جحدوا الله وكذبوا رسله ﴿يَتَمَتَّعُونَ﴾ التمتُّع هو: الانتفاع القليل بالمتاع؛ أي: يتمتعون قليلًا بحطام الدنيا ومتاعها الفاني ﴿وَيَأۡكُلُونَ كَمَا تَأۡكُلُ ٱلۡأَنۡعَٰمُ﴾؛ أي: غافلين عمَّا خلقوا له من توحيد الله وعبادته، وعن الموت، وما بعد الموت، فهؤلاء كالبهائم لا همَّ لهم إلا إشباعُ رغبات بطونهم وفروجهم في الدنيا ﴿وَٱلنَّارُ مَثۡوٗى لَّهُمۡ ١٢﴾؛ أي: ونار جهنم مسكن لهم يصيرون إليها بعد هلاكهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ الندب إلى السير في الأرض للاعتبار بمصارع المكذبين.

٢ ـ أن السير في الأرض ومشاهدة آثار الهالكين من أسباب الهداية.

٣ ـ التذكير بما صنعه الله بأعداء الرسل من التدمير.

٤ ـ أن ذلك سُنَّة الله في الكافرين.

٥ ـ تهديد الكافرين من أهل مكة وغيرهم.

٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ﴾ [الأنفال: ٣٨].

٧ ـ أن الله وليُّ المؤمنين.

٨ ـ أن من ولايته تعالى للمؤمنين أنه ينجيهم مما ينزل بالكافرين من العذاب.

٩ ـ أن الإيمان سبب لولاية الله، فتتفاوت الولاية بتفاوت الإيمان.

١٠ ـ أنه ليس للكافرين وليٌّ يدفع عنهم ما ينزل بهم من عقاب الله.

١١ ـ بطلان الولاية المزعومة لآلهة المشركين.

١٢ ـ أن الله ليس وليَّ الكافرين ولاية المحبة والنصر والحفظ، ولكنه وليُّهم ولاية المِلك والقهر، وهذه الولاية هي التي بمعنى الربوبية العامة؛ كما قال: ﴿ثُمَّ رُدُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ مَوْلَىٰهُمُ ٱلْحَقِّۚ﴾ [الأنعام: ٦٢].

١٣ ـ أن من وَلايته تعالى للمؤمنين أن يُدخلهم جنات تجري من تحتها الأنهار.

١٤ ـ إثبات الجنة.

١٥ ـ أن في الجنة أنهارًا.

١٦ ـ المقابلة بين الكافرين والمؤمنين في عملهم في الدنيا وفي مصيرهم في الآخرة، مع غاية التباين، فقال في المؤمنين: ﴿ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾، ويدخلهم جنات، وقال في الكافرين: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ﴾، والنار مثوى لهم في الآخرة.

١٧ ـ تحقير الكفار بتشبيههم في الدنيا بالبهائم؛ إذ لا غاية لهم فيها إلا الأكل والمتاع.

١٨ ـ أن حالهم أسوأ من البهائم؛ لأن مصيرهم النار.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿ذَرْهُمْ يَأْكُلُواْ وَيَتَمَتَّعُواْ وَيُلْهِهِمُ ٱلْأَمَلُۖ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾ [الحجر: ٣].

٢٠ ـ إثبات النار.

٢١ ـ أن الدنيا متاع زائل، وهو قليل.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٧].

ولما ندبهم الله إلى السير في الأرض لينظروا عاقبة الذين من قبلهم، وذكر عاقبة المؤمنين في الآخرة، أخبر عن كثرة المهلكين من الأمم تسلية لرسوله ﷺ، وتهديدًا للكافرين؛ فقال سبحانه:

﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ الَّتِي أَخْرَجَتْكَ أَهْلَكْنَاهُمْ فَلَا نَاصِرَ لَهُمْ ﴿١٣﴾ أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٍ مِّن رَّبِّهِ كَمَن زُيِّنَ لَهُ سُوءُ عَمَلِهِ وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُم ﴿١٤﴾ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات تسلية الله لنبيِّه ﷺ، وتهديد كفار مكة بكثرة القرى التي أهلكها الله لمَّا عصوا رسله، ثم بيَّن تعالى التباين الشاسع بين من كان على هدى من ربه ومن كان في عماه، قد زين له سوء عمله، واتبع هواه، ثم أخبر تعالى بصفة الجنة التي أعدها للمتقين وأنواع الأنهار التي جعلها الله مشارب لأهل الجنة، مع ما لهم فيها من الثمرات، وتمام النعمة عليهم بالمغفرة، ثم نبَّه سبحانه على التباين بين شراب المتقين في الجنة، وشراب من هو مخلَّد في النار؛ ترغيبًا وترهيبًا.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ﴾ كأيِّن: كلمة تدل على التكثير أو على كثرة العدد، فهي بمعنى (كم) الخبرية، وتلزم فيها أي: في كأيِّن (مِن)

للتوكيد، فصارت في لزومها (مِن) كالمثَل الذي يجب التزام لفظه[١]، ومحلُّها الرفع بالابتداء، وقوله تعالى: ﴿مِّن قَرۡيَةٍ﴾ تمييز لها ﴿هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾ صفة لقرية ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾ صفة لقريتك، وقوله: ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾ خبر المبتدأ. هذا ما يتعلق بالإعراب، وإليك التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرۡيَةٍ هِيَ أَشَدُّ قُوَّةً﴾؛ أي: وكثير من أهل القرى السابقين هم أشدُّ قوة ومنعة، وأكثر عددًا ومالًا ﴿مِّن قَرۡيَتِكَ﴾ وهي مكة ﴿ٱلَّتِيٓ أَخۡرَجَتۡكَ﴾؛ أي: من أهل قريتك الذين أخرجوك منها إلى المدينة، وأسند الإخراج إلى القرية؛ لأن أهلها لما كانوا متفقين على إخراجه ﷺ، وآذوه بصنوف الأذى، وكانوا في ذلك على قلب رجل واحد صارت البلدة كأنها هي المخرجة ﴿أَهۡلَكۡنَٰهُمۡ﴾؛ أي: أهلكنا أولئك بأنواع العذاب من الحاصب والصيحة والخسف والإغراق والمسخ ﴿فَلَا نَاصِرَ لَهُمۡ ١٣﴾؛ أي: فلا ناصر لهم يدفع عنهم بأسنا وعذابنا، وفي هذا تهديد لكفار قريش وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ عَلَىٰ بَيِّنَةٖ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ الهمزة للاستفهام الإنكاري المفيد لنفي التسوية بين الفريقين؛ أي: هل مَن كان على بصيرة وحجة من ربه متمسكًا بها في جميع أحواله، وهو المؤمن ﴿كَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ﴾؛ أي: كمن زُيِّن له عملُه السيِّئُ من الشرك والمعاصي، والمزين له هو الله ابتلاء وفتنة، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤]، والشيطان يزين كذلك بمشيئة الله، قال تعالى: ﴿وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ مَا كَانُواْ يَعۡمَلُونَ﴾ [الأنعام: ٤٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱتَّبَعُوٓاْ أَهۡوَآءَهُم ١٤﴾؛ أي: تركوا الحق واتبعوا

---

(١) قال سيبويه (١/ ٢٩٧) (ط. بولاق): «يريد أنه لا تغير صورة التركيب، كما أن المثل لا يغيَّر لفظه مهما تغير من يقال له ذلك».

أهواءهم الباطلة، ففي الآية نفي المساواة بين الفريقين المهتدي والضال في العمل وفي الجزاء، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩].

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾؛ أي: صفة الجنة العظيمة الشأن ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾؛ أي: التي وعدها الله عباده المتقين الأبرار، وأعدَّها لهم ﴿فِيهَآ أَنْهَٰرٌ﴾ سارحات ﴿مِّن مَّآءٍ غَيْرِ ءَاسِنٍ﴾؛ أي: ماء غير متغير الطعم والرائحة، وفعله: أَسَن كضَرب ودخَل ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُۥ﴾؛ أي: لم يفسُد طعمه، ولم يتغير بالحموضة كلبن الدنيا ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّٰرِبِينَ﴾؛ أي: لذيذة الطعم جدًّا يتلذذ بها الشاربون، ولا هي تصدع الرأس، ولا تغتال العقل كخمر الدنيا ﴿وَأَنْهَٰرٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى﴾؛ أي: مصفًّى من الشوائب والشمع، وقد نفى الله عن كلٍّ نوع من هذه الأشربة الآفةَ التي تعرض له في الدنيا.

قوله تعالى: ﴿وَلَهُمْ فِيهَا﴾؛ أي: ولهم في الجنة مع ذلك كله ﴿مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾؛ أي: أصناف من كل الفواكه والثمار ﴿وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ﴾؛ أي: مغفرة عظيمة لجميع ذنوبهم ﴿كَمَنْ هُوَ خَٰلِدٌ فِى ٱلنَّارِ﴾ هذا خبر مبتدأ مقدَّر؛ أي: أَمَن كان في هذه الجنة كمن هو مخلَّد في النار؟! أي: لا يستويان، كما قال تعالى: ﴿لَا يَسْتَوِىٓ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ وَأَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ ۚ أَصْحَٰبُ ٱلْجَنَّةِ هُمُ ٱلْفَآئِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

قوله تعالى: ﴿وَسُقُوا۟ مَآءً حَمِيمًا﴾؛ أي: شديدَ الحرارة، يشوي الوجوه، نعوذ بالله منه ﴿فَقَطَّعَ أَمْعَآءَهُمْ ﴿١٥﴾﴾؛ أي: أمعاء بطونهم، وهي المصارين التي يصل إليها الطعام بعد هضمه، مفردها مِعًى، وذِكْر شراب أهل النار هو في مقابل شراب أهل الجنة، وبهذه المقابلة يتجلَّى التباين العظيم بين الفريقين.

الفوائد والأحكام:

١ ـ كثرة القرى التي أهلكها الله مع شدتهم وقوتهم، بكفرهم وعصيانهم.

٢ ـ تسلية النبي ﷺ بوعده بالنصر على الذين كذَّبوه وأخرجوه من أحب البلاد إليه.

٣ ـ أن الإخراج من الأوطان من أعظم المصائب على الإنسان إذا كان بغير حق، ومن أعظم الظلم والعدوان، كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ أُخۡرِجُواْ مِن دِيَـٰرِهِم بِغَيۡرِ حَقٍّ﴾ [الحج: ٤٠].

٤ ـ تهديد الكفار بأن تجري عليهم سُنَّة الله.

٥ ـ أن من أراده الله بسوء فلا ناصر له.

٦ ـ أن من الممتنع في العقول أن يسوَّى الذي على هدى وبيِّنة، ومَن هو في ضلال في علمه وعمله.

٧ ـ أنَّ من لا بصيرة له ولا بيِّنة لا فرقان عنده بين حق وباطل؛ بل يرى الحسن قبيحًا، والقبيح حسنًا.

٨ ـ أن من آثار الجهل اتباع الهوى.

٩ ـ أن أهل الكفر والضلال تُزَيَّن لهم أعمالهم تزيينًا كونيًّا من الله، وتزيينًا بفعل الشيطان.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱلۡأٓخِرَةِ زَيَّنَّا لَهُمۡ أَعۡمَـٰلَهُمۡ فَهُمۡ يَعۡمَهُونَ﴾ [النمل: ٤].

١١ ـ فيها شاهد لقوله: ﴿فَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيۡطَـٰنُ أَعۡمَـٰلَهُمۡ﴾ [النحل: ٦٣].

١٢ ـ أن اتباع الهوى سبيل من زُيِّن لهم سوء أعمالهم.

١٣ ـ فضل التقوى والمتقين.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في الجنة: ﴿أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣]، ﴿وَأُزۡلِفَتِ ٱلۡجَنَّةُ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [الشعراء: ٩٠]، ونظائر ذلك كثير.

١٥ ـ وصف الجنة بذكر أنهارها وثمارها.

١٦ ـ أن في الجنة أنواع الأنهار من الماء واللبن والخمر والعسل.

١٧ ـ سلامة أشربة الجنة من عيوب الأشربة في الدنيا.

١٨ ـ أن لأهل الجنة في الجنة كل أنواع الثمار.

١٩ ـ أنه لا يتم لأهل الجنة تَنَعُّمهم إلا بمغفرة الله لذنوبهم.

٢٠ ـ إثبات الربوبية الخاصة.

٢١ ـ أنه لا يستوي المنعَّمون بأنواع النعيم في الجنة، ومن يكون في النار خالدًا فيها، ويُسقَى من الحميم ما يقطع أمعاءه.

٢٢ ـ أن لأهل النار أمعاءً.

٢٣ ـ أن نعيم الجنة وعذاب النار حسِّيَّان، ففيها:

٢٤ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بأن النعيم والعذاب معنويَّان روحيَّان.

ولما بيَّن تعالى حال الكافرين ذكر حال المنافقين، فقال سبحانه:

﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ مَاذَا قَالَ ءَانِفًا ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ ﴿١٦﴾ وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً ۖ فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا ۚ فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ﴿١٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان الأوليان الإخبار عن صنفين من الذين أظهروا الإيمان بالرسول ﷺ وما جاء به:

أحدهما: من يستمع إلى الرسول ﷺ مع غفلة وإعراض، فلا يفقه ما سمعه من القرآن، وذلك بسبب الطبع على قلبه واتباعه لهواه.

الثاني: الفريق الآخر، وهم الذين يستمعون من النبي ﷺ القرآن، وهم مؤمنون به مهتدون، فيزيدهم الله إيمانًا، ويوفقهم لتقواه، ثم يرجع السياق في الآية الثالثة إلى تهديد المشركين والمنافقين بمجيء الساعة؛ أي: القيامة، فقد اقتربت وبدت أشراطها، وحينئذ هيهات لهم التذكر بعد الفوت.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾؛ أي: ومن الكافرين منافقون يحضرون مجلسك ـ أيها الرسول ـ ويلقون سمعهم إليك بإصغاء حين تعظ وتتلو عليهم القرآن، فيظهرون أنهم مؤمنون صادقون، وهم في الحقيقة لا ينتفعون بقولك ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا خَرَجُوا۟ مِنْ عِندِكَ﴾ (حتى) حرف استئناف يفيد انتهاء الغاية الزمانية؛ أي: ومنهم من يستمع إليك ويستمر

استماعه وإجهاده نفسه، وهذا يدل على طول جلوسهم، حتى إذا خرجوا من مجلسك ﴿قَالُوا۟﴾ على وجه الاستهزاء ﴿لِلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ﴾ من الصحابة ﴿مَاذَا قَالَ ءَانِفًا﴾؛ أي: ما الذي قال رسول الله الساعةَ؟ أي: ونحن عنده، و﴿ءَانِفًا﴾ ظرف منصوب، ويطلق على الزمن الماضي القريب، وسؤال المنافقين يدل على أحد أمرين:

الأول: تجاهلهم لما قال الرسول ﷺ احتقارًا له، مع علمهم به، كأنه قال كلامًا لا يؤبه له، ولا فائدة فيه.

الثاني: أنهم حضروا بأجسادهم دون أذهانهم، فهم لا يعقلون ما يقال؛ لأنهم لا يفكرون إلا في دنياهم.

وأيًّا ما كان فهؤلاء لخبثهم وسوء طويتهم محرومون من الانتفاع بالقرآن وما يقوله النبي ﷺ من العلم، ولهذا قال تعالى: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: الموصوفون بتلك الصفات، وهو مبتدأ، خبره: ﴿ٱلَّذِينَ طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾؛ أي: ختم عليها بالكفر، فلا يصل إليها خير ﴿وَٱتَّبَعُوٓا۟ أَهْوَآءَهُمْ﴾؛ أي: ساروا خلف أهوائهم الباطلة، فأعمت بصائرهم عن الحق.

ثم ذكر سبحانه ما يقابل هؤلاء، وهم المهتدون المتقون، فقال سبحانه: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟﴾؛ أي: بالإيمان والاستماع إلى القرآن، وهؤلاء أرادوا الخير وقصدوا إليه ﴿زَادَهُمْ هُدًى﴾؛ أي: زادهم الله هداية وتوفيقًا وشرح صدورهم؛ لصدقهم في إيمانهم ﴿وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: ألهمهم رشدهم، وجعل التقوى في قلوبهم، وهذا لصدقهم في إيمانهم، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ﴾ [يونس: ٩].

قوله سبحانه: ﴿فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا ٱلسَّاعَةَ﴾ هذا تفريع على ما تقدم من ذكر حال الكفار والمنافقين؛ أي: إذا لم يتعظ هؤلاء بالآيات البينات

فماذا ينتظرون؟ ما ينتظرون إلا الساعة؛ أي: القيامة، وسمَّاها الله ساعة؛ لأنها تقع في ساعة من الزمان، وأقلُّ ما يصْدُق عليه اسم الساعة اللحظةُ ونحوها، قال تعالى: ﴿وَمَآ أَمْرُ ٱلسَّاعَةِ إِلَّا كَلَمْحِ ٱلْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ﴾ [النحل: ٧٧]، أو لأنها تفجأ الناس بغتة؛ أي: فجأة، ولهذا قال سبحانه: ﴿أَن تَأْتِيَهُم بَغْتَةً﴾ المصدر المؤول بدل اشتمال من الساعة؛ أي: ما ينتظرون إلا إتيان الساعة ﴿فَقَدْ جَآءَ أَشْرَاطُهَا﴾؛ أي: علاماتها، جمع شَرَط، مثل سَبَب وأسباب، مثل انشقاق القمر، وأول أشراط الساعة بعثة خاتم النبيين محمد ﷺ، كما قال عليه الصلاة والسلام: «**بُعثتُ أنا والساعة كهاتين**»، وقرن بين السبابة والوسطى. متفق عليه[1]، وعند الإمام أحمد: «**بُعثتُ أنا والساعة جميعًا، إن كادت لتسبقني**»[2]، وظهورُ علامات الشيء ومقدماته يدل على قُربه، وهذا موجب لانتظاره وترقبه.

قوله سبحانه: ﴿فَأَنَّىٰ لَهُمْ إِذَا جَآءَتْهُمْ ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨﴾ (أنَّى) خبر مقدم، و﴿ذِكْرَىٰهُمْ ۝١٨﴾ مبتدأ مؤخر؛ أي: كيف لهم التذكر إذا جاءتهم الساعة بغتة؟! وهذا استفهام استبعاد؛ أي: لا توبة لهم حينئذ ولا ندم، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ ٱلْإِنسَٰنُ وَأَنَّىٰ لَهُ ٱلذِّكْرَىٰ﴾ [الفجر: ٢٣].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن المستمعين للقرآن صنفان: صنف يستمع بغير إيمان، وهم المنافقون، وصنف يستمع بإيمان وإيقان، وهم المؤمنون.

٢ ـ ذم الاستماع إلى القرآن والموعظة، مع الغفلة والإعراض.

---

(١) البخاري (٤٩٩٥)، ومسلم (٨٦٧).

(٢) المسند (٢٢٩٤٧)، ط. الرسالة، قال محققوه: «إسناده حسن».

٣ ـ الثناء على من يستمع القرآن مع الإيمان به والاحتساب.

٤ ـ ذكر حال الفريقين بعد الخروج من عند النبي ﷺ، فخارج بغير علم ولا هدى، وخارج بمزيد إيمان وتقوى.

٥ ـ أن عِلم الرسل والمؤمنين إنما هو بتعليم الله لهم التعليم الشرعي، فهو من فضل الله عليهم.

٦ ـ الطبع على قلوب المنافقين.

٧ ـ أن اتباع الهوى أصلٌ لضلال الكفار والمنافقين.

٨ ـ أن من اهتدى بقبول الحق زاده الله هدى.

٩ ـ أن الإيمان يزيد بتوفيق الله لعبده.

١٠ ـ أن الجزاء من جنس العمل.

١١ ـ أن تقوى العبد لربه تكون بتوفيقه.

١٢ ـ الرد على القدرية في نفيهم تعلقَ قدرةِ الله ومشيئتِه بأفعال العباد طاعاتهم ومعاصيهم، لقوله في المنافقين: ﴿طَبَعَ ٱللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾، وفي المؤمنين: ﴿زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾.

١٣ ـ تهديد الكفار بمجيء الساعة.

١٤ ـ إثبات القيامة.

١٥ ـ أن للساعة أشراطًا تتقدمها، وتدل على قربها.

١٦ ـ أن التذكر بعد مجيء الساعة لا يجدي شيئًا.

قال ﷻ: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ﴿١٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآية أمر الله نبيَّه ﷺ؛ أن يعلَم أصل الدين الذي بُعث به، وهو أنه لا إلٰه إلا الله، وأن يستغفرَ للمؤمنين والمؤمنات، ثم ختمت الآية بذكر إحاطة علمه تعالى بأعمال العباد وأحوالهم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾ هذا متصل بخطاب الله لنبيِّه ﷺ الذي ابتدأ من قوله: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ هِىَ أَشَدُّ قُوَّةً مِّن قَرْيَتِكَ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَتْكَ﴾ [محمد: ١٣]، إلى قوله: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾ [محمد: ١٦].

فبعد تسلية النبي ﷺ وتهديد أعدائه بما جرى على أمثالهم في الدنيا وبما ينتظرهم في القيامة، جاءت الوصية من الله لنبيِّه بقوله: ﴿فَٱعْلَمْ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: فاعلم ـ أيها الرسول ـ ﴿أَنَّهُۥ﴾؛ أي: الأمر أو الشأن ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا معبود حقٌّ إلا الله، وكلُّ ما سواه من الآلهة باطل، وهذه كلمة التوحيد، وهي أعظم كلمة يقولها العبد، فإنها «كلمة قامت بها الأرض والسماوات، وخلقت لأجلها جميع المخلوقات، وبها أرسل الله تعالى رسله، وأنزل كتبه، وشرع شرائعه، ولأجلها نصبت الموازين، ووضعت الدواوين، وقام سوق الجنة والنار، وبها انقسمت الخليقة إلى المؤمنين والكفار والأبرار والفجار، فهي منشأ الخلق والأمر والثواب والعقاب، وهي الحق الذي خلقت له الخليقة،

وعنها وعن حقوقها السؤال والحساب، وعليها يقع الثواب والعقاب، وعليها نصبت القبلة، وعليها أسست الملة، ولأجلها جُردت سيوف الجهاد، وهي حق الله على جميع العباد، فهي كلمة الإسلام، ومفتاح دار السلام، وعنها يسأل الأولون والآخرون»[١].

فقوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱللَّهُ﴾؛ أي: لا معبود حقٌّ إلا الله، وكلُّ ما سواه من الآلهة باطل، هذا معنى لا إله إلا الله، وأما مقتضاها فهو إفراده تعالى بجميع أنواع العبادة، فاعلم ذلك ـ أيها الرسول ـ ودُم على العلم به، وهو أمر للأمة بعامة، وافتتاح الخطاب بصيغة الأمر (اعلم) فيه تشويق المخاطب وتنبيهه على أهمية ما يلقى بعده، وعلى فضيلة العلم.

وإن من أساليب الكلام البليغ أن يفتتح بعض الجمل المشتملة على خبر أو طلب مهم بـ: اعلم أو: تعلَّم، وما أشبه ذلك، ونظائر ذلك في القرآن كثير، قال تعالى: ﴿ٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ وَأَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [المائدة: ٩٨]، وقال: ﴿وَإِن تَوَلَّوْاْ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ مَوْلَىٰكُمْ نِعْمَ ٱلْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ ٱلنَّصِيرُ﴾ [الأنفال: ٤٠].

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾؛ أي: اطلب المغفرة لذنبك، وهو أمر لكل مؤمن أن يسأل الله المغفرة لذنبه، وقد امتثل النبي ﷺ أمر ربه، فكان يقول في دعائه: «**رب اغفر لي خطيئتي وجهلي، وإسرافي في أمري كله، وما أنت أعلم به مني، اللَّهُمَّ اغفر لي خطاياي، وعمدي، وجهلي، وهزلي، وكلُّ ذلك عندي، اللَّهُمَّ اغفر لي ما قدمت وما أخرت، وما أسررت وما أعلنت، أنت المقدم وأنت المؤخر، وأنت على كل شيء قدير**»[٢]،

---

(١) من كلام ابن القيم في «زاد المعاد» (١/ ٣٦).

(٢) البخاري (٦٠٣٥)، ومسلم (٢٧١٩) عن أبي موسى الأشعري.

ويقول: «**والله إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[(١)].

ولقد غفر الله ذنب نبيِّه ﷺ ما تقدم منه وما تأخر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾ [الفتح: ١، ٢]، وقال سبحانه: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح: ٢].

ومذهب جمهور العلماء أن الأنبياء تجوز عليهم الصغائر، فيقع منهم ما سبق به قضاء الله عليهم[(٢)]، ولكنهم يتوبون منها ولا يُقرُّون عليها، ويغفرها الله لهم، وتكون حالهم بعد الذنب خيرًا منها قبله، ولْيعلم أنه ليس كلُّ ذنب يجوز على الأنبياء؛ فإن منها أشياء لا تقع منهم أبدًا لا قبل النبوة ولا بعدها؛ كالكذب، والخيانة، وما يزري بهم، ويُنفِّر عنهم، وإذا كان هذا حال الأنبياء وهم الكُمَّل من البشر، فغيرهم من باب أولى أن يقع منه الذنب، فليكن العبد على خوف دائم من ربه، وأن يراقب الله في جميع أحواله وأفعاله.

قوله تعالى: ﴿وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾؛ أي: واستغفر لجميع المؤمنين والمؤمنات، وهذا يشمل من كان موجودًا منهم في حياته ﷺ، ومن جاء بعده إلى يوم القيامة، فهي بشارة للمؤمنين بعامة وكرامة من الله لهم أن أمر نبيَّه الكريم أن يستغفر لهم؛ فالحمد لله على فضله ونعمته ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مُتَقَلَّبَكُمْ وَمَثْوَىٰكُمْ ۝١٩﴾؛ أي: والله يعلم كلَّ متصرَّف لكم في

---

(١) البخاري (٥٩٤٨) عن أبي هريرة، ومسلم (٢٧٠٢) عن الأغر المزني ﷺ.

(٢) قال شيخ الإسلام ابن تيمية: «القول بأن الأنبياء معصومون من الكبائر دون الصغائر هو قول أكثر علماء الإسلام وجميع الطوائف، حتى إنه قول أكثر أهل الكلام...، وهو أيضًا قول أكثر أهل التفسير والحديث والفقهاء يقولون: إن الأنبياء ليسوا معصومين من الصغائر؛ بل لم ينقل عن السلف والأئمة والصحابة والتابعين وتابعيهم إلا ما يوافق هذا القول» «مجموع الفتاوى» (٤/٤١٨).

النهار، وكلٌّ مستقَر لكم بالليل، لا يخفى عليه شيء من أحوالكم زمانًا ومكانًا، فاتقوه واستغفروه.

الفوائد والأحكام:

١ - الأمر بالعلم بدين الله.

٢ - فضل العلم حتى إنه أُمر به النبي ﷺ، وأُمر بطلب المزيد منه.

٣ - أن العلم طريق العمل، ولذا قدِّم.

٤ - فضل التوحيد، ولذا خُصَّ من بين أصول الإيمان.

٥ - فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَأَنَا ٱخْتَرْتُكَ فَٱسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰٓ ﴿١٣﴾ إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾ [طه: ١٣، ١٤].

٦ - حاجة كل أحد إلى الاستغفار، حتى الأنبياء.

٧ - رحمة الله بالمؤمنين والمؤمنات؛ إذ أمر الله نبيَّه بالاستغفار لهم.

٨ - فضل الإيمان بالله ورسله؛ فإنه سبب مغفرة الذنوب.

٩ - علم الله بأماكن العباد وأعمالهم.

ثم ذكر الله حالًا أخرى من أحوال المنافقين عند تنزيل الشرائع، فقال سبحانه:

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ (٢٠) طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ فَإِذَا عَزَمَ الْأَمْرُ فَلَوْ صَدَقُوا اللَّهَ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ (٢١) فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوا أَرْحَامَكُمْ (٢٢) أُولَئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَى أَبْصَارَهُمْ (٢٣) أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَى قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا (٢٤)﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الإخبار عن فريق من المؤمنين يحسنون الظن بأنفسهم، ويرون أنهم يقدرون على القيام بالشرائع الشاقة، لذا يستعجلون ويطلبون أن تُنَزَّل سورة بذلك، فإذا أنزلت سورة فيها الأمر بالقتال الذي هو أشق المشاق كره ذلك فريق من المنتسبين إلى الإيمان، وهم المنافقون، فصاروا ينظرون إلى الرسول نظر الحائر، تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت، وكان الأولى بهم أن يمتثلوا ما أمروا به، ولا يستعجلوا ما لعلهم لا يقومون به، فإذا جاء الأمر الجازم فلو صدقوا الله بامتثال الأمر لكان خيرًا لهم، ثم لعلهم إذا نكلوا عن القتال وتولوا ألَّا يوفقوا، فيفسدوا في الأرض ويقطعوا الأرحام، وذلك مما يوجب لعنة الله، فتنسد عليهم أبواب الهداية، فلا يسمعون ولا يبصرون، ثم وبَّخهم الله على إعراضهم عن تدبر القرآن، وعلى شدة هذا الإعراض حتى كانت قلوبهم مقفلة عن دخول الهدى إليها.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾؛ أي: آمنوا بالله ورسوله ﴿لَوْلَا نُزِّلَتْ سُورَةٌ﴾ (لولا) حرف تمنٍّ، المعنى: هلا نُزِّلت سورة تأمرنا بالقتال ﴿فَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ مُّحْكَمَةٌ﴾؛ أي: واضحة الدلالة على المراد لا تشابه فيها ولا احتمال ولا يتطرق إليها نسخ ﴿وَذُكِرَ فِيهَا ٱلْقِتَالُ﴾؛ أي: ذُكر فيها الجهاد في سبيل الله مأمورًا به صريحًا امتثل المؤمنون ذلك، وفي مقابل هؤلاء ﴿رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾؛ أي: نفاق ﴿يَنظُرُونَ إِلَيْكَ﴾ أيها الرسول خوفًا من أن تأمرهم بالقتال ولقاء العدو ﴿نَظَرَ ٱلْمَغْشِىِّ عَلَيْهِ مِنَ ٱلْمَوْتِ﴾؛ أي: نظرًا مثلَ نظر المغشي عليه بسبب الموت؛ أي: وهو المحتضَر، وهذا يدل على هلعهم وخوفهم من الجهاد وكراهيتهم له ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ تهديد لهم ووعيد، وهذا اختيار ابن جرير وغيره[1]؛ أي: ويل لهم، ﴿فَأَوْلَىٰ﴾ مبتدأ و﴿لَهُمْ﴾ خبره، وسوَّغ الابتداء به أنه في معنى الدعاء؛ أي: العذاب والهلاك لهم، فهو بمعنى (ويل).

قوله تعالى: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ كلام مستأنف فيه تعليم ونصح للمنافقين، ﴿طَاعَةٌ﴾ مبتدأ، و﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾ معطوف عليه، والخبر محذوف يدل عليه آخر الآية؛ أي: خيرٌ لهم، وجاز الابتداء بالنكرة؛ لأنها في حكم الموصوفة، ويدل عليه قوله: ﴿وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: طاعةٌ خالصةٌ لما نزل من القرآن، وقولٌ حسنٌ منهم بالتسليم والانقياد خيرٌ لهم ثوابًا من نكولهم وكراهتهم لما نزل من القرآن وفيه الأمر بالجهاد.

وذهب طائفة من المفسرين إلى أن قوله: ﴿فَأَوْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٠﴾﴾ من الأولوية، وهو كون الشيء أولى من غيره، فيكون (أَوْلَى) مبتدأ، خبره

(١) «جامع البيان» (٢١/ ٢١١).

قوله: ﴿طَاعَةٌ وَقَوْلٌ مَّعْرُوفٌ﴾؛ أي: أولى لهؤلاء الذين في قلوبهم مرض أن يطيعوا ويقولوا معروفًا.

قوله تعالى: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾؛ أي: جدَّ الأمر، وهو أمر القتال؛ أي: إذا وجب القتال ولزمهم، وجواب (إذا) محذوف؛ أي: كره المنافقون ذلك، ويدل على حذف الجواب قوله: ﴿فَلَوْ صَدَقُوا۟ ٱللَّهَ﴾؛ أي: لو صدقوا الله ما وعدوه قبل نزول السورة بالقتال؛ فإنهم داخلون في جملة الذين تمنوا نزول السورة؛ لأن الوصف بالذين آمنوا يشمل الذين في قلوبهم مرض ﴿لَكَانَ﴾ الصدق بالوعد والوفاء بالجهاد والطاعة والقول المعروف ﴿خَيْرًا لَّهُمْ ﴿٢١﴾﴾.

ثم وجه الله الخطاب إلى المنافقين بطريق الالتفات من الغيبة إلى الخطاب ليكون أبلغ في توبيخهم وزجرهم، فقال سبحانه: ﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ﴾ (عَسَى) حرف يدل على توقع حصول ما بعده؛ أي: فلعلكم إن أعرضتم عن الإيمان والجهاد ﴿أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: بالكفر والمعاصي ﴿وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾؛ أي: بالعقوق والبغي وسفك الدماء، كما كنتم في الجاهلية ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ﴾؛ أي: البُعداء الموصوفون بهذه الصفات ﴿ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ﴾؛ أي: طردهم الله من رحمته؛ فاللعن واقع عليهم من الله فِعلًا وكلامًا ﴿فَأَصَمَّهُمْ﴾؛ أي: أصابهم بالصمم فلا يسمعون الحق سماع إذعان وقبول ﴿وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: فلا يبصرون الهدى.

قوله سبحانه: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ استفهام توبيخ؛ أي: أعَمُوا فلا يتدبرون القرآن؟ أي: يستعملون عقولهم في التفكر في معانيه، فيقرؤونه بفهم وحضور قلب لينتفعوا بما فيه من الحق، ويرتدعوا بما فيه من الزواجر والعظات، كما قال تعالى: ﴿إِنَّآ أَنزَلْنَٰهُ قُرْءَٰنًا عَرَبِيًّا لَّعَلَّكُمْ

﴿تَعۡقِلُونَ﴾ [يوسف: ٢]، وصيغة المضارع ﴿يَتَدَبَّرُونَ﴾ تدل على الحث على معاودة التدبر؛ أي: يتدبرونه مرة إثر مرة ﴿أَمۡ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقۡفَالُهَآ﴾ ﴿أَمۡ﴾ للإضراب الانتقالي، بمعنى (بل)، فهو انتقال من التوبيخ بترك التدبُّر إلى التوبيخ بكون القلوب لا تقبل التفكُّر والتدبُّر في الآيات؛ أي: بل أعلى قلوب أقفالها؟! أي: مغلقة فلا يخلص إليها شيء من معانيه؛ أي: لا يدخل في قلوبهم الإيمان، ولا يخرج منها الكفر والشرك.

وتنكير ﴿قُلُوبٍ﴾ للتبعيض؛ أي: قلوب أولئك الموصوفين بالإعراض عن تدبُّر القرآن، وهم المنافقون، وفي إضافة الأقفال إلى ضمير القلوب، ولم يقل: أم على قلوبهم أقفال ليشير ـ والله أعلم ـ إلى أن لهذه القلوب أقفالًا خاصة بها، مقدرة بقدرها، فلكل قلب قفله الذي يلائمه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الداخلين في الإيمان طوائف متفاوتة في العلم والإيمان والعمل.

٢ ـ أن من آثار الجهل تمني الأوامر الشاقة.

٣ ـ أن نزول الشرائع الشاقة مما يتميز به الصادق من الكاذب.

٤ ـ أن القتال مكروهٌ بالطبع، لذا يَكره الذين في قلوبهم مرض الأمر به.

٥ ـ أن للقلوب أحوالًا تشبه أحوال الأجسام من السلامة والمرض والحياة والموت.

٦ ـ وصف نظر الكارهين للقتال إلى الرسول ﷺ الذي نزلت عليه سورة الأمر بالقتال، بتشبيه نظرهم بنظر المغشي عليه من الموت.

٧ ـ أن من أساليب لغة العرب: إسناد الفعل إلى غير ما هو له؛ لقوله: ﴿فَإِذَا عَزَمَ ٱلْأَمْرُ﴾، ويسمى عند البلاغيين: المجاز العقلي.

٨ ـ تهديد المنافقين على كراهتهم للجهاد.

٩ ـ أن الأولى بالمؤمن المبادرة إلى الطاعة فيما أُمر به، لا أن يطلب شرائع جديدة لعله لا يقدر عليها.

١٠ ـ أن من ثمرات الإيمان الصادق: الوفاءَ بالوعد والطاعةَ عند ورود الأمر الجازم، وفي ذلك الخير للمؤمنين.

١١ ـ أن التولِّي عن الجهاد سبب للخذلان المؤدي إلى الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام.

١٢ ـ أن الإفساد في الأرض وتقطيع الأرحام سبب لحلول لعنة الله وحرمان الهداية.

١٣ ـ أن قطيعة الرحم من كبائر الذنوب.

١٤ ـ أن تدبُّر القرآن من أعظم أسباب الهداية.

١٥ ـ أن من القلوب ما يكون مقفلًا، لا ينفذ إليه هدى، ولا يؤثر فيه وعظ ولا تذكير.

١٦ ـ الرد على القدرية في نفيهم تعلق قدرة الله ومشيئته بالهدى والإضلال.

ولما ذكر الله بعضًا من أوصاف المنافقين الذميمة الظاهرة والباطنة، بيَّن أن ذلك أفضى بهم إلى الردة عن الإسلام، فقال:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى ۙ ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ ۖ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾ فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟ مَآ أَسْخَطَ ٱللَّهَ وَكَرِهُوا۟ رِضْوَٰنَهُۥ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات خبر الله تعالى عن الذين ارتدوا عن الإيمان إلى الكفر بعد تبين الحق لهم، وأن ذلك بتسويل الشيطان لهم وإملائه، وبسبب مُمالأتهم للكارهين ما أنزل الله، ثم يذكر تعالى حالهم عند الموت، وما تفعله الملائكة بهم من ضرب وجوههم وأدبارهم، بسبب اتباعهم لِمَسَاخط الله، وكراهتهم لمراضيه، فأحبط الله أعمالهم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِهِم﴾؛ أي: رجعوا إلى الكفر سرًّا، وهم جماعة المنافقين، والأدبار جمع دُبُر، وهو الخلف والقَفا، والارتداد على الأدبار في الأصل هو الرجوع إلى الوراء، عُبِّر به تَجَوُّزًا عن رجوع المنافقين إلى الكفر، وفيه تقبيح لحالهم، وسمَّاهم القرآن مرتدين؛ لأنهم تلبَّسوا بلباس المؤمنين في الظاهر، ويحتمل أن المراد طائفة من المنافقين دخلوا في الإيمان حقيقة ثم كفروا، كما قال

تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ ثُمَّ كَفَرُوا۟ فَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ﴾ [المنافقون: ٣]، وقال تعالى: ﴿لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ﴾ [التوبة: ٦٦].

قوله تعالى: ﴿مِّنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَى﴾؛ أي: من بعد ما ظهر لهم الحق بالدلائل الواضحة والمعجزات الظاهرة، فلم يكن ارتدادهم لالتباس الأمر عليهم ﴿ٱلشَّيْطَٰنُ سَوَّلَ لَهُمْ﴾ جملة من مبتدأ وخبر، وهي خبر (إِنَّ)، ﴿سَوَّلَ لَهُمْ﴾؛ أي: زيَّن وسهل لهم الكفر بعد الإيمان ﴿وَأَمْلَىٰ لَهُمْ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: مدَّ لهم الشيطان في الأمانيِّ وغرهم وخدعهم بالآمال الكاذبة، كما قال سبحانه: ﴿يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا﴾ [النساء: ١٢٠].

قوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: تسويل الشيطان وإملاؤه ﴿بِأَنَّهُمْ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟ مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ﴾ وهم اليهود والمشركون، قال تعالى في هذه السورة: ﴿وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَتَعْسًا لَّهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٨﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَرِهُوا۟ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٨، ٩]، فكِلَا الفريقين اليهود والمشركون كاره لما أنزل الله، وهو القرآن؛ فالمنافقون قالوا لهؤلاء: ﴿سَنُطِيعُكُمْ فِى بَعْضِ ٱلْأَمْرِ﴾؛ أي: فيما يتعلق بمحمد؛ فلا نؤمن به، ونثبط الناس عن الجهاد معه، وهذا يقوله المنافقون سرًّا لإخوانهم من اليهود والمشركين، فأظهره الله تعالى بدلالة قوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِسْرَارَهُمْ ﴿٢٦﴾﴾ الإسرار مصدر أسرَّ الشيءَ إذا أخفاه عمَّن لا يريد اطلاعه عليه، المعنى: والله يعلم إخفاءهم ما يقولونه من الكيد للإسلام وأهله، كما قال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَكْتُبُ مَا يُبَيِّتُونَ﴾ [النساء: ٨١]، وسيجازيهم عليه في الدنيا والآخرة، ولهذا قال سبحانه: ﴿فَكَيْفَ إِذَا تَوَفَّتْهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ المُوكَّلون بقبض أرواحهم، والاستفهام للتهويل والوعيد ﴿يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَٰرَهُمْ ﴿٢٧﴾﴾ ضربًا متتابعًا إهانةً لهم وإذلالًا، وفي ذلك تهديد

لهم وتخويف بهذه الميتة الفظيعة، وهو من عذاب الدنيا المعجَّل لهم ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: التوفِّي الرهيب على الصورة المذكورة ﴿بِأَنَّهُمُ﴾؛ أي: بسبب أنهم ﴿اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ﴾؛ أي: ما أغضبَ اللهَ من النفاق والكفر، وموالاة أعداء الله ومناوأة أوليائه ﴿وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ﴾؛ أي: أبغضوا العمل الذي يرضي الله ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: أحبط الله أعمالهم التي عملوها مع المؤمنين من الصلاة وغيرها؛ أي: أبطلها وصارت هباءً منثورًا، فلم ينتفعوا منها بشيء؛ لفقدان شرط الصحة، وهو الإيمان، فأفادت الآية: أن اتباع المنافقين ما أسخط الله وكراهتهم رضوانه كان سببًا في الأمرين: ضرب الملائكة وجوههم وأدبارهم عند الوفاة، وإحباط أعمالهم.

▩ الأحكام والفوائد:

١ ـ تقبيح حال المرتدين عن الإيمان من المنافقين.

٢ ـ شناعة الردة بعد البصيرة.

٣ ـ أن منشأ الردة تسويلُ الشيطان وإملاؤه.

٤ ـ أن الهدى والإيمان بيِّنٌ لمن طلبه بصدق.

٥ ـ أن ممالأة الكفار بالطَّاعة سببٌ لتسليط الشيطان وتزيينه للردة عن الإيمان.

٦ ـ التحذير من طاعة الكفار.

٧ ـ تهديد الممالئين للكفار بذكر علم الله بما يُسِرُّونه.

٨ ـ إثبات صفة العلم لله تعالى.

٩ ـ تهديدهم بما ينتظرهم عند الموت، وتهويل ذلك.

١٠ ـ إثبات ملائكة الموت، وأن منهم ملائكة العذاب، وإضافة التوفِّي إليهم.

١١ ـ أن ملائكة الموت يعذبون الكفرة بالضرب لإخراج أرواحهم.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰٓ إِذْ يَتَوَفَّى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَضْرِبُونَ وُجُوهَهُمْ وَأَدْبَـٰرَهُمْ وَذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [الأنفال: ٥٠].

١٣ ـ أن المحتضر يحس بما يلقى من الملائكة من تعذيب.

١٤ ـ الجمع في تعذيب المتوفَّين الكافرين بين العذاب الحسي بضرب الأدبار والوجوه والمعنوي بالتوبيخ.

١٥ ـ أن سبب هذا الشقاء اتِّباعُ ما يسخط الله، وكراهة ما يرضيه.

١٦ ـ إثبات أن الله يسخط ويرضى.

١٧ ـ التحذير مما يسخط الله من الأعمال والأقوال، والترغيب فيما يرضيه.

١٨ ـ إثبات الأسباب في الخير والشر؛ لقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لِلَّذِينَ كَرِهُوا۟﴾، ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمُ ٱتَّبَعُوا۟﴾.

ثم أكَّد توبيخه تعالى للمنافقين وفضح نواياهم، فقال سبحانه:

﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾ وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَـٰكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَـٰهُمْ ۚ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾ وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَـٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّـٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات إنكار الله على المنافقين ظنَّهم الكاذب أن الله لا يظهر نفاقهم وضغائنهم على المسلمين، ثم يخبر تعالى أنه لو شاء لأرى نبيَّه المنافقين حتى يعرفهم بعلاماتهم، ثم أخبر خبرًا مؤكَّدًا بالقسم أن النبي ﷺ سيعرفهم بلحن كلامهم، ثم صار في الكلام التفات من خطاب النبي ﷺ إلى خطاب المؤمنين ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٠﴾﴾ فأخبر تعالى بعلمه بأعمال عباده، وأنه سيبتليهم حتى يظهر المجاهد الصادق الصابر والقاعد المتخلف.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبَ ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾ (أم) هي المنقطعة المقدرة بـ(بل) والهمزة، ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَـٰنَهُمْ ﴿٢٩﴾﴾ (أنْ) هي المخففة من الثقيلة، واسمها ضمير الشأن محذوف، والأضغان جمع ضِغْن، وهو الحقد الشديد، المعنى: بل أحسب هؤلاء المنافقون لضعف عقولهم أن لن يظهر اللهُ أحقادَهم وعداوتَهم للإسلام وأهله؟ أي: فتبقى مستورة، والاستفهام لإنكار هذا الحِسبان وإبطاله؛ فإن الله ﷻ كشف أمرهم لرسوله وللمؤمنين، وأنزل فيهم سورة المنافقين وسورة التوبة التي تسمى الفاضحة؛ لأَنها فضحتهم وكشفت نفاقهم.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ الخطاب للرسول ﷺ، والرؤية علمية؛ أي: لو نشاء تعريفك المنافقين لعرَّفناكهم، ويحتمل أن تكون الرؤية بصرية، وهو أظهر؛ لذكر السِّيما التي يتعلق بها البصر واللام في ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ واقعة في جواب لو ﴿فَلَعَرَفْتَهُم بِسِيمَٰهُمْ﴾؛ أي: بعلامات ظاهرة فيهم، والفاء للعطف، واللام توكيد للام في جواب ﴿لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾؛ أي: عرَّفناكهم تعريفًا يترتب عليه معرفتك إياهم بأعيانهم؛ لأنه ليس كلُّ تعريف يستلزم أن تترتب عليه المعرفة، ألا ترى أنه يقال: عرَّفته كذا فلم يعرفه؟ أما تعريف الله فهو مستلزم للمعرفة.

والظاهر أن الرسول ﷺ كان عليمًا بطوائف من المنافقين لا جميعهم، كما قال تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ﴾ [التوبة: ١٠١].

قوله سبحانه: ﴿فَلَعَرَفْتَهُم﴾ الواو للعطف، واللام واقعة في جواب قسم مقدَّر؛ أي: واللهِ لتعرفنهم ـ أيها الرسول ـ ﴿فِى لَحْنِ ٱلْقَوْلِ﴾؛ أي: بسبب لحن القول الصادر منهم، ولحن القول هو الكناية بالكلام؛ أي: إمالته عن معناه الظاهر إلى معنى آخر متفق عليه بينهم، وهذا اللحن يدل على فساد باطنهم.

فتضمنت الآية أن معرفة المنافقين نوعان:

الأول: معرفتهم بسيماهم التي ترى على الوجوه، فتلك معلَّقة على مشيئة الله، والظاهر أن الله أَطْلع رسولَه ﷺ على بعض هؤلاء، وعرَّفه إياهم بسيماهم، ومنهم الذين كان النبي ﷺ يُسر بهم إلى حذيفة بن اليمان رضي الله عنه.

الثاني: معرفة محققة، وهي ما تحصل بلحن القول، وهذا مقسَم عليه محقَّق لا شرط فيه.

وفي إخفاء بعض المنافقين على النبي ﷺ حِكَم يذكرها المفسرون، منها: الستر عليهم؛ لعلهم يتوبون، والرأفة بأقاربهم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ أَعۡمَٰلَكُمۡ ۝٣٠﴾ خطاب عام لجميع المكلفين، فيه وعيد للمنافقين، ووعد للمؤمنين؛ أي: والله يعلم ما يصدر منكم من خير أو شر، قولًا أو فعلًا، وسيجازيكم عليه، وصيغة المضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ للدلالة على استمرار علمه تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَلَنَبۡلُوَنَّكُمۡ﴾؛ أي: ولنختبرنكم ـ أيها المؤمنون ـ بفرض الجهاد وغيره من التكاليف الشرعية ﴿حَتَّىٰ نَعۡلَمَ ٱلۡمُجَٰهِدِينَ مِنكُمۡ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾ حتى تعليلية؛ أي: لأجل أن نعلم ـ علم ظهور ووجود ـ المجاهد في سبيل الله والصابر، ونعلم المنافق والناكص على عقبيه، وعلم الظهور والوجود هو الذي تقوم به الحجة، ويترتب عليه الجزاء، أما علم الله السابق الأزلي بالأشياء قبل كونها فلا يترتب عليه جزاء ﴿وَنَبۡلُوَاْ أَخۡبَارَكُمۡ ۝٣١﴾؛ أي: ونختبر أعمالكم، فيظهر الحسَن منها والقبيح.

▩ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن القلوب تمرض كما تمرض الأجسام.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضٗاۖ﴾ [البقرة: ١٠].

٣ ـ ظنُّ المنافقين أن الله لا يكشف أسرارهم.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ﴾ [التوبة: ٦٤].

٥ ـ أن في قلوب المنافقين أضغانًا على الرسول ﷺ وعلى المؤمنين.

٦ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٧ ـ أن للمنافقين سِماتٍ يعرفون بها.

٨ ـ أن الله قد يظهر لرسوله ﷺ وللمؤمنين سمات المنافقين فيعرفونهم بها.

٩ ـ أن ما في القلوب من إيمان ونفاق يظهر الله آثاره على صفحات وجوه أصحابها.

١٠ ـ أن مما يُعرف به المنافقون لحنَ الكلام.

١١ ـ علم الله بأعمال العباد.

١٢ ـ الوعد من الله بابتلاء عباده.

١٣ ـ أن علم الله المترتب على الابتلاء هو علمه بالشيء ظاهرًا موجودًا.

١٤ ـ الحكمة من الابتلاء، وهي علمُه تعالى بالمجاهدين والصابرين موجودِين مجاهدين.

١٥ ـ إثبات علم الله الحضوري، وهو علمه بالشيء موجودًا حاضرًا، لقوله: ﴿حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ﴾، وهذا العلم هو الغاية من ابتلاء الله للعباد، كما قال تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [البقرة: ١٤٣]، وقال سبحانه: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، وقال: ﴿وَلَقَدْ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۖ فَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [العنكبوت: ٣].

١٦ ـ أن من حكمة ابتلاء العباد إظهارَ أعمالهم.

١٧ ـ فضيلة الجهاد والصبر.

١٨ ـ الوعد والوعيد في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾.

١٩ ـ ذكره تعالى نفسه بصيغة الإفراد في قوله: ﴿أَن لَّن يُخْرِجَ ٱللَّهُ أَضْغَٰنَهُمْ ۝٢٩﴾ وقوله: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ أَعْمَٰلَكُمْ ۝٣٠﴾، وبصيغة الجمع الدالة على التعظيم في قوله: ﴿وَلَوْ نَشَآءُ لَأَرَيْنَٰكَهُمْ﴾ وقوله: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ﴾ وقوله: ﴿وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ۝٣١﴾.

قال الله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا وَسَيُحْبِطُ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾ فَلَا تَهِنُواْ وَتَدْعُوٓاْ إِلَى ٱلسَّلْمِ وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ وَٱللَّهُ مَعَكُمْ وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر من الله تعالى عن الذين كفروا بالله وصدوا عن سبيله وشاقُّوا رسوله أنهم لن يضروا الله شيئًا؛ لأنه تعالى غنيٌّ عن جميع خلقه، وإنما يضر الكافرون أنفسهم بما يعرضونها له من عقاب الله، ثم أمر الله عباده المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله ﷺ، ونهاهم عن إبطال أعمالهم بأيِّ سبب من الأسباب المبطلة للأعمال، ثم أخبر تعالى عن الكفار الذين ماتوا على كفرهم أنه تعالى لا يغفر لهم، ثم نهى الله عباده المؤمنين عن الوهن والدعوة إلى السَّلم مع أنهم الأعلون، والله معهم، ولن ينقص أعمالهم؛ بل يوفيهم أجورهم موفورة.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾؛ أي: كفروا بالله ورسوله ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: وصدوا غيرهم عن دين الله ﴿وَشَآقُّواْ ٱلرَّسُولَ﴾؛ أي: عادَوه لأجل دينه ورسالته وحاربوه، وأصل المشاقَّة أن يكون الإنسان في شقٍّ ومخالفه في شق آخر ﴿مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُمُ ٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: من بعد ما تبيَّن لهم الحق، وهو صدق الرسول ﷺ، وأن ما جاء به هو الحق من

عند الله؛ أي: ظهر لهم غاية الظهور بالأدلة القاطعة، والآيات الناصعة، وصيغة التفعُّل (التبيُّن) تدل على قوة حصول الشيء ﴿لَن يَضُرُّواْ ٱللَّهَ شَيْـًٔا﴾ ﴿شَيْـًٔا﴾ نائبٌ عن مفعول مطلق، وهو نكرة في سياق النفي، فتفيد العموم؛ أي: لن يضروا الله أيَّ شيءٍ من الضرر، لا قليلًا ولا كثيرًا، وإنما يضرون أنفسهم؛ لأن الله هو القوي العزيز، ولا يعجزه شيء في الأرض ولا في السماء، لا رادَّ لأمره، ولا معقب لحكمه ﴿وَسَيُحْبِطُ أَعْمَـٰلَهُمْ ﴿٣٢﴾﴾؛ أي: أعمالهم التي عملوها في الدنيا من إكرام الضيف، وإغاثة الملهوف، فلا ينتفعون بها في الآخرة، وأعمالهم التي يكيدون بها للإسلام وأهله، ويصدون بها عن سبيل الله، وهذا تهديد لهم، وثَمَّ تناسب بين هذه الآية وقوله تعالى في أول السورة: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ١] وقوله: ﴿فَأَحْبَطَ أَعْمَـٰلَهُمْ﴾ [محمد: ٩].

ولما أخبر عن الكفار ومشاقتهم لله ورسوله وأنه سيحبط أعمالهم، أمر عموم المؤمنين بطاعته وطاعة رسوله؛ فقال سبحانه: ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ الطاعة التامة بامتثال الأوامر وترك المنهيات، وإعادة الفعل في ﴿وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ﴾ للدلالة على وجوب طاعة الرسول مطلقًا، ولبيان أن طاعة الرسول طاعة لله كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠]، ﴿وَلَا تُبْطِلُوٓاْ أَعْمَـٰلَكُمْ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: ولا تبطلوا ثواب أعمالكم بأيِّ سبب من الأسباب؛ كالكفر والرياء والمنِّ والأذى، فكلٌّ من هذه الأحوال محبط للأعمال، وأعظمها الكفر، وهو الردة عن الإسلام، ولهذا قال سبحانه:

﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ مَاتُواْ وَهُمْ كُفَّارٌ﴾؛ أي: ماتوا على الكفر ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: لن يغفر الله لهم في الآخرة؛ لِتَعَذُّرِ أسباب المغفرة عليهم، وهذا بإجماع المسلمين، ولهذا قال ﷺ:

«حيثما مررت بقبر مشرك فبشِّره بالنار»[(١)]، ومفهوم الآية: أنهم إذا تابوا قبل الموت غفر لهم، كما قال تعالى: ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغْفَرْ لَهُم مَّا قَدْ سَلَفَ﴾ [الأنفال: ٣٨]، ومن مات على الإسلام فإنه ترجى له مغفرة ذنوبه؛ لقوله تعالى: ﴿وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُ﴾ [النساء: ٤٨ أو ١١٦].

وجملة ﴿فَلَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ﴿٣٤﴾﴾ هي خبر (إن)، وزيدت الفاء في الخبر لِتَضَمُّن اسم (إن) ـ وهو الاسم الموصول ـ معنى الشرط.

قوله تعالى: ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾ الفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر؛ أي: إذا تبيَّن أن الله مبطلٌ أعمال الكافرين ومعاقبهم فهو خاذلهم ومحبطٌ كيدهم ﴿فَلَا تَهِنُواْ﴾؛ أي: فلا تضعفوا عن مقاتلتهم، و(وَهَن) من باب (وعَد) ﴿وَتَدْعُوٓاْ﴾ أعداءكم ﴿إِلَى ٱلسَّلْمِ﴾؛ أي: المسالمة، وهي: الصلح والهدنة، وقرأ حمزة وشعبة (السِّلْم)، والمعنى واحد ﴿وَأَنتُمُ ٱلْأَعْلَوْنَ﴾؛ أي: والحال أنكم العالون عليهم، والقاهرون لهم.

وهذا النهي عن المصالحة والهدنة محمول على ما إذا لم تكن بالمسلمين حاجة إليها، كأن يكونوا قلة، أو لا سلاح بأيديهم، فيجوز حينئذ الجنوح إلى السلم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن جَنَحُواْ لِلسَّلْمِ فَٱجْنَحْ لَهَا﴾ [الأنفال: ٦١]، وإذا وقعت الهدنة فيجب تقييدها بأمد معلوم، كما صالح النبي ﷺ قريشًا في الحديبية عشر سنين، أو تكون الهدنة مطلقة، وعند اقتضاء المصلحة للقتال فيجب نبذ العهد إلى العدو على سواء، ولا يجوز أن تكون الهدنة دائمة؛ لأنه يؤدي إلى ترك الجهاد، وهو حرام.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ مَعَكُمْ﴾؛ أي: بالتأييد والإعانة عليهم، وهذا فيه بشارة عظيمة للمؤمنين بانتصارهم على أعدائهم ﴿وَلَن يَتِرَكُمْ أَعْمَٰلَكُمْ ﴿٣٥﴾﴾

---

(١) رواه ابن ماجه (١٥٣٧) عن ابن عمر. قال البوصيري في «مصباح الزجاجة» (٢/ ٤٣): «إسناده صحيح».

وتَر يتِر بمعنى نقَص، من باب (وعَد)؛ أي: ولن ينقصَكم اللهُ أجورَ أعمالكم؛ بل يضاعفها لكم بمقتضى وعده تعالى.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تحقير الكافرين وتسفيه عقولهم بارتكابهم ما يضرهم.

٢ ـ أن الله تعالى غنيٌّ عن عباده، لا يضره كفر الكافرين، ومعصية العاصين.

٣ ـ ارتكاب الكفار لأظلم الظلم في حق الناس، وهو صدهم عن دين الله.

٤ ـ توعُّد الله الكفار بإحباط أعمالهم.

٥ ـ وجوب طاعة الله ورسوله ﷺ.

٦ ـ تحريم التسبُّب بإبطال الأعمال.

٧ ـ أن من مات على الكفر فلن يغفر الله له.

٨ ـ النهي عن الوهن في قتال الكفار بالدعوة إلى السَّلم.

٩ ـ نهي المسلمين عن دعوة الكفار إلى السَّلم مع أنهم أعلى منهم عددًا وعُدَّة، وهم أعلى عند الله تعالى، والله ناصرهم.

١٠ ـ تحريم الدعوة إلى المصالحة مع الكفار إلا عند العجز عن قتالهم.

١١ ـ جواز مصالحة الكفار عند العجز أو لمصلحة راجحة.

١٢ ـ إثبات المعية الخاصة بالمؤمنين.

١٣ ـ أن الله لا ينقص العاملين من عملهم شيئًا.

ولما نهى الله عباده المؤمنين عن الضعف والجبن في جهاد عدوهم بيَّن حقيقة الدنيا وحقَّرها في أعينهم؛ لأنها سبب الوهن والقعود عن الجهاد في الغالب، فقال سبحانه:

﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ وَلَا يَسْـَٔلْكُمْ أَمْوَٰلَكُمْ ﴿٣٦﴾ إِن يَسْـَٔلْكُمُوهَا فَيُحْفِكُمْ تَبْخَلُوا۟ وَيُخْرِجْ أَضْغَٰنَكُمْ ﴿٣٧﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ ۖ وَمَن يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ ۚ وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ ۚ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات بيان الله لعباده المؤمنين حقيقة الدنيا؛ تزهيدًا لهم فيها، وترغيبًا لهم فيما فيه فلاحهم من الإيمان والتقوى، ويعدهم على ذلك الأجور، ويبين لطفه بهم؛ إذ لم يكلِّفهم ما يشق على نفوسهم كسؤالهم الخروج عن أموالهم، وأن ذلك لو كان لما قاموا به، ولأخرج ذلك ما طُبعت عليه النفوس من البخل وحب المال، ثم يذكر تعالى برهانًا على هذه الحقيقة، وهو أنهم قد دُعوا للإنفاق في سبيل الله، فكان منهم من يبخل مع ما يعلمه من فضل الجهاد في سبيل الله، ويبين تعالى أن من يبخل فقد بخل على نفسه؛ إذ لم يعرِّضها للأجر العظيم، ويؤكد الله ذلك بأنه الغني، وهم الفقراء، فما أمرهم بالإنفاق إلا لنفع أنفسهم، ثم توعَّد من يتولَّى عن الجهاد والإنفاق فيه بأن يذهب به ويأتي بقوم آخرين خير منهم، يجاهدون في سبيل الله، وينفقون الأموال طاعة لله.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ﴾ هذا أسلوب قصر، وهو من مؤكدات الكلام؛ أي: ما الحياة الدنيا إلا لعب ولهو، واللعب هو: الباطل الذي لا فائدة له، وهو أخص بالأعمال الظاهرة، واللهو: ما يُلهي عن عزائم الأمور، وهو أخص بأعمال القلوب؛ كما قال تعالى: ﴿لَاهِيَةً قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنبياء: ٣]؛ فالمعنى: أن الحياة الدنيا تافهة فانية، لا اعتداد بها، ولا ثبات لها؛ كاللعب واللهو الذي يَتَلهَّى به الأطفال، وسرعان ما ينقضي ويزول، والآخرة خير وأبقى، فكيف يؤثر العاقلُ ما يفنى على ما يبقى؟! وتشير الآية إلى وجوب استثمار الحياة الدنيا في طاعة الله، فإن لم تعمر بذلك كانت ضررًا ووبالًا على أهلها.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: إن تؤمنوا بالله ورسوله ﴿وَتَتَّقُوا﴾؛ أي: بفعل الأوامر وترك المناهي، وعطف التقوى على الإيمان من عطف الخاص على العام ﴿يُؤْتِكُمْ أُجُورَكُمْ﴾ جواب الشرط؛ أي: يعطكم الله ثواب أعمالكم موفورًا ﴿وَلَا يَسْأَلْكُمْ أَمْوَالَكُمْ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: ولا يطلب منكم أموالكم جميعها، وهذا من لطفه تعالى بعباده، فإن المطلوب منكم بعض المال فيخرج إما في زكاة مفروضة، وهو مال قليل، أو نفقة في الجهاد في سبيل الله، والله غنيٌّ عنكم لا يزداد ملكه بهذا الذي تخرجونه، وإنما يعود عليكم نفعه في الدنيا والآخرة.

قوله تعالى: ﴿إِن يَسْأَلْكُمُوهَا﴾، ﴿إِن﴾ حرف شرط ﴿يَسْأَلْكُمُوهَا﴾ فعل الشرط ﴿فَيُحْفِكُمْ﴾ معطوف على فعل الشرط، والإحفاء كالإلحاح، وهو المبالغة في طلب الشيء ﴿تَبْخَلُوا﴾ جواب الشرط مجزوم بحذف النون؛ أي: إن يسألْكم اللهُ جميعَ أموالكم فيُلحَّ في طلبها تبخلوا بها فلا تنفقوا

منها شيئًا ﴿وَيُخْرِجْ أَضْغَانَكُمْ ﴿٣٧﴾﴾؛ أي: ويخرج الله ما في قلوبكم من البخل وكراهة الإنفاق.

قوله تعالى: ﴿هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تُدْعَوْنَ﴾ ﴿هَٰٓأَنتُمْ﴾ الهاء للتنبيه، و(أَنْتُمْ) مبتدأ، وخبره جملة ﴿تُدْعَوْنَ﴾، و﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ منادى معترض بين المبتدأ والخبر، والهاء في ﴿هَٰٓؤُلَآءِ﴾ للتنبيه، وتكرارها للتوكيد؛ أي: ها أنتم ـ يا معشر المؤمنين ـ ﴿تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: لإعلاء كلمة الله بالجهاد، وقتال أعداء الله ﴿فَمِنكُم مَّن يَبْخَلُ﴾؛ أي: فمنكم من يشح بالمال ﴿وَمَن يَبْخَلْ﴾ بالمال ﴿فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَن نَّفْسِهِۦ﴾؛ أي: يمنع الثواب عن نفسه، ومن المؤمنين من لا يبخل البتة، فأبو بكر رضي الله عنه خرج من جميع ماله لله ورسوله ﷺ، وكان ذا مال كثير، وأنفق عثمان رضي الله عنه ألف دينار وثلاثمئة بعير بعدتها وأحلاسها وأقتابها في غزوة تبوك.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ ٱلْغَنِىُّ﴾؛ أي: هو الغني وحده، فله سبحانه الغِنى المطلق من كل وجه، وهو مُستغن عن عباده، وهم محتاجون إليه في كل وقت وفي جميع أمورهم، ولهذا قال: ﴿وَأَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ﴾؛ أي: الفقراء إليه تعالى وإلى ثوابه، ثم هدَّدهم فقال سبحانه: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا۟﴾؛ أي: إن تُعرضوا عن أمره وطاعته ﴿يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾؛ أي: يُهلكُم ويأت بقوم آخرين خير منكم ﴿ثُمَّ لَا يَكُونُوٓا۟ أَمْثَٰلَكُم ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: لا يكونوا أمثالكم في التولي والإعراض والبخل؛ بل يطيعونه ولا يعصونه تعالى، وتدل ﴿ثُمَّ﴾ هنا على التراخي الزمني فيما بين الجِيلَيْن؛ كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، وقيل: للتراخي الرُّتْبي؛ أي: لبُعْد منزلة الجيل البدل.

ﷺ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن حقيقة الحياة الدنيا من الباطل الذي لا نفع فيه.

٢ ـ ذمُّ اللعب واللهو الذي تضيع به الأعمار، ولا ينفع في دار القرار.

٣ ـ ضمان الله الأجور لأهل الإيمان والتقوى.

٤ ـ التزهيد في الدنيا والترغيب في زاد الآخرة.

٥ ـ أن من آمن واتقى فقد أدَّى ما عليه، ولا يُسأل عمَّا سواه.

٦ ـ أن العباد لو كلِّفوا الخروج من أموالهم لبخلوا.

٧ ـ أن سؤال الناس أموالهم مما يشق عليهم؛ لحبهم للمال.

٨ ـ أن سؤال الناس الأموال مما يُخرِج ما في نفوسهم من طبع الشح والبخل.

٩ ـ أن بذل المال في وجوه البر برهان على البراءة من الشح وصدق الإيمان، كما في الحديث: «**والصدقة برهان**»[(١)].

١٠ ـ ذكر دليل على الحكم من الواقع.

١١ ـ إثبات علم الله بمكنونات القلوب وطبائع النفوس.

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مَّنْ عَمِلَ صَٰلِحًا فَلِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَسَآءَ فَعَلَيْهَا ۗ﴾ [فصلت: ٤٦]، ولقوله: ﴿وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [المزمل: ٢٠].

١٣ ـ أن دعوة الله بالإنفاق لنفع العباد لا لحاجته إليهم.

١٤ ـ التنبيه على الإخلاص في الجهاد والإنفاق؛ لقوله: ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

---

(١) رواه مسلم (٢٢٣) عن أبي مالك الأشعري.

١٥ ـ أن من أسماء الله الغني، فهو الغني، ومن صفته الغِنى.

١٦ ـ إثبات فقر العباد إلى الله فقرًا ذاتيًّا، وهو تعالى الغنيُّ غنى ذاتيًّا.

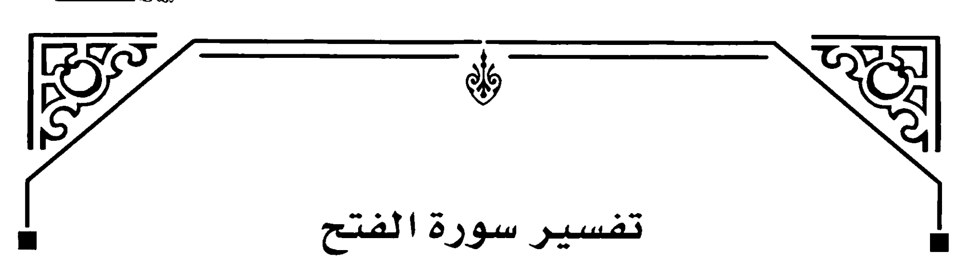
١٧ ـ تهديد المعرضين عن الجهاد والإنفاق فيه بأن يُستبدلوا بخير منهم.

١٨ ـ يسر الخلق وتبديل الأجيال على الله تعالى.

١٩ ـ أن قيام الدين لا يرتبط بشخص ولا جيل، وإنما ذلك إلى الله وحده.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَن يَرۡتَدَّ مِنكُمۡ عَن دِينِهِۦ فَسَوۡفَ يَأۡتِي ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ يُحِبُّهُمۡ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ الآية [المائدة: ٥٤].





تفسير سورة الفتح

هذه السورة مدنية، وعدد آياتها تسع وعشرون آية، وجمهور المفسرين على أنها نزلت على رسول الله ﷺ بين مكة والمدينة، منصرَفه من الحديبية في ذي القَعدة من سنة ست من الهجرة، لما صدَّه المشركون عن المسجد الحرام، ثم مالوا إلى الصُّلح والهُدنة، وأن يرجع عامه هذا، ثم يعود من قابل.

ويؤيد ذلك ما جاء في «الصحيحين» وغيرهما عن سهل بن حنيف رضي الله عنه قال: أيها الناس؛ اتهموا أنفسكم؛ فإنا كنا مع رسول الله ﷺ يوم الحديبية، ولو نرى قتالًا لقاتلنا، فجاء عمر بن الخطاب فقال: يا رسول الله؛ ألسنا على الحق وهم على الباطل؟ فقال «**بلى**»، فقال: أليس قتلانا في الجنة وقتلاهم في النار؟ قال: «**بلى**» قال: فعلام نعطِي الدَّنِيَّة في ديننا؟ أنرجع ولما يحكم الله بيننا وبينهم؟ فقال: «**يا ابن الخطاب؛ إني رسول الله، ولن يضيعني الله أبدًا**».

فانطلق عمر إلى أبي بكر فقال له مثل ما قال للنبي ﷺ، فقال: إنه رسول الله، ولن يضيعه الله أبدًا، فنزلت سورة الفتح، فقرأها رسول الله ﷺ على عمر إلى آخرها فقال عمر: يا رسول الله أوَ فتح هو؟ قال: «**نعم**»[١].

---

(١) البخاري (٣٠١١)، ومسلم (١٧٨٥).

وفي «الصحيحين» أن الرسول ﷺ استبشر بنزول هذه السورة، فقال: «**لقد أنزلت عليَّ الليلة سورة لهي أحبُّ إليَّ مما طلعت عليه الشمس**»، ثم قرأ: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾[1]، هذا لفظ البخاري، وعند مسلم: قال أنس: لما نزلت: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ إلى قوله: ﴿فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [١ ـ ٥] مرجعَه من الحديبية، وهم يخالطهم الحزن والكآبة، وقد نحر الهدي بالحديبية، فقال ﷺ: «**لقد أنزلت علي آية هي أحب إلي من الدنيا جميعًا**»[2].

افتتحت السورة بامتنان الله على نبيِّه ﷺ بما أنعم عليه من الفتح المبين؛ الذي من غاياته وعواقبه مغفرة الذنوب، وتمام النعمة، والهداية، والنصر، وإنزال السكينة على قلوب المؤمنين؛ ليزدادوا إيمانًا مع إيمانهم، ثم أثنى تعالى على نفسه بعموم الملك والعلم والحكمة مما هو من أسباب هذا الفتح.

ثم بيَّن تعالى أن من غايات هذا الفتح أن يُدخل المؤمنين الجنات، ويكفِّر عنهم السيئات، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، ثم أكَّد تعالى ثناءه على نفسه بالعلم والعزة والحكمة، مما يدل عليه هذا الفتح المبين، ثم امتن تعالى ـ ثانيًا ـ على رسوله ﷺ بإرساله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، مع بيان حكمة هذا الإرسال.

ثم شرع تعالى في ذكر تفصيل قصة الفتح فذكر البيعة، وما سيقوله الأعراب في اعتذارهم عن التخلف عن الخروج، وما سيقولونه إذا مُنعوا من الخروج إلى غزوة خيبر، وما يقال لهم، ثم أخبر تعالى عمَّا أعدَّ لمن أطاعه ورسوله ﷺ، وما أعدَّ لمن تولَّى عن ذلك.

---

(١) البخاري (٣٩٤٣).

(٢) مسلم (١٧٨٦).

ثم أخبر تعالى خبرًا فيه بشارة لأصحاب الرسول ﷺ حين بايعوه تحت الشجرة؛ فأخبر برضاه عنهم وعلمه بما في قلوبهم من صدق الإيمان والطاعة، فأنزل السكينة عليهم، وأثابهم فتحًا قريبًا ومغانم كثيرة.

ثم امتنَّ عليهم بمغانم يأخذونها في المستقبل معجَّلة ومؤجَّلة، وردَّ ذلك إلى قدرته سبحانه، ثم أخبر تعالى عن حال الكفار؛ أنهم لو قاتلوا المؤمنين لجرت عليهم سُنَّة الله من هزيمة الكافرين، ونصر المؤمنين عليهم.

ثم امتنَّ الله على المؤمنين بعدم القتال، وكفِّ بعضهم عن بعض، ثم ذكر بعض قبائح قريش من أهل مكة من الكفر بالله، والصدِّ عن سبيله، وصدِّ المؤمنين عن بيته، ومنع الهدي أن يبلغ مَحِلَّه، ثم ذكر بعض حِكَمه تعالى في عدم القتال، وهي وقاية مَن في مكة من المؤمنين والمؤمنات أن يصيبهم المؤمنون وهم لا يعلمون، فلو تَميَّزوا لعذب الله الذين كفروا بتسليط المؤمنين عليهم.

ثم أخبر سبحانه بما منَّ على نبيِّه ﷺ والمؤمنين من إنزال السكينة وإلزامهم كلمة التقوى التي هم أحق بها وأهلُها بصدقه تعالى رسوله الرؤيا التي رآها في أصحابه داخلين المسجد الحرام محلِّقين ومقصِّرين، ثم خُتمت السورة بما منَّ الله به على عباده من إرسال محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، وأخبر عن صفات أصحابه في التوراة والإنجيل، ووعده إياهم مغفرة الذنوب والأجر العظيم.

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١ لِّيَغْفِرَ لَكَ اللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكَ وَيَهْدِيَكَ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢ وَيَنصُرَكَ اللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣ هُوَ الَّذِي أَنزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَّعَ إِيمَانِهِمْ ۗ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ۝٤ لِّيُدْخِلَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عِندَ اللَّهِ فَوْزًا عَظِيمًا ۝٥ وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ ۚ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ ۖ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ۝٦ وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ۝٧﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات التنويه بالفتح المبين الذي فتح الله لنبيِّه ﷺ، وما في ذلك من الحِكم والنِّعم، من المغفرة وتمام النعمة والهداية والنصر، وإنزال السكينة في قلوب المؤمنين، كما تضمَّنت الإخبار عن ملكه تعالى لجنود السماوات والأرض مع كمال العلم والحكمة، وبيانَ أن من حكمة هذا الفتح أن يُدخل المؤمنين والمؤمنات الجنات، ويعذب المنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات، وكلُّ هذا موجَب عزته تعالى وعلمه وحكمته.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ الخطاب للرسول ﷺ، وفيه بشارة عظيمة له؛ أي: إنا قضينا لك وحكمنا حكمًا بيِّنًا ظاهرًا بنصرك على عدوك وظهور دينك، وذلك بما وقع من صلح الحُديبية مع

قريش على وضع الحرب عشر سنين، وعلى شروط أخرى آلت في نهايتها إلى صالح المسلمين؛ فالفتح المبين هو صلح الحديبية.

والحُدَيبية قرية صغيرة كانت على مسيرة يوم من مكة، بعضها في الحل وبعضها في الحرم، سميت باسم بئر فيها، ولقد أمِن الناس بعضهم بعضًا بهذا الصلح، وصار للإسلام شوكة وذكر في جزيرة العرب، فعظمت الدعوة إلى دين الله، ودخل الناس بعد ذلك في دين الله أفواجًا، وكان هذا الفتح مؤذنًا بفتح مكة وبالنصر القريب، قال الشعبي: ﴿إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ۝١﴾ صلح الحديبية، وغفر للنبي ﷺ ما تقدم وما تأخر، وتبايعوا بيعة الرضوان، وأطعموا نخيل خيبر، وظهرت الروم على فارس، وفرح المسلمون بنصر الله[1].

قوله تعالى: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ مَا تَقَدَّمَ مِن ذَنۢبِكَ وَمَا تَأَخَّرَ﴾؛ أي: فتحنا لك ليغفر لك الله ما تقدم قبل هذا الفتح من ذنبك وما تأخر بعده ﴿وَيُتِمَّ نِعْمَتَهُۥ عَلَيْكَ﴾ (نعمة) مفرد مضاف فيفيد العموم؛ أي: يتم جميع نعمه التي أنعم بها عليك في الدنيا بالرسالة، وارتفاع ذكرك، وبانتشار دينك، وانتصار أصحابك، وفي الآخرة بالشفاعة العظمى، ورفع الدرجات، ونيل منزلة الوسيلة ﴿وَيَهْدِيَكَ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢﴾؛ أي: ويرشدك إلى الصراط المستقيم الذي لا اعوجاج فيه، ويوصل إلى الجنة، وهو دين الإسلام ﴿وَيَنصُرَكَ ٱللَّهُ نَصْرًا عَزِيزًا ۝٣﴾؛ أي: وينصرك الله على أعدائك نصرًا قويًّا غالبًا.

فهذه الأمور الأربعة وهي: المغفرة، وإتمام النعمة، وهداية الصراط المستقيم، والنصر العزيز، هي الحكمة من هذا الفتح، فاللام في قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ للتعليل، وما دخلت عليه هو العلة الغائية ـ أي: الحكمة ـ، وهي مغفرة الذنوب وإتمام النعمة والهداية والنصر.

---

(١) رواه سعيد بن منصور في سننه، وإسناده صحيح، قاله الحافظ في الفتح (٧/ ٤٤٢).

قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ أي: الله ﷻ ﴿ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ ٱلسَّكِينَةَ فِى قُلُوبِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: جعل الطمأنينة والثبات يوم الحديبية في قلوب المؤمنين من الصحابة؛ ليطمئنوا بما وقع من الصلح ﴿لِيَزْدَادُوٓا۟ إِيمَـٰنًا مَّعَ إِيمَـٰنِهِمْ﴾؛ أي: لكي يزدادوا يقينًا مع يقينهم ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: ولله وحده جميع جنود السماوات والأرض من الملائكة وغيرهم، وبيده تعالى أمرهم، وله تعالى الملك والسلطان والغلبة، ولو شاء لأهلك قريشا ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا﴾؛ أي: ذا علم واسع بأحوال العباد وبكل شيء ﴿حَكِيمًا ۝٤﴾؛ أي: ذا حكمة عظيمة في تقديره وتدبيره وصنعه وشرعه، و(كان) في مثل هذا الأسلوب مسلوبة الدلالة على الزمان الماضي، والمراد بها دوام اتصاف اسمها بخبرها؛ أي: أنه تعالى موصوف بالعلم والحكمة أزلًا وأبدًا.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ﴾ جملة معطوفة على قوله: ﴿لِّيَغْفِرَ لَكَ ٱللَّهُ﴾ بتقدير الواو؛ أي: فتحنا لك ليغفر لك الله وليدخل المؤمنين والمؤمنين جنات، وحذف الواو معروف، ومنه قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ خَـٰشِعَةٌ﴾ [الغاشية: ٢]، ثم قال بعد آيات: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَّاعِمَةٌ﴾ [الغاشية: ٨]؛ أي: ووجوه، وقوله: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [الأعراف: ١٦١]؛ أي: وسنزيد، بدليل قوله في الآية الأخرى: ﴿نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطَـٰيَـٰكُمْ وَسَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [البقرة: ٥٨].

المعنى: فتحنا لك فتحًا مبينًا ليُدخل الله المؤمنين والمؤمنات، فإنهم بهذا الفتح يشكرون نعمة الله عليهم، ويتمكنون من فعل الصالحات وما يكفر السيئات ﴿جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ أي: تجري من تحت أشجارها وقصورها الأنهار ﴿خَـٰلِدِينَ فِيهَا﴾ وهذا من تمام النعيم والأنس، أنهم خالدون في الجنات، وما هم منها بمخرجين ﴿وَيُكَفِّرَ عَنْهُمْ

﴿سَيِّـَٔاتِهِمْۚ﴾؛ أي: يمحوها عنهم ويسترها عليهم، وقدم دخول الجنات؛ لأنه الغاية الكبرى للعاملين ﴿وَكَانَ ذَٰلِكَ﴾ الجزاء من الإدخال والتكفير ﴿عِندَ ٱللَّهِ فَوۡزًا عَظِيمٗا ۝٥﴾؛ أي: بالغ العظم لا يماثله فوز، و﴿عِندَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في حكمه تعالى وعلمه، فما بعد نعيم الجنة من نعيم إلا النظر إلى الله تعالى.

وفي «صحيح البخاري» أن الصحابة ﷺ لما نزل قوله: ﴿إِنَّا فَتَحۡنَا لَكَ فَتۡحٗا مُّبِينٗا ۝١﴾ قالوا للنبي ﷺ: هنيئًا مريئًا، فما لنا؟ فأنزل الله: ﴿لِّيُدۡخِلَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ﴾[1].

قوله تعالى: ﴿وَيُعَذِّبَ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱلۡمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلۡمُشۡرِكِينَ وَٱلۡمُشۡرِكَٰتِ﴾؛ أي: وليعذب أهل النفاق والشرك ﴿ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾؛ أي: الظنَّ الباطلَ السَّيِّئ، وهو ظنهم أن الله لا ينصر رسوله، والسَّوء بفتح السين هو: الشيء المكروه، وفتح السين لغة فيه، فهما لغتان مترادفتان، مثل: الكَره والكُره، والضَّعف والضُّعف، والضَّر والضُّر، ولكن غلب المفتوح السين فيما إذا وقع مضافًا إليه لذمه؛ أي: لذم ما أضيف إليه مثل: ﴿ظَنَّ ٱلسَّوۡءِۚ﴾ و﴿دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾، والمضموم السين في الشيء الذي هو شر وسيئ في نفسه، ومنه قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ﴾ [النساء: ١٧].

قوله تعالى: ﴿عَلَيۡهِمۡ دَآئِرَةُ ٱلسَّوۡءِۖ﴾ دعاء عليهم؛ أي: عليهم دائرة الشر من الهلاك والعذاب والذل، ثم توعدهم الله ﷻ فقال: ﴿وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ وَلَعَنَهُمۡ﴾؛ أي: أحل بهم لعنته، وطردهم وأبعدهم من رحمته ﴿وَأَعَدَّ لَهُمۡ جَهَنَّمَۖ﴾؛ أي: هيَّأ لهم النار، وجهنم من أسمائها؛ واشتقاقها من الجهومة، وهي الغِلَظ، يقال: رجل جهْم الوجه غليظه، فسميت بهذا

(١) البخاري (٣٩٣٩).

لغلظ أمرها في العذاب، نسأل الله الكريم العافية منها ﴿وَسَآءَتۡ﴾ (ساء) فعل ماض جامد لإنشاء الذم ﴿مَصِيرًا ۝٦﴾؛ أي: مرجعًا ومآلًا يؤولون إليه.

قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ جُنُودُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِۚ﴾ تأكيد للخبر السابق ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾؛ أي: قويًا لا يُغلب ﴿حَكِيمًا ۝٧﴾؛ أي: ذا حكمة في تقديره وتدبيره، وختم الآية بالعزيز الحكيم؛ لأنه في مقام تهديد المنافقين والمشركين، كما قال سبحانه: ﴿أَلَيۡسَ ٱللَّهُ بِعَزِيزٖ ذِي ٱنتِقَامٖ﴾ [الزمر: ٣٧]، وقال: ﴿فَأَخَذۡنَٰهُمۡ أَخۡذَ عَزِيزٖ مُّقۡتَدِرٍ﴾ [القمر: ٤٢]، وخُتمت الآية السابقة بالعليم الحكيم؛ لأنه في مقام التقدير والتدبير العائد إلى مقتضى علمه تعالى وحكمته.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة.

٢ ـ امتنان الله على نبيِّه ﷺ أن فتح له فتحًا بيِّنًا.

٣ ـ التنويه بشأن هذا الفتح، والمراد به فتح الحديبية.

٤ ـ إثبات التعليل لأفعاله تعالى.

٥ ـ ذكر ما في هذا الفتح من الحكم والنعم.

٦ ـ وعد الله نبيَّه بمغفرة ذنوبه ما تقدم منها وما تأخر.

٧ ـ أن الرسل تقع منهم الذنوب في الجملة.

٨ ـ إتمام الله نعمته على نبيِّه ﷺ.

٩ ـ نصر الله لنبيِّه النصر العزيز.

١٠ ـ إنزال السكينة في قلوب المؤمنين.

١١ ـ أن الإيمان يزيد وينقص.

١٢ ـ أن إنزال السكينة في القلوب من أعظم أسباب زيادة الإيمان.

١٣ ـ أن جنود السماوات والأرض مِلك لله تعالى؛ لأنه خالقهم والمتصرف فيهم.

١٤ ـ إثبات اسميه العليم والحكيم، وما تضمَّنا من صفتي العلم والحكمة.

١٥ ـ وعد الله المؤمنين والمؤمنات بدخول الجنات وتكفير السيئات.

١٦ ـ أن ذلك هو الفوز العظيم.

١٧ ـ إثبات عندية الحكم.

١٨ ـ إثبات الجنة، وأن فيها أنهارًا.

١٩ ـ أن الجنة دار المؤمنين والمؤمنات.

٢٠ ـ وعيد الله للمنافقين والمنافقات والمشركين والمشركات.

٢١ ـ تقديم المنافقين في الوعيد بالعذاب على المشركين.

٢٢ ـ أن الله جمع للمنافقين والمشركين أنواع الوعيد من الغضب واللعنة والعذاب في جهنم.

٢٣ ـ أن المقتضي لهذا الوعيد الشديد هو ظَنُّهم بالله ظنَّ السَّوء.

٢٤ ـ إثبات صفة الغضب لله.

٢٥ ـ أن النار موجودة الآن.

٢٦ ـ ذمُّ النار؛ لقوله تعالى: ﴿وَسَآءَتْ مَصِيرًا ۝٦﴾.

٢٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما العزيز والحكيم، وما تضمَّناه من العزَّة والحكمة.

❁ **قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ۝٨ لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَتُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ ۚ فَمَن نَّكَثَ فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۖ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾.**

▩ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات امتنانًا ثانيًا من الله على رسوله ﷺ بأن أرسله شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا، وحكمةَ هذا الإرسال، ثم نوَّه تعالى بالذين بايعوا الرسول ﷺ بيعة الرضوان، وعظَّم شأنها، وجعل مبايعتهم للرسول مبايعة لله، وحذَّر من النَّكث، ووعد الموفين بالعهد أجرًا عظيمًا.

▩ التفسير:

قوله تعالى: ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ؛ أي: بعثناك إلى جميع الناس ﴿شَٰهِدًا﴾ حال مقدَّرة؛ أي: شاهدًا على أمتك بالبلاغ ﴿وَمُبَشِّرًا﴾ مَن آمن بك بالجنة ﴿وَنَذِيرًا ۝٨﴾؛ أي: منذرًا مَن كذَّبك بالعذاب.

ثم خاطب الله أمته المؤمنين وجميع الناس بقوله: ﴿لِّتُؤْمِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾؛ أي: أرسلنا الرسول لتؤمنوا بالله ربكم ورسوله حقَّ الإيمان ﴿وَتُعَزِّرُوهُ﴾؛ أي: وتنصروا رسوله وتؤيدوه؛ فالتعزير اسم جامع لنصره وتأييده ومنعه من كل ما يؤذيه ﴿وَتُوَقِّرُوهُ﴾؛ أي: وتحترموه وتجلُّوه وتكرموه، فالضميران للنبي ﷺ ﴿وَتُسَبِّحُوهُ﴾؛ أي: وتنزهوا الله تعالى بألسنتكم وقلوبكم عن كل نقص ﴿بُكْرَةً وَأَصِيلًا ۝٩﴾ البُكرة أول النهار والأصيل آخره، والمراد سبِّحوه دائمًا، كما يقال: شرقًا وغربًا؛

لاستيعاب جميع الجهات، فذكَر الله في هذه الآية الحق المشترك بين الله ورسوله ﷺ، وهو الإيمان، والمختص بالرسول وهو التعزير والتوقير، والمختص بالله وهو التسبيح.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الضمائر كلها في (تُعَزِّرُوهُ وَتُوَقِّرُوهُ وَتُسَبِّحُوهُ) عائدة على الله وحده؛ منعًا لتفكيك الكلام، والصحيح ما ذكرتُ أولًا؛ لوجهين:

الأول: أن الاعتماد في مراجع الضمائر على قرائن الكلام معروف عند العرب، وهو جار على عادتهم في الإيجاز والاعتماد على فطنة السامع؛ فإنهم أمة فطنة وبلاغة.

الثاني: أن التعزير جاء في القرآن إطلاقه على الرسول ﷺ في قوله سبحانه: ﴿فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [الأعراف: ١٥٧]، وعلى الرسل بعامة في قوله تعالى: ﴿وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا﴾ [المائدة: ١٢].

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: إن الذين يعاهدونك ـ أيها الرسول ـ على القتال حتى الموت، وعلى ألَّا يفروا، وذلك في الحديبية، وهي بيعة الرضوان، وسميت بذلك؛ لأن صاحبَها باعَ نفسَه لله، أو لأن كلًّا من المبايِع والمبايَع يمدُّ باعَه للآخرِ ويعاقدُه عليها، وخبر (إن) قوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ﴾؛ لأنها بأمره تعالى وهو الذي يجزي عليها، فمبايعة الرسول مبايعة لله، كما قال تعالى: ﴿مَّن يُطِعِ ٱلرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ ٱللَّهَ﴾ [النساء: ٨٠].

ثم أكَّد ذلك بقوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾ وذلك أن يد الرسول فوق أيديهم، وقد جعل الله يد الرسول يده تعالى تشريفًا، وهي التي فوق

أيديهم، قال ابن القيم رَحِمَهُ اللَّهُ: «فالعقد معه عقد مع مرسله، وبيعتُه بيعتُه، فمن بايعه فكأنما بايع الله، ويد الله فوق يده، وإذا كان الحجر الأسود يمين الله في الأرض، فمن صافحه وقبَّله فكأنما صافح الله وقبَّل يمينه، فيد رسول الله ﷺ أولى بهذا من الحجر الأسود»[(١)].

وسبب هذه البيعة أن رسول الله ﷺ وهو بالحديبية أرسل عثمان بن عفان إلى قريش ليخبرهم أنه لم يجئ لقتال، وإنما جاء للعمرة، فأبطأ عثمان، فظن المسلمون أنه قد قتل، فدعا النبي ﷺ أصحابه إلى البيعة على حرب قريش، وكانوا قرابة ألف وأربعمئة، فبايعوه على الموت، كما قال بعض الصحابة، وقال بعضهم: بايعناه على ألَّا نفر، وكان أول من بايع أبو سنان الأسدي، وكان عثمان بمكة، فوضع النبي ﷺ يده اليمنى على يده اليسرى، وقال: «**هذه يد عثمان**»[(٢)]، ثم تبين أن عثمان لم يقتل، ثم جرت السفراء بين الرسول ﷺ وقريش حتى انتهوا إلى الصلح المشهور الذي صار فتحًا مبينًا للرسول عليه الصلاة والسلام.

قوله تعالى: ﴿فَمَن نَّكَثَ﴾؛ أي: فمن نقض العهد، والنقض والنَّكث أخوان ﴿فَإِنَّمَا يَنكُثُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ﴾؛ أي: لا يعود ضرر نكثه إلا على نفسه ﴿وَمَنْ أَوْفَىٰ بِمَا عَٰهَدَ عَلَيْهُ ٱللَّهَ﴾؛ أي: مَن أتمَّ عهده ولم ينقضه، وضم الهاء في ﴿عَلَيْهُ﴾ للتوصل بذلك إلى تفخيم اللام في الاسم الكريم ﴿ٱللَّهَ﴾، وهي قراءة حفص، وقرأ جمهور القراء بكسر الهاء ﴿فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ۝١٠﴾؛ أي: فسيؤتيه الله ثوابًا جزيلًا، وهو الجنة التي عرضها السماوات والأرض.

---

(١) زاد المعاد (٣/ ٢٧٧).

(٢) البخاري (٣٤٩٥) عن ابن عمر رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة.

٢ ـ الرد على المكذبين برسالته ﷺ الذين قال قائلهم كذبًا وجحدًا: لو نعلم أنك رسول الله ما قاتلناك.

٣ ـ ذكر واجبات الرسالة التي على النبي ﷺ ﴿شَـٰهِدًا وَمُبَشِّـرًا وَنَـذِيرًا ۝٨﴾.

٤ ـ ذكر الحكمة من إرساله ﷺ المتعلقة بالمكلفين.

٥ ـ وجوب الإيمان بالرسول ﷺ وتعزيره وتوقيره.

٦ ـ مشروعية تسبيح الله في أول النهار وآخره.

٧ ـ ذكر مبايعة الصحابة على الموت أو عدم الفرار من القتال.

٨ ـ تعظيم أمر هذه البيعة بقوله: ﴿إِنَّمَا يُبَايِعُونَ ٱللَّهَ يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾.

٩ ـ أن البيعة عهد.

١٠ ـ التحذير من نكث العهد.

١١ ـ الترغيب في الوفاء بالعهد.

لما أخبر الله عن الذين بايعوا الرسول ﷺ على القتال حتى الموت، وأنهم قد بايعوا الله، أخبر عمَّا سيعتذر به الذين خُلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ في مسيره إلى مكة؛ فقال سبحانه:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًۢاۚ بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًۢا ﴿١١﴾ بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾ وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الإخبار عن قول المخلَّفين من الأعراب في الاعتذار عن تخلفهم عن الخروج مع النبي ﷺ بأنهم شغلتهم أموالهم وأهلوهم، وهم منافقون يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، ثم تهديدهم وتوبيخهم على سوء ظنهم بالله، وأنه لا ينصر رسله والمؤمنين، واستحسانهم ذلك في قلوبهم، كما تضمَّنت وعيد الكافرين بالله ورسوله بما أعد الله لهم من عذاب السعير، ثم أخبر تعالى أن له ملك السماوات والأرض، وهو المتصرف بالعباد يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء، وأنه الغفور الرحيم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، فالله يخبر نبيَّه أن المخلَّفين سيقولون له ذلك إذا رجع إليهم في المدينة، وهذا من

إعلام الله نبيَّه بحقيقة هؤلاء وكشف دخائلهم، ومنه يُعلم إعجاز القرآن؛ لأنه أخبر عن الغيب وقد وقع مطابقًا، وله نظائر في السورة.

وكان رسول الله ﷺ قد خرج من المدينة عام الحديبية سنة ست، يريد زيارة البيت، لا يريد قتالًا، وساق معه الهدي سبعين بدنة، وقد استنفر العرب ومن حول مدينته من أهل البوادي ليخرجوا معه حذرًا من قومه قريش أن يعرضوا له بحرب، أو يصدوه عن البيت، وتخلف عن الخروج معه قبائل خافوا على أنفسهم، سمَّاهم القرآن المخلَّفين، وهم الذين أخبر الله عنهم في قوله تعالى لنبيِّه ﷺ:

﴿سَيَقُولُ لَكَ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾ جمع مُخلَّف بوزن (مُعَظَّم) وهو في الأصل المتروك خلف القوم، والمراد الذين خلَّفهم المسلمون وراءهم حين خرجوا إلى مكة ﴿مِنَ ٱلْأَعْرَابِ﴾ (مِن) بيانية؛ أي: هم الأعراب، والأعراب اسم جنس جمعيٌّ، واحده أعرابيٌّ، والمراد بهم أهل البادية، وكانوا يسكنون حول المدينة، فهؤلاء يقولون للنبي ﷺ كذبًا: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا وَأَهْلُونَا﴾؛ أي: شغلتنا عن الخروج معك أموالنا وأهلونا، فليس لهم من يقوم بشأنهم، وهذه عادة المنافقين في الكذب والتعلُّل بالباطل ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَا ۚ﴾؛ أي: اطلب من الله أن يغفر لنا تخلُّفنا عنك، ولم يكونوا في هذا الطلب صادقين، ولهذا قال تعالى: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۚ﴾، فهذا تكذيب لهم في اعتذارهم وطلبهم الاستغفار؛ أي: يقولون قولًا بألسنتهم غير الذي في قلوبهم، فالذي في قلوبهم أن المؤمنين سيُقتلون وينتهي أمرهم في مكة على يد قريش وحلفائهم.

قال الله لنبيِّه مؤيِّدًا له بالحجة والخطاب المفحم: ﴿قُلْ فَمَن﴾ استفهام بمعنى النفي، وهو أبلغ في التحدي؛ أي: قل لهم ـ أيها الرسول ـ لا أحد ﴿يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الملك هنا بمعنى القدرة

والاستطاعة، و﴿مِّنَ﴾؛ أي: ممَّا يريده بكم ويقضيه عليكم، المعنى: لا يمنعكم أحد مما يشاء الله ويقضيه ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا﴾؛ أي: إن أراد ما يضركم بالهزيمة أو القتل ﴿أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًا﴾؛ أي: أو أراد ما ينفعكم بالنصر والغنائم، ففي الآية ردٌّ عليهم حين ظنُّوا أن القعود والتخلف عن الرسول ﷺ يدفع عنهم الضر، ويعجل لهم النفع.

ثم أضرب عن تكذيبهم في اعتذارهم إلى تهديدهم وبيان حقيقة أمرهم، فقال سبحانه: ﴿بَلْ كَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿١١﴾﴾؛ أي: بالغ العلم بجميع أعمالكم وأقوالكم الظاهرة والخفية، ومنها النفاق، وسيجازيكم عليه.

قوله تعالى: ﴿بَلْ ظَنَنتُمْ أَن لَّن يَنقَلِبَ ٱلرَّسُولُ وَٱلْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰٓ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا﴾؛ أي: ليس تخلفكم عن الخروج مع النبي ﷺ سببُه انشغالكم بالأهل والمال؛ بل ظنُّكم أنه لن يرجع الرسول والمؤمنون إلى المدينة أبدًا، وأن المشركين سيستأصلونهم ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِى قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: وزُيِّن ذلك الظنُّ في قلوبكم وأعجبكم ﴿وَظَنَنتُمْ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ﴾؛ أي: الظنَّ الباطلَ السَّيئ، وهو ظنُّهم أن الرسول والمؤمنين يُستأصلون ولا يُنصرون ﴿وَكُنتُمْ قَوْمًۢا بُورًا ﴿١٢﴾﴾ البُور مصدر، وهو الهُلْك لفظًا ومعنًى؛ أي: صِرتم قومًا هَلْكى لا خير فيكم. وهذا كلُّه من القول الذي أمر نبيُّنا ﷺ أن يقوله لهم.

قوله سبحانه: ﴿وَمَن لَّمْ يُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا ابتداء كلام منه تعالى ليس داخلًا في الكلام الملقَّن؛ أي: ومن لم يؤمن بالله ورسوله إيمانًا خالصًا من قلبه ﴿فَإِنَّآ أَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ سَعِيرًا ﴿١٣﴾﴾؛ أي: هيَّأنا للكافرين نارًا عظيمة مُسَعَّرة؛ أي: موقدة ذات لهب، وقوله: ﴿لِلْكَٰفِرِينَ﴾ إظهار في مقام الإضمار، لم يقل: أعتدنا لهم؛ تسجيلًا عليهم بالكفر، وتعميمًا للحكم في كل كافر، وأنه قد أعد له السعير.

قوله سبحانه: ﴿وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ تقديم الخبر (للهِ) يفيد الحصر، أي: لله وحده ﴿مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِۚ﴾ خلقًا ومُلكًا وتدبيرًا، فكل ما سواه مفتقر إليه تعالى، وهو مستغن عن كل ما سواه، وله سبحانه التصرف المطلق في خلقه كيف يشاء، تبعًا لعلمه وحكمته، لا رادَّ لأمره ولا معقب لحكمه ﴿يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ﴾؛ أي: يغفر لمن يشاء أن يغفر له من عباده، فيتجاوز عن ذنبه ويستره عليه برحمته وفضله ﴿وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُۚ﴾؛ أي: ويعذب من يشاء تعذيبه بحكمته وعدله ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٤﴾﴾؛ أي: ذا مغفرة وذا رحمة، قال تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْۖ﴾ [الرعد: ٦]، وقال: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْغَفُورُ ذُو ٱلرَّحْمَةِۖ﴾ [الكهف: ٥٨]، و(كان) في مثل هذا الأسلوب مسلوبة الدلالة على الزمان الماضي، كما تقدم، والمراد بها دوام اتصاف اسمها بخبرها؛ أي: أنَّ وصفه تعالى بالمغفرة والرحمة وصف ذاتيٌّ، فهو موصوف بذلك أزلًا وأبدًا ﷻ.

الفوائد والأحكام:

١ ـ علم الله بما سيكون.

٢ ـ أن من وجوه إعجاز القرآن ما فيه من أنباءٍ عن المستقبل، فتقع كما أخبر.

٣ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِي كَانُوا۟ عَلَيْهَاۚ﴾ الآية [البقرة: ١٤٢].

٤ ـ فضح المنافقين وأشباههم وتعريف الرسول بحالهم.

٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ۚ﴾ إلى قوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٧].

٦ ـ أن خاصِّيَّة المنافقين مخالفةُ ظواهرهم لبواطنهم خبرًا وطلبًا؛ الخبر في قولهم: ﴿شَغَلَتْنَآ أَمْوَٰلُنَا﴾، والطلب في قولهم: ﴿فَٱسْتَغْفِرْ لَنَاۚ﴾.

٧ ـ جواز طلب الدعاء من الرسول ﷺ في حال حياته.

٨ ـ تأييد الله لنبيِّه ﷺ بالحجة على المخالفين؛ لقوله: ﴿قُلْ فَمَن يَمْلِكُ لَكُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ الآية.

٩ ـ أنه لا رادَّ لما أراد الله.

١٠ ـ إثبات الإرادة الكونية التي بمعنى المشيئة؛ لقوله: ﴿إِنْ أَرَادَ بِكُمْ ضَرًّا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ نَفْعًاۚ﴾.

١١ ـ تهديد أولئك المخلَّفين المنافقين بمضيِّ حكم الله فيهم، وبكمال خبرته تعالى بهم.

١٢ ـ فضحُهم بكشف ظنونهم السيئة التي انطوت عليها سرائرهم.

١٣ ـ أن مِن ظنهم السيئ بالله أن يمكّن أعداءه من أوليائه، حتى لا يرجعوا إلى أهليهم أبدًا.

١٤ ـ أن ظنَّ السَّوء بالله أقبحُ الظنون، ومن أعظم المحرمات.

١٥ ـ أن النفاق وظنَّ السَّوء بالله يفضي بأهله إلى الهلاك.

١٦ ـ علم الله بما في القلوب؛ لقوله: ﴿يَقُولُونَ بِأَلْسِنَتِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْۚ﴾ وقوله: ﴿وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ﴾.

١٧ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُلْ مَن ذَا ٱلَّذِي يَعْصِمُكُم مِّنَ ٱللَّهِ إِنْ أَرَادَ بِكُمْ سُوٓءًا أَوْ أَرَادَ بِكُمْ رَحْمَةًۚ وَلَا يَجِدُونَ لَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ [الأحزاب: ١٧].

١٨ ـ تهديد الكافرين بالله ورسوله بعذاب السعير.

١٩ ـ أن النار معدة للكافرين.

٢٠ ـ أن النار موجودة.

٢١ ـ أن من أسماء النار السعير.

٢٢ ـ ملكُ الله للسماوات والأرض.

٢٣ ـ إثبات أفعال الله الاختيارية الواقعة بمشيئته، ومنها المغفرة والتعذيب.

٢٤ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٢٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: الغفور والرحيم، وما تضمناه من صِفَتي المغفرة والرحمة.

٢٦ ـ أنه تعالى لم يزل موصوفًا بالمغفرة والرحمة.

قال الله تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ ۖ يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا۟ كَلَـٰمَ ٱللَّهِ ۚ قُل لَّن تَتَّبِعُونَا كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ ۖ فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا ۚ بَلْ كَانُوا۟ لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٥﴾ قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ ۖ فَإِن تُطِيعُوا۟ يُؤْتِكُمُ ٱللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا ۖ وَإِن تَتَوَلَّوْا۟ كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ ۗ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ وَمَن يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات إخبار الله تعالى عن المخلَّفين أنهم سيقولون للصحابة إذا خرجوا في غزوة خيبر: ذرونا نتبعكم، يريدون أن يبدلوا ما أخبر الله به من أن غنائم غزوة خيبر خاصةٌ بأهل بيعة الرضوان، وأن النبي ﷺ إذا قال لهم: لن تتبعونا، قالوا: ﴿بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾، وذلك لجهلهم وقلة فقههم، ثم أمر الله نبيَّه أن يقول للمخلفين من الأعراب: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُو۟لِى بَأْسٍ شَدِيدٍ تُقَـٰتِلُونَهُمْ أَوْ يُسْلِمُونَ﴾، ووعدهم بالأجر الحسن إن أطاعوا وجاهدوا، وتوعَّدهم بالعذاب الأليم إن تولوا عن الجهاد.

ثم ذكر تعالى أهل الأعذار الذين لا حرج عليهم في ترك الجهاد؛ كالأعمى والأعرج والمريض، ووعد من أطاع الله ورسوله جنات تجري من تحتها الأنهار، وتوعَّد من تولى بالعذاب الأليم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿سَيَقُولُ ٱلْمُخَلَّفُونَ﴾؛ أي: المخلَّفون من الأعراب

المذكورون في الآية السابقة، فـ(أل) في (المخلَّفين) للعهد الذكري، ولم يقل (لك) كما قال في الآية السابقة؛ لأن المخاطبين بقول المخلَّفين هم المؤمنون كلُّهم؛ لقوله: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ﴾ ولقولهم: ﴿ذَرُونَا﴾ لا النبيُّ وحده، والسين لتأكيد الخبر والدلالة على قرب وقوعه؛ أي: سيقول الذين تخلفوا عن الخروج مع النبي ﷺ إلى مكة: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ لِتَأْخُذُوهَا﴾؛ أي: إذا انطلقتم إلى مغانم خيبر التي وعدكم الله، وكانوا علموا بهذا الانطلاق، فإن النبي ﷺ لما رجع من الحديبية في ذي الحجة من سنة خمس، وأقام بالمدينة إلى أوائل المحرم من السنة التالية، تقدم إلى خيبر في هذا الشهر لغزو اليهود، الذين نكثوا العهد، وحرضوا قريشًا والمشركين على المسلمين في غزوة الخندق، فتفرغ النبي ﷺ لقتال اليهود لا سيما بعد عقد الهدنة مع المشركين، فانتصر المسلمون في خيبر، وافتتحوا أكثر حصونها عَنوة بالسيف، وغنموا أموالًا عظيمة.

وكان الأعراب قبل خروج المسلمين إلى خيبر يقولون لهم: ﴿ذَرُونَا نَتَّبِعْكُمْ﴾؛ أي: اتركونا نخرج معكم لنصيب حظًّا منها، ولا تمنعونا ﴿يُرِيدُونَ أَن يُبَدِّلُوا كَلَٰمَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يريد المخلَّفون أن يغيِّروا حكمه تعالى ووعدَه للمؤمنين بهذه المغانم، وأنها خاصة بمن شهد الحديبية جزاء لهم على صدقهم في البيعة ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾؛ أي: لن تتبعونا في السَّير إلى خيبر، فالمغانم خاصة بالمؤمنين، فهذا نفي يراد به النهي، ومجيء النهي بصورة النفي ـ الخبر ـ فيه إشارة إلى أن ذلك الخروج لن يتم بحال، فالله يأمر نبيّه ألَّا يخرج إلى خيبر إلا أهلُ الحديبية الذين هم أهل بيعة الرضوان، وهو ما وقع حقًّا، فيكون من أعلام النبوة.

قوله سبحانه: ﴿كَذَٰلِكُمْ قَالَ ٱللَّهُ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مثلَ هذا القول

الذي أخاطبكم به، وهو لن تتبعونا، قال الله من قبل؛ أي: حكَم الله بذلك قبل رجوعنا إلى المدينة ﴿فَسَيَقُولُونَ بَلْ تَحْسُدُونَنَا﴾؛ أي: فسيقول المخلَّفون للمؤمنين: لم يمنعنْا الله؛ بل أنتم تحسُدوننا أن نشارككم الغنيمة، فردَّ الله عليهم جوابهم بقوله: ﴿بَلْ كَانُوا لَا يَفْقَهُونَ إِلَّا قَلِيلًا﴾؛ أي: لا يفهمون في أوامر الله ونواهيه إلا فهمًا يسيرًا، فإرادتهم تبديل حكم الله ووصفُهم للمؤمنين بالحسد ناتج من جهلهم.

قوله تعالى: ﴿قُل لِّلْمُخَلَّفِينَ مِنَ الْأَعْرَابِ﴾؛ أي: قل ـ أيها الرسول ـ لهؤلاء المخلَّفين من البدو ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾؛ أي: ستدعون إلى قتال قوم أصحاب قوة وشدة في الحرب، واختلف المفسرون في هؤلاء القوم؛ فقيل: هم هوازن ومن حاربهم النبي ﷺ في حنين، وقيل: أهل الردة من بني حنيفة وغيرهم باليمامة الذين قاتلهم الصحابة في خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وقيل: هم فارس والروم، ورجَّحه شيخ الإسلام ابن تيمية[(١)]، واختار ابن جرير رحمه الله الإمساك عن تعيينهم؛ لأن الله لم يعينهم بأعيانهم بل بأوصافهم[(٢)].

قوله تعالى: ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾ حالٌ مقدرة؛ أي: مقدَّرًا لكم قتالهم ﴿أَوْ يُسْلِمُونَ﴾ معطوف على ﴿تُقَاتِلُونَهُمْ﴾ أو هو استئناف؛ أي: أو هم يسلمون من غير قتال، المعنى: تخيرونهم بين أمرين: إما السيف أو الإسلام ﴿فَإِن تُطِيعُوا﴾؛ أي: فإن تستجيبوا ـ أيها المخلَّفون ـ وتنفروا معنا ﴿يُؤْتِكُمُ اللَّهُ أَجْرًا حَسَنًا﴾؛ أي: ثوابًا عظيمًا، فتنالوا النصر والغنيمة في الدنيا، والجنة في الآخرة ﴿وَإِن تَتَوَلَّوْا كَمَا تَوَلَّيْتُم مِّن قَبْلُ﴾؛ أي: وإن لم تطيعوا وتخلفتم عن الخروج كما تخلفتم يوم الحديبية ﴿يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦﴾﴾؛ أي: عذابًا مؤلمًا موجعًا.

---

(١) «منهاج السُّنَّة» (٨/ ٥١٠).

(٢) «جامع البيان» (٢١/ ٢٦٨).

ولما توعَّد المتولِّين عن الجهاد بالعذاب الأليم ذكر تعالى من يجوز له التخلف وترك الجهاد، فقال سبحانه: ﴿لَّيْسَ عَلَى ٱلْأَعْمَىٰ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى ٱلْمَرِيضِ حَرَجٌ﴾؛ أي: ليس على هؤلاء إثم ولا مؤاخذة في ترك الجهاد؛ لِما قام بهم من الأعذار الظاهرة من العَمى والعرَج والمرض، وبدأ بالأشد عجزًا، ويُلحق بهؤلاء مَن كان مثلَهم أو أشدَّ عجزًا، كأقطع الرِّجْلَين، والشيخ الفاني، و(لَا) حرف زائد في الموضعين لتوكيد النفي، وبيان أن نفي الحرج يشمل الأنواع كلها.

قوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾؛ أي: في إجابة الداعي إلى الجهاد وفي كل شيء ﴿يُدْخِلْهُ جَنَّـٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾؛ أي: تجري من تحت قصورها وأشجارها الأنهار ﴿وَمَن يَتَوَلَّ﴾؛ أي: ومن يتخلف عن الجهاد ﴿يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٧﴾﴾؛ أي: عذابًا موجعًا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ علم الله بالغيب.

٢ ـ أن من وجوه إعجاز القرآن ما فيه من أنباءٍ عن المستقبل، فتقع كما أخبر.

٣ ـ أن غزوة خيبر بعد صلح الحديبية.

٤ ـ حرص أهل الباطل على تبديل كلام الله، مما فيه مخالفة خبره وأمره تعالى.

٥ ـ إثبات الكلام لله تعالى.

٦ ـ الإشارة إلى أن المؤمنين منصورون فيما يدعون إليه من الجهاد؛ لقوله: ﴿إِذَا ٱنطَلَقْتُمْ إِلَىٰ مَغَانِمَ﴾.

٧ ـ أن غنائم خيبر خاصَّة بأهل بيعة الرضوان؛ لقوله: ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

٨ ـ علم من أعلام النبوة؛ وهو عدم اتباع المخلَّفين للمؤمنين في غزوة خيبر؛ لأن الله أخبر أنهم لن يتبعوهم، ولما أراد المخلفون ذلك نهاهم النبي ﷺ بأمر الله له ﴿قُل لَّن تَتَّبِعُونَا﴾.

٩ ـ سوء ظنِّ المخلَّفين بالنبي ﷺ، وسبب ذلك: قلة فقههم.

١٠ ـ أن الدعوة إلى الجهاد ليست قاصرة على عصر النبوة، ولهذا قال أهل السُّنَّة: الجهاد ماض مع الأئمة إلى يوم القيامة، أبرارًا كانوا أو فُجَّارًا.

١١ ـ إثبات خلافة الأئمة الثلاثة أبي بكر وعمر وعثمان ﭫ؛ لأن كلًّا منهم دعا إلى قتال الكفار من المرتدين وغيرهم، ففيها:

١٢ ـ الرد على الرافضة المنكرين لخلافة الثلاثة.

١٣ ـ إخبار الجيش بقوة عدوهم ليستعدوا لقتالهم؛ لقوله: ﴿سَتُدْعَوْنَ إِلَىٰ قَوْمٍ أُوْلِي بَأْسٍ شَدِيدٍ﴾.

١٤ ـ أن الغاية من الجهاد هي: دخول الناس في الإسلام.

١٥ ـ وجوب الخروج مع الإمام إذا دعا إلى الجهاد، ففيها: شاهد لقوله ﷺ: **«وإذا استُنفرتم فانفروا»**[١].

١٦ ـ الترغيب في الجهاد، والوعيد على من تركه.

١٧ ـ سقوط وجوب الجهاد عن أهل الأعذار كالأعمى والأعرج والمريض.

---

(١) البخاري (١٧٣٧)، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس ﭭ.

١٨ ـ أن من يسر الإسلام نفي الحرج عن أهل الأعذار في ترك الجهاد.

١٩ ـ أن العمى والعَرَج والمرض من الأعذار بالنص، ويلحق بها ما كان مثلها أو أسوأ.

٢٠ ـ أن التولِّي عن الجهاد إذا كان بعذر لا يوجب العذاب.

٢١ ـ فضل طاعة الله ورسوله ﷺ.

٢٢ ـ أن طاعة الله ورسوله ﷺ هي السبب الأعظم في نيل السعادة العظمى.

٢٣ ـ أن التولي عن طاعة الله ورسوله ﷺ هو السبب في استحقاق العذاب.

٢٤ ـ جواز عطف الرسول على اسم (الله) في مقام الطاعة، وهو مطَّرد في القرآن أمرًا وخبرًا. مثال الأمر: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾ [الأنفال: ٢٠]، والخبر كهذه الآية: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ﴾.

قال الله تعالى:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿١٨﴾ وَمَغَانِمَ كَثِيرَةً يَأْخُذُونَهَا وَكَانَ اللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٩﴾ وَعَدَكُمُ اللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَذِهِ وَكَفَّ أَيْدِيَ النَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ آيَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ اللَّهُ بِهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات إخباره تعالى برضاه عن المؤمنين حين بايعوا النبي ﷺ أن يقاتلوا حتى الموت ولا يفروا، وأنه تعالى أنزل السكينة عليهم لما علم في قلوبهم من الطمأنينة في مبايعتهم للرسول ﷺ، وأثابهم فتحًا قريبًا وهو الصلح، ومغانم كثيرة وأولها مغانم خيبر، وأخبر تعالى أنه وعدهم مغانم كثيرة، وأنه عجَّل لهم غنائم خيبر، ووعدهم غنائم أخرى لم يقدروا عليها، وقد أحاط الله بها علمًا وقدرة، وكان الله على كل شيء قديرًا.

التفسير:

هذه الآيات رجوع إلى الحديث عن الذين بايعوا النبي ﷺ بعد أن أخبر الله عنهم بقوله: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يُبَايِعُونَكَ إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ﴾ [الفتح: ١٠]، بعد اعتراضٍ تضمَّن الخبر عن المخلَّفين، وهو اعتراض اقتضاه المقام، ثم قال سبحانه:

﴿لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: المؤمنين من الصحابة وكانوا ألفًا وأربعمئة ﴿إِذْ يُبَايِعُونَكَ﴾؛ أي: حين عاهدوك على الموت، وعلى ألا

يفروا عند القتال، ولأجل هذا الرضى سميت بيعة الرضوان ﴿تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ وهي سمُرة من شجر الطَّلح، وكانت تلك الشجرة معروفة عندهم؛ فاللام في الشجرة للعهد الذهني؛ أي: الشجرة المعهودة المعلومة عندكم، وكانوا قد استظلوا بظلها وقت مبايعتهم للنبي ﷺ، فـ﴿تَحۡتَ ٱلشَّجَرَةِ﴾ جملة متعلقة بمحذوف حال من ضمير الفاعل والمفعول في ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾.

والتعبير بالمضارع في ﴿يُبَايِعُونَكَ﴾ لاستحضار الحال؛ فإنها حال سارَّة ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمۡ﴾ من الصدق والوفاء ﴿فَأَنزَلَ﴾ الله ﴿ٱلسَّكِينَةَ عَلَيۡهِمۡ﴾؛ أي: الطمأنينة والثبات والأمن واليقين بنصر الله لهم ﴿وَأَثَٰبَهُمۡ﴾؛ أي: أعطاهم عن صدقهم وإخلاصهم في البيعة، وعوَّضهم عمَّا فاتهم من دخول مكة ﴿فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾ هو صلح الحديبية، وقيل: فتح خيبر، والأول أظهر؛ لأن الله سمَّاه فتحًا في أول السورة، ولأنه وُصف بالقريب.

قوله تعالى: ﴿وَمَغَانِمَ كَثِيرَةٗ يَأۡخُذُونَهَاۗ﴾ معطوف على ﴿فَتۡحٗا قَرِيبٗا ١٨﴾؛ أي: ومنحهم غنائم كثيرة، وهي غنائم خيبر؛ إذْ أصاب المسلمون من يهود خيبر أموالًا وسلاحًا وعقارًا، فهو فتح عظيم تتابعت بعده الفتوح، وحميت الدعوة الإسلامية، روى البخاري بسنده عن ابن عمر قال: ما شبعنا حتى فتحنا خيبر[1]، ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا﴾؛ أي: قويًّا غالبًا في انتقامه من أعدائه ﴿حَكِيمٗا ١٩﴾ في تقديره وتدبيره وقضائه، وهو تعالى موصوف بالعزة والحكمة أزلًا وأبدًا.

قوله تعالى: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةٗ تَأۡخُذُونَهَا﴾؛ أي: تغنمونها في قادم الأيام في الوقت المقدَّر لها، وهي كل ما يغنمه المسلمون في الفتوح الإسلامية ﴿فَعَجَّلَ لَكُمۡ هَٰذِهِۦ﴾؛ أي: غنيمة خيبر ﴿وَكَفَّ أَيۡدِيَ ٱلنَّاسِ عَنكُمۡ﴾؛ أي: ومنع أذى الناس عنكم، فلم ينلكم أحد بسوء، وألقى الله في قلوب أعدائكم الرعب من المشركين واليهود وحلفائهم كأسد

---

(١) البخاري (٤٠٠٠).

وغطفان، فما مُسَّ أحد من أهل المدينة بسوء حال غيبتكم عنها.

قوله سبحانه: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ الواو عاطفة على مقدَّر مفهوم من السياق؛ أي: عجَّل لكم المغانم وكفَّ أيدي أعدائكم لتشكروه سبحانه، وليكون ذلك ﴿ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: علامة لجميع المؤمنين إلى يوم القيامة، ودليلًا على صدق وعده سبحانه لكم، وصدق رسوله ﷺ، وأنه تعالى يحفظكم وينصركم ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ۝٢٠﴾؛ أي: طريقًا واضحًا لا اعوجاج فيه، والمراد به دين الإسلام؛ أي: يثبتكم عليه، وهذا من أعلام النبوة في هذه السورة؛ فإن كل من شهد الحديبية ظلَّ مستمسكًا بدينه حتى لقي ربه.

قوله تعالى: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾، ﴿وَأُخْرَىٰ﴾ مبتدأ ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ صفته ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾ خبره؛ أي: ووعدكم الله ـ أيها المؤمنون ـ مغانم أخرى في زمن قادم، لا قدرة لكم عليها الآن، وهو تعالى قادر عليها، وقد حفظها لكم، ولهذا قال: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا﴾؛ أي: قد أحاط بها علمًا وقدرة؛ أي: أنها مما سبق به علمُه، وشملتها قدرتُه؛ فهي في قبضته تعالى وملكه، قيل: هي جميع الفتوح التي فتحت على المسلمين، والله أعلم.

ورجح ابن جرير أن المراد فتح مكة؛ محتجًا بأن قوله: ﴿لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا﴾ يدل على تقدُّم محاولة[1]، والحق أن النبي ﷺ والمسلمين لم يأتوا إلى مكة لأجل القتال؛ بل للعمرة، ولهذا قال ﷺ: «**إنا لم نجئ لقتال أحد ولكنا جئنا معتمرين**»[2]، ولم يُنقل أنهم غزو مكة قبل ذلك ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ۝٢١﴾؛ أي: من أمر الفتح وغيره، فلا يخرج عن قدرته شيء، ولا يفوته شيء ﷻ.

---

(١) جامع البيان (٢١/٢٨٦).

(٢) البخاري (٢٥٨١) عن المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم.

وقد تضمَّنت هذه الآيات بشائر؛ منها ما هو مختص بالمبايعين للنبي ﷺ، ومنها ما هو عام لهم ولمن بعدهم، فمن ذلك إخباره تعالى بأنه رضي عن المبايعين، وإنزاله السكينة عليهم، وبالفتح والغنائم، وما عجَّل لهم من غنائم خيبر، وكف أيدي العدو عنهم، والهداية إلى الصراط المستقيم، والفتوحات التي ستقع للمسلمين فيما بعد.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ إثبات الرضى لله تعالى.

٢ ـ أن رضاه تعالى يكون بمشيئته في وقت دون وقت.

٣ ـ أن رضاه تعالى عن الصحابة كان وقت بيعتهم للرسول ﷺ تحت الشجرة.

٤ ـ الرد على الكُلَّابية وأتباعهم في قولهم: إن رضاه وغضبه تعالى قديمان لا تتعلق بهما المشيئة.

٥ ـ إثبات علم الله بما في القلوب.

٦ ـ إثبات عمل القلب، ومنه العزم وصدق الإرادة؛ لقوله تعالى: ﴿فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ﴾.

٧ ـ أن الصدق في الإيمان وكمال الإخلاص أعظم أسباب النصر.

٨ ـ بشارة الصحابة برضى الله عنهم، وبالثواب العظيم عاجلًا وآجلًا.

٩ ـ فضل أهل بيعة الرضوان، وأنه يُشهد لهم بالجنة، وكانوا ألفًا وأربعمئة.

١٠ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**لا يدخل النار أحد ممن بايع تحت الشجرة**»[1]، ومنهم: حاطب بن أبي بلتعة.

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٤٤٧٨)، وأبو داود (٤٦٥٣)، والترمذي (٣٨٦٠) عن جابر ﷺ، قال الترمذي: «حسن صحيح»، وقال محققو المسند: «إسناده صحيح على شرط مسلم».

١١ ـ إثبات اسمين من أسماء الله العزيز والحكيم، وما دلَّا عليه من العزة والحكمة.

١٢ ـ البشارة بكثرة الفتوح الإسلامية؛ لقوله: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا﴾.

١٣ ـ أن كفَّ العدو من نعم الله العظيمة.

١٤ ـ إثبات التعليل في أفعال الله؛ لقوله: ﴿وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾.

١٥ ـ أن من حكمة الله في الفتوح أن تكون آية على صدق وعد الله، وصدق رسوله ﷺ فيما بشَّر به وأخبر عن الله، ومن حكمته تعالى أن يزداد المؤمنون هدى إلى هداهم.

١٦ ـ أن هداية العباد الصراطَ إلى الله وحده؛ لقوله: ﴿وَيَهْدِيَكُمْ صِرَاطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾﴾.

١٧ ـ أن الطريق إلى الله هو الصراط المستقيم.

١٨ ـ البشارة بالفتوح والغنائم فيما يستقبل من الزمان زيادة على ما حصل من ذلك.

١٩ ـ إثبات أن للعبد قدرة؛ لقوله: ﴿وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُواْ عَلَيْهَا﴾، ففيها:

٢٠ ـ الرد على الجبرية.

٢١ ـ ضمان الله ذلك لأصحاب نبيّه ﷺ، وأنه محقِّقٌ ذلك بقدرته؛ لقوله: ﴿قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَاۚ﴾.

٢٢ ـ إثبات قدرة الله على كل شيء، ومن ذلك: تيسير الله الفُتُوح على المؤمنين، ونصره لهم على أعدائهم.

٢٣ ـ الرد على القدرية الذين ينكرون قدرة الله على أفعال العباد.

ثم بيَّن سبحانه أن نصره لعباده المؤمنين في صلح الحديبية وما بعده كان بتدبير منه سبحانه؛ فقال تعالى:

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنۢ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾ إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ وَكَانُوٓا۟ أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات خبر الله عن الكفار أهل مكة أنهم لو قاتلوا المؤمنين الذين بايعوا الرسول ﷺ على الموت لولَّوا الأدبار وانهزموا، ولم يجدوا لهم وليًّا ولا نصيرًا، وأن هذه هي سُنَّته تعالى التي لا تتبدَّل؛ فالنصر حظ أوليائه، والهزيمة لازمة لأعدائه، وتضمَّنت امتنانه تعالى على المؤمنين أن كفَّ أيدي الكفار عنهم، وكفَّ أيدي المؤمنين عنهم؛ لما في ذلك من المصلحة التي سيذكرها، ثم ذكر تعالى أسباب خذلانه للكفار، وهي كفرهم بالله، وصدهم أولياءه عن دخول بيته، ومنعهم الهدي أن يبلغ محله.

ثم ذكر تعالى حكمته في كفِّ أيدي المؤمنين عن قتال الكفار، وهي ما يخشى من أن يصيبوا إخوانهم المؤمنين الموجودين بينهم في مكة، من رجال ونساء، فيحصل للمجاهدين حرج في ذلك، ولو تميَّز

المؤمنون عن الكفار لعذب الله الكفار بأيدي المؤمنين عذابًا أليمًا.

ثم بيَّن تعالى سبب استحقاق الكفار للعذاب الأليم، وهو ما انطوت عليه قلوبهم من الحميَّة الجاهليَّة، وذلك بانتصارهم للباطل الذي هم عليه، وأخبر بمنَّته على نبيِّه ﷺ وعلى المؤمنين بإنزال السكينة عليهم، وإلزامهم كلمة التقوى؛ لأنهم أحق بها وأهلها، وأن مردَّ ذلك كله إلى كمال علمه تعالى.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾؛ أي: كفار مكة، ولم يصالحوكم في الحديبية ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ﴾؛ أي: لفروا منهزمين رعبًا منكم؛ فإن المنهزم في الحرب يولِّي عدوَّه ظهره فارًّا من المعركة، وذكَر الدُّبر دون الظهر تحقيرًا لهم ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا﴾ يتولاهم بالحفظ والرعاية ويتحمَّل عنهم ﴿وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾﴾ ينصرهم بدفع الهزيمة عنهم، والفرق بين الوليِّ والنَّصير أن الوليَّ هو الذي يتولَّى أمور موليِّه ويسعى في منافعه، والنَّصير هو الذي ينصره بدفع عدوه وما يضر به.

معنى الآية: أن المشركين لو قاتلوا المسلمين يوم الحديبية لنَصر الله المسلمين عليهم، كما هي سُنَّته تعالى مع أنبيائه وأوليائه، ولهذا قال: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: عادته سبحانه، فإنه ينصر أولياءه ويخذل أعداءه، كما قال سبحانه: ﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ﴾ [المجادلة: ٢١]، وإعراب ﴿سُنَّةَ﴾ مصدر مؤكِّد لفعل محذوف؛ أي: سنَّ الله ذلك سُنَّةً ﴿ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ﴾؛ أي: مضت في خلقه ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: لا تجد ـ أيها السامع والقارئ ـ لسُنَّة الله تبديلًا منه تعالى، فهي سُنَّة لا تتبدل ولا تتحول.

قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ﴾؛ أي: وهو تعالى

ـ وحده ـ بقدرته وتدبيره وحكمته الذي منع أيدي المشركين عنكم فلم يسلُّوا السلاح ﴿وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم﴾؛ أي: وكفَّ أيديكم عنهم؛ أي: منعَكم، فلم تسلُّوا السلاح، وهذا غير الكف الذي اقتضاه الصلح، وهو وقف القتال عشر سنين؛ فالكفُّ في هذه الآية كان ﴿بِبَطْنِ مَكَّةَ﴾؛ أي: بالحديبية، وهي داخل حدود الحرم، وذلك أن ثمانين رجلًا من المشركين انحدروا متسلحين على عسكر رسول الله ﷺ بالحديبية يلتمسون غِرّتهم ليصيبوا منهم، فأخذهم النبي سِلْمًا فاستحياهم؛ أي: لم يقتلهم، فأنزل الله ﷻ: ﴿وَهُوَ الَّذِي كَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ عَنْهُم بِبَطْنِ مَكَّةَ مِنْ بَعْدِ أَنْ أَظْفَرَكُمْ عَلَيْهِمْ﴾[1]؛ أي: أقدركم عليهم، وجعلكم ظافرين بهم، فلم يقع بينكم وبين هؤلاء قتال، فصان الله حرمه عن سفك الدماء ﴿وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: مطَّلعًا على جميع أعمالكم، فلا يخفَى عليه منها شيء، وسيجازيكم.

ثم ذمَّ الله قريشًا المشركين؛ فقال سبحانه: ﴿هُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ بالله ورسوله ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ زيادة على كفرهم؛ أي: منعوكم عن الدخول لأداء العمرة والطواف والصلاة في المسجد الحرام، و﴿الْحَرَامِ﴾، والحرام هو المحرَّم[2]، كما قال سبحانه: ﴿عِندَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ﴾ [إبراهيم: ٣٧]، فهو الحرام والمحرَّم؛ أي: لا يحل انتهاكه، ولأنه حرمت فيه أشياء لا تحرم في غيره، كما قال ﷺ: «**إن هذا بلد حرمه الله يوم خلق السماوات والأرض، وهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، وإنه**

---

(١) رواه مسلم (١٨٠٨) عن أنس رضي الله عنه.

(٢) الحرام لأهل اللغة فيه مذهبان؛ فقالت طائفة: إنه صفة مشبهة باسم الفاعل؛ لأن الوصف من فَعُل يأتي على فَعَال، فيقال: حرام، ومثله جَبان. وقيل: حرام مصدر كذَهاب وسَماع، قال البغدادي في «الخزانة» (٥/ ٢٧٢): «وروي: البيت الحرام، بمعنى الممنوع، من باب إطلاق المصدر وإرادة اسم المفعول، يقال: المسجد الحرام...؛ أي: لا يحل انتهاكه». اهـ.

لم يحل القتال فيه لأحد قبلي، ولم يحل لي إلا ساعة من نهار، فهو حرام بحرمة الله إلى يوم القيامة، لا يعضد شوكه، ولا ينفر صيده، ولا يَلتقط لقطته إلا من عرفها ولا يُختلى خلاها»[١].

قوله تعالى: ﴿وَٱلْهَدْىَ﴾؛ أي: وصَدُّوا الهدْي، والهدْي اسم جمع، واحده هَدْية، وهو ما يُهدَى من بهيمة الأنعام إلى مكة لفقرائها ﴿مَعْكُوفًا﴾؛ أي: حال كونه معكوفًا؛ أي: محبوسًا عن دخول مكة ﴿أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ﴾؛ أي: عن أن يبلغ محله، فـ(أنْ) وما دخلت عليه في تأويل مصدر منصوب بنزع الخافض ﴿مَحِلَّهُۥ﴾؛ أي: مكانَه الذي يذبح فيه، وهو الحرم كلُّه ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَٰتٌ﴾؛ أي: ولولا رجال مؤمنون ونساء مؤمنات موجودون بين كفار مكة يكتمون إيمانهم خوفًا على أنفسهم ﴿لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ﴾؛ أي: لا تعرفونهم بأعيانهم لاختلاطهم بالكفار ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾؛ أي: تقتلوهم بغير علم منكم، وأصل الوطء: الدَّوس بالأرجل ﴿أَن تَطَـُٔوهُمْ﴾ بدل اشتمال من رجال ونساء، وجواب (لَوْلَا) محذوف؛ أي: لولا أن تطؤوهم في القتال لسلَّطناكم على الكفار، لكن لم يكن ذلك، وقايةً لمن بين أظهرهم من المسلمين ﴿فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ﴾؛ أي: فيلحقكم بقتلهم عار وعيب وغُرم ﴿بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ متعلق بتطؤوهم؛ أي: تقتلونهم بغير علم منكم بأنهم مؤمنون.

قوله تعالى: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾ هذا تعليل لما دلت عليه الآية؛ أي: كفَّ الله أيديكم عن الكفار صيانةً للمؤمنين المختلطين بهم، ورحمةً بكم أن يصيبكم من الحرج بذلك ما تكرهون، وليُدخل الله ﴿فِى رَحْمَتِهِۦ﴾؛ أي: في الإسلام من يشاء سبحانه من الكافرين الذين بقوا على قيد الحياة.

---

(١) البخاري (١٧٣٧)، ومسلم (١٣٥٣) عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ثم أكَّد الله مضمون قوله: ﴿وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ﴾ بقوله تعالى: ﴿لَوْ تَزَيَّلُوا﴾؛ أي: لو تميَّز المؤمنون عن الكافرين وانفصلوا عنهم ﴿لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: عذابًا مؤلمًا شديدًا في الدنيا بتسليطكم عليهم، كما قال تعالى: ﴿قَٰتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ﴾ [التوبة: ١٤].

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ الظرف (إذْ) متعلق بالفعل (عذَّبنا)؛ أي: عذَّبناهم حين جعلوا الحميَّة ثابتة في قلوبهم، وقيل: (إِذْ) مفعولٌ به لفعل محذوف تقديره: اذكر.

قوله تعالى: ﴿إِذْ جَعَلَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ لم يقل: إذْ جعلوا؛ بل عبَّر بالاسم الظاهر دون الضمير لذمِّهم بصفة الكفر ﴿فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْحَمِيَّةَ﴾؛ أي: الأنفة والكِبْر، يقال: حَمِي من الشيء ـ كرَضِي ـ حميّةً ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ بدل من الحميَّة، والجاهلية نسبة إلى الجاهل الذي لا يعلم التوحيد والدين، وهو مصطلح إسلامي، وهو صفة لموصوف محذوف، أي: حميَّة الجماعة الجاهلية أو الملة الجاهلية، وقد غلب هذا الاستعمال حتى صار اسمًا لمدة ما قبل الإسلام، أو لحال الناس قبل الإسلام، ولا يذكر هذا المصطلح في القرآن ولا في السُّنَّة إلا في مقامات الذم؛ كقوله تعالى: ﴿يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [آل عمران: ١٥٤]، وقوله: ﴿أَفَحُكْمَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ يَبْغُونَ﴾ [المائدة: ٥٠]، وقوله: ﴿وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾ [الأحزاب: ٣٣]، وقوله ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية، لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[1].

وأضاف الله الحميَّة إلى الجاهليَّة في قوله: ﴿حَمِيَّةَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ﴾؛ لأنها ناتجة عن الجهل والشرك فتدعو إلى الظلم، وتمنع من الإذعان للحق.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري.

ومن آثار حميَّة المشركين أنهم منعوا المسلمين من دخول مكة، وأبوا أن يكتبوا البسملة في كتاب الصُّلح، وذلك لذكر اسم الرحمٰن فيها، وامتنعوا أن يكتبوا: هذا ما قاضى عليه محمد رسول الله.

قوله تعالى: ﴿فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ وَعَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾؛ أي: أنزل الطمأنينة والثبات في قلوبهم، فلم يغضبوا لأنفسهم، وهذا في مقابل الحمية التي في قلوب المشركين، فقد كانت من الشيطان، والسكينة من الله، ولهذا أضافها إلى نفسه سبحانه ﴿وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ ٱلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: أمرهم بها، ووفقهم لها، وثبتهم عليها، وهي قول: لا إلٰه إلا الله، وسميت كلمة التقوى؛ لأنه يترتب عليها التقوى، ولأنها تقي صاحبها من الشرك ﴿وَكَانُوٓا۟﴾؛ أي: المسلمون، والواو للحال؛ أي: والحال أنهم كانوا ﴿أَحَقَّ بِهَا﴾؛ أي: أولى الناس بكلمة التقوى ﴿وَأَهْلَهَا﴾؛ أي: وكانوا أهلَها المستأهلين لها؛ لأن فيهم أسباب استحقاقها ﴿وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴿٢٦﴾﴾ هذا عموم لا أعمَّ منه ولا مخصص له؛ أي: هو تعالى محيط علمه بكل شيء، فيعطي كلَّ أحد ما هو أهلٌ له، وهو سبحانه حكيم يضع الأشياء في مواضعها.

الفوائد والأحكام:

١ ـ علم الله بما لا يكون، لو كان كيف يكون.

٢ ـ ضعف الكفار وجبنهم أمام جيش الإيمان.

٣ ـ أن انهزام الكفار أمام جيش المسلمين سُنَّةٌ ماضية لا تتبدَّل، إلا أن تتبدل أسبابها بتغيير العباد ما بأنفسهم.

٤ ـ أن الكفار إذا هُزموا أمام المسلمين لا يجدون من يرحمهم ولا من ينصرهم.

٥ ـ أن من انْكَفَّ عن عدوه فانكفافه بفعل الله ومشيئته.

٦ ـ أن الله إذا كفَّ الكفار فذلك من نصره.

٧ ـ أن الله إذا كفَّ أيدي المسلمين عن الكفار، فلحكمة تعود إلى المسلمين.

٨ ـ أنه لم يكن قتال بين المسلمين والمشركين بمكة يوم الحديبية، مع تمكن المسلمين من ذلك، وقد كفَّ الله كلًّا من الفريقين عن الآخر.

٩ ـ أن الله بصير بأعمال العباد؛ يعلم نياتهم وما تفضي إليه أعمالهم.

١٠ ـ ذمُّ الله لقريش بكفرهم وصدهم المؤمنين عن المسجد الحرام.

١١ ـ أن مكة بلد حرام؛ لقوله: ﴿وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ﴾، وقد حرم الله مكة منذ خلق السماوات والأرض.

١٢ ـ مشروعية سوق الهدي في العمرة.

١٣ ـ أن الهدي المسوق لا يحل ذبحه إلا في الحرم.

١٤ ـ تعظيم شأن الهدي، وتقبيح صده عن محِلِّه.

١٥ ـ أن الرسول ﷺ والمؤمنين إنما جاؤوا للعمرة لا للقتال، بدليل سوق الهدي؛ لقوله: ﴿وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا﴾.

١٦ ـ أن الحكمة في كفِّ أيدي المؤمنين عن قتال الكفار بمكة وجود رجال ونساء مؤمنين بينهم، فلو حصل قتال لأصابهم المسلمون، فأصاب المسلمين من ذلك حرج ومعرَّة، وهم في ذلك معذورون لعدم علمهم.

١٧ ـ أن عدم العلم من الأعذار التي ترفع الإثم.

١٨ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ﴾.

١٩ ـ أن من حكمته تعالى في كفِّ أيدي المؤمنين عن قتال الكافرين: أن الله يهدي من يشاء منهم إلى الإيمان.

٢٠ ـ إثبات المشيئة لله تعالى.

٢١ ـ أنه لا يجوز قتل الكفار إذا كان بينهم مسلمون؛ سواء أكانوا في حصن، أم في سفينة، أم تترَّسوا بهم.

٢٢ ـ أنه لو تميَّز المؤمنون الموجودون بين الكفار في مكة لسلَّط الله المسلمين على الكافرين، فعذَّبهم الله بأيدي المؤمنين عذابًا أليمًا، عقوبة لهم على حميتهم الجاهلية.

٢٣ ـ أن من عذاب الله للكافرين: قتلهم بأيدي المسلمين.

٢٤ ـ ذمُّ الجاهلية وكلِّ ما يضاف إليها.

٢٥ ـ أن حميَّة الجاهليَّة من أسباب إصرار الكفار على كفرهم والتعصب لدين أسلافهم.

٢٦ ـ أن كلَّ من تعصَّب لباطل ففيه شعبة من حميَّة الجاهليَّة.

٢٧ ـ تثبيت الله للنبي والمؤمنين بإنزال السكينة عليهم حتى تَمَّت البيعة.

٢٨ ـ تثبيت الله نبيَّه ﷺ والمؤمنين على كلمة التقوى، وهي (لا إلٰه إلا الله) التي هي أصل دين الإسلام.

٢٩ ـ أن من أسماء (لا إلٰه إلا الله): كلمةَ التقوى، ولها أسماءٌ أخرى.

٣٠ ـ أن الرسول ﷺ والمؤمنين أقوم الناس بحق كلمة التقوى، لذلك كانوا أولى بها من غيرهم، وكانوا أهلها على الحقيقة.

٣١ ـ إثبات علم الله بكل شيء.

۞ قال الله تعالى: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ لَتَدْخُلُنَّ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ إِن شَاءَ اللَّهُ ءَامِنِينَ مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ لَا تَخَافُونَ فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان خبرًا مؤكَّدًا بصدق رؤيا الرسول ﷺ أنهم داخلو المسجد الحرام، معتمرين؛ فمنهم المحلِّق ومنهم المقصِّر، آمنين، ومن حكمته تعالى أن جعل قبل ذلك فتحًا قريبًا، وهو صلح الحديبية، ثم امتن الله على عباده بإرسال نبيِّه محمدٍ ﷺ، وتلك شهادة منه تعالى برسالته، وكفى بالله شهيدًا.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿لَقَدْ صَدَقَ اللَّهُ رَسُولَهُ الرُّءْيَا بِالْحَقِّ﴾ اللام في ﴿لَقَدْ﴾ هي الموطئة للقسم؛ أي: أقسم، و(قد) للتحقيق، و﴿الرُّءْيَا﴾ منصوب على نزع الخافض؛ أي: صدَق الله رسوله في رؤياه؛ أي: جعلها رؤيا صادقة محقَّقة لا أضغاثَ أحلام، ولذا قال: ﴿بِالْحَقِّ﴾ الباء للملابسة؛ أي: صِدقًا مصاحبًا للحق.

وخبر ذلك أنه ﷺ رأى في المنام وهو في الحديبية أو قبل خروجه إليها أنه دخل مكة، وطاف بالبيت هو وأصحابه آمنين، منهم من يحلق رأسه، ومنهم من يُقصِّر، فقصَّ النبي ﷺ رؤياه على أصحابه فاستبشروا بها، وحسبوا أن ذلك سيقع هذا العام ولم يكن ذلك؛ بل وقع الصلح

بين المسلمين وقريش، وكان من شروطه أن تكون عمرة المسلمين من قابل؛ أي: في العام الآتي، ثم رجع النبي ﷺ وأصحابه إلى المدينة، فأقاموا بها ذا الحجة من سنة ست، والمحرم من السنة التي تليها، وخرجوا في صفر إلى خيبر، ففتحها الله عليهم.

وفي ذي القعدة خرج النبي ﷺ والمسلمون إلى مكة فأدَّوا عمرتهم، وحقَّق الله لنبيِّه ما رآه في منامه من صورة الدخول، وسميت هذه العمرة عمرة القضاء، لا لأنها قضاءٌ عن العمرة التي صُدُّوا فيها عن البيت؛ ولكنها من المقاضاة، وهي المصالحة.

قوله سبحانه: ﴿لَتَدْخُلُنَّ ٱلْمَسْجِدَ ٱلْحَرَامَ﴾ جملة مستأنفة مؤكِّدة ومفسِّرة لقوله: ﴿لَّقَدْ صَدَقَ ٱللَّهُ رَسُولَهُ ٱلرُّءْيَا بِٱلْحَقِّ﴾ واللام في ﴿لَتَدْخُلُنَّ﴾ لام القسم؛ أي: أقسم لتدخُلُنَّ ـ أيها الرسول أنت وأصحابك ـ المسجد الحرام ﴿إِن شَآءَ ٱللَّهُ﴾؛ أي: أن دخولهم بمشيئة الله لا بحولهم وقوتهم، وفيه تعليم للعباد أن يقولوا ذلك فيما يخبرون به مما يعزمون عليه، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولَنَّ لِشَاْىْءٍ إِنِّى فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَدًا ﴿٢٣﴾ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الكهف: ٢٣، ٢٤].

قوله تعالى: ﴿ءَامِنِينَ﴾؛ أي: تدخلونه آمنين من عدوكم ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾؛ أي: محلِّقًا بعضُكم ومقصِّرًا آخرون؛ لأن الحاج والمعتمر إذا فرغ من مناسكه تحلَّل بحلق شعره أو تقصيره، والحلق أفضل، ولهذا قدَّم المحلقين، وقد أخرج الشيخان عن نافع عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «**اللَّهُمَّ ارحم المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**اللَّهُمَّ ارحم المحلقين**»، قالوا: والمقصرين يا رسول الله؟ قال: «**والمقصرين**». وقال الليث: حدثني نافع: «**رحم الله المحلقين**» مرة أو مرتين، قال: وقال عبيد الله: حدثني

نافع وقال في الرابعة: «**والمقصرين**»[(١)].

قوله تعالى: ﴿مُحَلِّقِينَ رُءُوسَكُمْ وَمُقَصِّرِينَ﴾ فيه إشارة إلى تمكُّنهم من أداء العمرة، ولهذا قال: ﴿لَا تَخَافُونَ﴾؛ أي: غيرَ خائفين، وهذا ليس تكرارًا بالمرادف لقوله: ﴿ءَامِنِينَ﴾، ولكن المعنى: أنكم تكونون آمنين وقت دخولكم، وحين أدائكم العمرة، وحال خروجكم فلا تخافون غدرًا ﴿فَعَلِمَ مَا لَمْ تَعْلَمُوا﴾؛ أي: فعلم اللهُ من الخير والمصلحة لكم ما لم تعلموه أنتم، وهو تأخير دخولكم مكة إلى السنة الآتية ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ﴾؛ أي: فجعل من دون تحقُّق الرؤيا بدخول مكة؛ أي: قبله ﴿فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾ وهو صلح الحديبية، زيادة على الوعد بدخولهم المسجد الحرام، وسمَّى اللهُ الصلح فتحًا؛ لما ترتب عليه من آثار عظيمة.

قوله سبحانه: ﴿هُوَ﴾؛ أي: الله ﷻ ﴿ٱلَّذِىٓ أَرْسَلَ رَسُولَهُۥ﴾ محمدًا ﴿بِٱلْهُدَىٰ﴾؛ أي: بالبيان الواضح ﴿وَدِينِ ٱلْحَقِّ﴾؛ أي: دين الإسلام، وقال بعض المفسرين: الهدى هو: العلم النافع، ودين الحق هو: العمل الصالح، وهذا الاختلاف في التفسير من اختلاف التنوُّع ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾؛ أي: لأجل أن يُعليه على الأديان كلها ﴿وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: وكفى بالله شاهدًا على أن محمدًا رسوله، وأنه ناصره ومظهر دينه على جميع الأديان.

والباء في قوله: ﴿بِٱللَّهِ﴾ حرف جر زائد لتزيين اللفظ وتوكيد المعنى، والاسم الشريف مجرور لفظًا مرفوع محلًّا فاعل، وفي الآية تأكيد لما وعد به سبحانه من الفتح، وتوطين لنفوس المؤمنين بأن الله

---

(١) البخاري (١٦٤٠)، ومسلم (١٣٠١).

سيفتح لهم من البلاد ويقيّض لهم من الغلبة، وهذا من فضله تعالى ومنته على أوليائه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن النبي ﷺ رأى في المنام أنه قد دخل هو وأصحابه مكة، قبل سفرهم لعمرة الحديبية.

٢ ـ الوعد المؤكَّد بتحقيق تأويل الرؤيا.

٣ ـ أن ذلك لا يكون في عمرة الحديبية؛ بل بعد ذلك، كما وقع من عمرة القَضاء في السنة السابعة.

٤ ـ أن هذا علَم من أعلام النبوة.

٥ ـ إثبات المشيئة لله.

٦ ـ استحباب ذكر المشيئة في الإخبار عن المستقبل.

٧ ـ مشروعية الحلق أو التقصير للتحلل من العمرة.

٨ ـ فضل المحلقين على المقصرين؛ لتقديمهم في الذكر.

٩ ـ خطأ من فهم أن ذلك يكون في عمرة الحديبية.

١٠ ـ إثبات علم الله.

١١ ـ إثبات الجعل الكوني؛ لقوله: ﴿فَجَعَلَ مِن دُونِ ذَٰلِكَ فَتْحًا قَرِيبًا ﴿٢٧﴾﴾.

١٢ ـ إثبات حكمته تعالى في تدبيره.

١٣ ـ تدبير الله للمؤمنين خلاف ما يظنونه المصلحة، ومصلحتهم فيما دبَّره تعالى.

١٤ ـ أن من أعظم نعمه تعالى على عباده: إرسال رسوله محمد ﷺ بالهدى ودين الحق، وهما: العلم النافع والعمل الصالح.

١٥ ـ ذكر مضمون رسالة محمد ﷺ، وهو: العلم النافع والعمل الصالح، وهما: الهدى ودين الحق.

١٦ ـ الترغيب في الإيمان به ﷺ وبما جاء به، والعمل بذلك.

١٧ ـ البشارة بظهور دين الإسلام على جميع الأديان.

١٨ ـ البشارة بفتوحات أخرى للأمة الإسلامية.

١٩ ـ تسلية النبي ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم.

٢٠ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيُظْهِرَهُۥ عَلَى ٱلدِّينِ كُلِّهِۦ﴾.

٢١ ـ أن شهادة الله أعظم شهادة وأصدقها، وقد شهد لمحمد ﷺ بالرسالة، وأخبر أنه هو الذي أرسله.

٢٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌۢ بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ﴾ الآية [الأنعام: ١٩].

ولما ذكر تعالى أنه أرسل رسوله بالهدى ودين الحق، أتبع ذلك بذكر بعض صفات الرسول ﷺ وأصحابه؛ فقال سبحانه:

﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ تَرَىٰهُمۡ رُكَّعٗا سُجَّدٗا يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضۡوَٰنٗاۖ سِيمَاهُمۡ فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ كَزَرۡعٍ أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ فَـَٔازَرَهُۥ فَٱسۡتَغۡلَظَ فَٱسۡتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ يُعۡجِبُ ٱلزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلۡكُفَّارَۗ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنۡهُم مَّغۡفِرَةٗ وَأَجۡرًا عَظِيمَۢا ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآية تأكيد الخبر بإرسال محمد ﷺ، والإخبار بصفة أصحابه في معاملتهم للناس وفيما بينهم وفي عبادتهم لله، والإخبار بصفتهم في التوراة والإنجيل، والإخبار بوعد الله لهم بالمغفرة والأجر العظيم.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿مُّحَمَّدٌ رَّسُولُ ٱللَّهِۚ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ ﴿مُّحَمَّدٌ﴾ مبتدأ ﴿رَّسُولُ ٱللَّهِۚ﴾ نعت أو عطف بيان ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾؛ أي: المؤمنون من الصحابة، وهو معطوف على المبتدأ، والخبر قوله: ﴿أَشِدَّآءُ﴾ جمع شَديد، كأَلِبَّاء جمع لَبيب ﴿عَلَى ٱلۡكُفَّارِ﴾؛ أي: فلا يرحمونهم؛ لأنهم أعداء الله ﴿رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾ جمع رَحيم؛ أي: يتراحمون فيما بينهم، ويتواصلون فيما بينهم بأنواع البر، ويحب بعضهم بعضًا، كما قال تعالى: ﴿أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤].

وذهب طائفة من المفسرين إلى أن (محمدًا) خبر لمبتدأ محذوف؛

أي: هو محمد، ﴿وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥٓ﴾ مبتدأ ثان، خبره قوله: ﴿أَشِدَّآءُ عَلَى ٱلۡكُفَّارِ رُحَمَآءُ بَيۡنَهُمۡۖ﴾، والأظهر ـ والله أعلم ـ هو الإعراب الأول؛ لأن الوصف بالشدة والرحمة يشمل النبي ﷺ وأصحابه، وعلى الإعراب الثاني يكون الوصف بالشدة والرحمة مختصًا بالصحابة دون النبي ﷺ، والنبي ﷺ أحقُّ بهذا الوصف، كما أخبر الله عنه في قوله: ﴿عَزِيزٌ عَلَيۡهِ مَا عَنِتُّمۡ حَرِيصٌ عَلَيۡكُم بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾ [التوبة: ١٢٨]، وقوله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ﴾ [التوبة: ٧٣].

قوله تعالى: ﴿تَرَىٰهُمۡ﴾؛ أي: ترى ـ أيها الرائي ـ محمدًا والذين معه ﴿رُكَّعٗا سُجَّدٗا﴾؛ أي: من كثرة الصلاة ﴿يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: يطلبون الثواب من الله في الآخرة، وفي ذلك شهادة من الله لهم بالإخلاص ﴿وَرِضۡوَٰنٗاۖ﴾؛ أي: ويبتغون رضا الله العظيم، وهو أكبر من كل نعيم، كما قال تعالى بعد ذكر الجنة، وأنهارها الجارية، ومساكنها الطيبة: ﴿وَرِضۡوَٰنٞ مِّنَ ٱللَّهِ أَكۡبَرُۚ﴾ [التَّوْبَة: ٧٢].

قوله تعالى: ﴿سِيمَاهُمۡ﴾؛ أي: علامتهم التي تميزهم عن غيرهم ﴿فِي وُجُوهِهِم مِّنۡ أَثَرِ ٱلسُّجُودِۚ﴾؛ أي: ما يلوح على وجوههم من البهاء والنور من آثار العبادة التي أعظمها الصلاة ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾ مبتدأ وخبر؛ أي: ذلك المذكور وصفُهم في التوراة: الشدة على الكفار، والرحمة بالمؤمنين، وكثرة الصلاة والسجود، ويحسن وقف القارئ على قوله: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمۡ فِي ٱلتَّوۡرَىٰةِۚ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُهُمۡ فِي ٱلۡإِنجِيلِ﴾ مبتدأ، خبره قوله: ﴿كَزَرۡعٍ﴾؛ أي: وصِفَتهم ـ أي: الرسول وأصحابه ـ في الإنجيل ﴿كَزَرۡعٍ﴾؛ أي: مثلُ زرع ﴿أَخۡرَجَ شَطۡـَٔهُۥ﴾؛ أي: أخرج أفراخه وهي فروعه، فأول ما ينبت يكون بمنزلة الأم، وما تفرع منه بمنزلة أولاده وأفراخه ﴿فَـَٔازَرَهُۥ﴾؛ أي: فقوّاه؛

أي: قوَّى الشطءُ بكثافته الزرعَ الذي هو الأصل ﴿فَٱسْتَغْلَظَ﴾ الأصل؛ أي: صار غليظًا ﴿فَٱسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِۦ﴾؛ أي: استوى قائمًا على سيقانه ﴿يُعْجِبُ ٱلزُّرَّاعَ﴾؛ أي: لقوته وحسن هيئته، وإذا أعجب أهلَ الزرع فأحرى أن يُعجِب غيرَهم، وهذا مَثَل ضربه الله للرسول ﷺ إذْ أرسله الله وحده ثم قوَّاه بأصحابه، أو هو تمثيل لحال بدء المسلمين؛ إذْ كانوا قلة مستضعفين، ثم كَثُروا وازدادوا قوة وتلاحُمًا، فوجه الشبه: الكثرة والقوة والنماء والنفع في كلٍّ.

قوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾ هذا تعليل لِمَا أفاده تشبيهُهم بالزرع من نمائهم وكثرتهم؛ أي: جعلهم الله كذلك لأجل أن يَغِيظ بهم الكفار؛ فإن كفار مكة كانوا يكرهون أن يكون المسلمون على هذه الحال من القوة والكثرة ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِنْهُم﴾ (مِنْ) بيانية؛ أي: الذين آمنوا وعملوا الصالحات الذين هم أصحاب محمد ﷺ، فهي مثل (مِنْ) في قوله تعالى: ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ﴾ [الحج: ٣٠]؛ أي: التي هي الأوثان.

قوله تعالى: ﴿مَّغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًۢا ۝٢٩﴾؛ أي: وعدهم الله مغفرة عظيمة لذنوبهم وثوابًا لا ينقطع، وهو الجنة دار الخلود والنعيم المقيم، فهذا ما وعد الله به الصحابة الكرام، وكل من اقتفى أثرهم فهو في حكمهم، نسأل الله أن يرزقنا محبتهم، ويجمعنا بهم في دار كرامته ومستقر رحمته.

وقد أفادت الآية أن ما في التوراة من ذكر الصحابة هو من قبيل الوصف؛ أي: وصفهم بأعمالهم وأخلاقهم، وما في الإنجيل وصفهم بطريق المَثَل، وإخبار القرآن عمَّا في التوراة والإنجيل هو إقرار لما فيهما، فيلزم من ذلك ذكرهم والثناء عليهم في القرآن أيضًا.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن من أسماء النبيِّ الخاتَم: محمدًا ﷺ؛ بل هو أشهر أسمائه، وقد ذُكر هذا الاسم في أربع آيات من القرآن، في آل عمران، والأحزاب، والقتال، وهذه السورة، وذكر بعض أهل العلم أنه الاسم الذي سمي به في التوراة، وقد سمَّاه بذلك جدُّه عبد المطلب، فكان إلهامًا وافق به ما في التوراة.

٢ ـ أن محمد بن عبد الله بن عبد المطلب رسولُ من الله.

٣ ـ وجوب الشهادة له ﷺ بالرسالة؛ لشهادة الله له بذلك، كما شهد الله لنفسه بالإلٰهية.

٤ ـ الرد على المشركين المكذبين له الممانعين في كتابة وصفه ﷺ بالرسالة.

٥ ـ معيَّة الصحابة ﷺ والمؤمنين للرسول ﷺ في الإيمان والدعوة والجهاد، وبخاصة الذين كانوا معه في الحديبية.

٦ ـ ثناء الله على أصحاب نبيّه ﷺ وأتباعه بالشدة على أعدائه والرحمة فيما بينهم، وبكثرة الصلاة.

٧ ـ ذكرهم بهذه الصفات في التوراة.

٨ ـ تشبيههم في الإنجيل بالزرع القوي النامي الكثيرِ المُغَلِّ الجيِّد.

٩ ـ جواز النظر في التوراة والإنجيل لمعرفة ما فيهما مما يصدقه القرآن.

١٠ ـ الحث على التراحم بين المؤمنين والشدة على الكافرين.

١١ ـ أن لكثرة الصلاة أثرًا يظهر على وجه المسلم حسنًا وبهاءً.

١٢ ـ فضل الصلاة على سائر العبادات.

١٣ ـ إثبات صفة الرضا لله، والرد على المعطلة.

١٤ ـ أن غاية المؤمنين في عبادة الله: طلبُ فضل الله ورضوانه لا مجردُ الأجر.

١٥ ـ الرد على الصوفية الذين يقولون: لا نعبد الله رغبة في الثواب، ولا رهبة من العذاب.

١٦ ـ أن طلب الأجر من الله لا ينافي الإخلاص.

١٧ ـ بركة الصحابة على هذه الأمة وعلى الناس بحمل هذا الدين إليهم، وتبليغ العلم.

١٨ ـ أن الصحابة كلهم عدول، وهو المعتمد عند أهل السُّنَّة.

١٩ ـ حُسْنُ سيرتهم، مما جعل عقلاء الناس يُعجَبون بهم.

٢٠ ـ أنهم غيث للمؤمنين، وغيظ على الكافرين.

٢١ ـ كفر من يبغض الصحابة؛ لقوله تعالى: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

٢٢ ـ كفر الرافضة؛ لبغضهم خيار الصحابة.

٢٣ ـ الرد على الرافضة الطاعنين فيهم.

٢٤ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِيَغِيظَ بِهِمُ ٱلْكُفَّارَ﴾.

٢٥ ـ تخصيص الصحابة بالوعد بالمغفرة والأجر العظيم.

٢٦ ـ تَرَتُّب الأجر والمغفرة على الإيمان، فكلُّ مؤمن يُغفر له بخلاف الكافرين؛ فلا يُغفر لهم.

٢٧ ـ اعتبار العمل مع الإيمان في حصول الوعد.

❁ ❁ ❁



تفسير سورة الحجرات

سورة الحجرات مدنية بالإجماع، وعدد آياتها ثمان عشرة آية، افتُتحت بخطاب المؤمنين، وتكرَّر هذا الخطاب خمس مرات؛ إذ اشتملت السورة على أوامرَ ونَوَاهٍ كلُّها دائرة على الأدب مع الله ورسوله ﷺ ومع المؤمنين، وجاء التعقيب على ذلك بخطاب عام للناس يتضمَّن التسوية بينهم في أصل الخلق، وأنه لا تفاضُل بينهم في ذلك، مع بيان أصل الفضل والتفاضُل بين الناس، وهو تقوى الله ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣]، ثم أخبر تعالى عن جماعة من الأعراب أنهم ادَّعوا الإيمان، مانِّين بذلك على رسول الله ﷺ، فردَّ الله عليهم دعواهم وامتنانهم ﴿وَلَٰكِن قُولُوٓاْ أَسْلَمْنَا﴾ [الحجرات: ١٤]، ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [الحجرات: ١٧].

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآية نهي الله تعالى عن التقدُّم بين يدي الله ورسوله في الحكم والقول، وأن هذا يقتضي الوقوف عند حكم الله ورسوله ﷺ، ولا يقدَّم عليه غيره، فالقولُ ما قال الله ورسوله، والحكمُ ما حكم الله به ورسوله، وأكَّد تعالى ذلك بوصية عامة، وهي الوصية بتقوى الله، ومن تقواه: ألَّا يُتَقَدَّمَ على الله ورسوله في الحكم والفتوى، وخَتَم الآية باسميه الكريمين: السميع والعليم؛ تعليمًا وتحذيرًا من المخالفة لما أمر الله به ورسوله ﷺ، فهو تعالى سميع لجميع الأصوات، عليم بكل شيء، ومن ذلك: أنه يسمع أقوال الناس، ويعلم ما يُسِرُّون وما يعلنون.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾؛ أي: يا من صدَّقوا الله ورسوله واتبعوه، والخطاب بوصف الإيمان فيه مدح لهم وتأنيس، وحثٌّ على الاستجابة لما يأتي بعده، وأنه من مقتضيات الإيمان، وتكراره بعد ذلك لتأكيد الخطاب ولزوم الطاعة ﴿لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ﴾ (قدَّم) فعل لازم بمعنى تقدَّم، كقولهم: بيَّن بمعنى تبيَّن، تقول العرب: بيَّن الصُّبح لذي عينين.

المعنى: لا تتقدموا بين يدي الله ورسوله بقول أو فعل؛ لأن التَّقَدُّم بين يدي المرء خروجٌ عن صفة المتابعة، واستقلالٌ في الأمر، فيكون التَّقَدُّم بين يدي الله ورسوله منافيًا للإيمان.

وجاء النهي على هذا الأسلوب البليغ ليشير إلى معان كثيرة تأتي في الفوائد، وما أحسن ما وَصف الله به الملائكة الكرام في قوله: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

وفي ذكر الله مع رسوله إشارة إلى أن طاعة الرسول طاعة لله ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل ما يأمركم به وترك ما ينهاكم عنه ﴿إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ﴾ لجميع أقوالكم ﴿عَلِيمٌ ١﴾ بجميع أفعالكم لا يخفى عليه منها شيء.

الفوائد والأحكام:

١ ـ إكرام المؤمنين بتوجيه الخطاب إليهم بصفة الإيمان.

٢ ـ أن الإيمان يقتضي الطاعةَ لله ورسوله، والانقيادَ لحكمهما.

٣ ـ وجوب تقديم حكم الله ورسوله ﷺ على حكم كل أحد.

٤ ـ وجوب تقديم قول الله ورسوله ﷺ على قول كل أحد.

٥ ـ تحريم التَّقَدُّم في الحكم والقول على الله ورسوله ﷺ.

٦ ـ تحريم تقديم حكم أحد على حكم الله ورسوله ﷺ.

٧ ـ تحريم تقديم قول أحد على قول الله وقول رسوله ﷺ.

٨ ـ وجوب الأدب مع الرسول ﷺ في حضرته وغيبته.

٩ ـ وجوب الأدب مع سُنَّة الرسول ﷺ.

١٠ ـ وجوب اتباع الشرع في كل شيء.

١١ ـ وجوب أدب الصغير مع الكبير، والولد مع الوالد، والتلميذ مع الشيخ، ويشهد لذلك أيضًا قوله ﷺ للذي بادر بالكلام قبل الكبير:

«كبِّر كبِّر»(١).

١٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى في الملائكة: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُۥ بِٱلْقَوْلِ وَهُم بِأَمْرِهِۦ يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

١٣ ـ وجوب تقوى الله في كل شيء.

١٤ ـ وجوب تقديم النص على القياس.

١٥ ـ شمول النصوص لجميع مسائل الأحكام، الواقعة وغير الواقعة، مما يدخل تحت ألفاظها.

١٦ ـ أنَّ أجمع وصية هي: الوصية بتقوى الله، ولهذا ثُنِّيت في هذه السورة ثلاث مرات، وفي آيات كثيرة من سور القرآن.

١٧ ـ إثبات اسمين من أسماء الله، وهما: السميع والعليم، وما تضمَّناه من صِفَتي: السمع والعلم.

١٨ ـ التحذير من مخالفة الأمر والنهي بذكر هذين الاسمين الكريمين.

---

(١) البخاري (٣٠٠٢)، ومسلم (١٦٦٩) عن سهل بن أبي حثمة ﷺ.

ثم أرشد الله المؤمنين إلى وجوب احترام النبي ﷺ وإجلاله بِغَضِّ الصوت عنده، وأعاد النداء بوصف الإيمان؛ لمزيد التنبيه والإيقاظ والإيذان بأن شأنهم الانقياد؛ فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ﴿٢﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ لَهُم مَّغْفِرَةٌ وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾ وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُواْ حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُمْ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات نهي الله للمؤمنين عن رفع أصواتهم فوق صوت النبي ﷺ، ونهيهم أن يجهروا في خطابهم للنبي ﷺ كما يجهر بعضهم لبعض، ويؤكد هذا النهي بأن ذلك سبب لحبوط أعمالهم، ولعل من يخالف ذلك أن يحبط عمله وهو لا يشعر، ثم أثنى على المتأدِّبين بهذا الأدب بِغَضِّ أصواتهم عند النبي ﷺ بصلاح قلوبهم، ووعدهم على ذلك مغفرةً وأجرًا عظيمًا، ثم ذمَّ الذين أساؤوا الأدب في خطاب النبي ﷺ برفع أصواتهم بذهاب عقولهم، وأن ما فعلوه كان لِقلَّة صبرهم، ولو صبروا لكان ذلك خيرًا لهم، ثم رجَّاهم فأطمعهم بقوله: ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾﴾.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾؛ أي: يا من صدَّقوا الله ورسوله

واتَّبَعوه وعملوا بشرعه ﴿لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِىِّ﴾؛ أي: لا ترفعوها في مجلسه ﷺ وبحضرته إذا كلَّم بعضُكم بعضًا، كما هي العادة في مجالس العظماء أنه يكون صوت المتحدثين خفيضًا، والنبي ﷺ أولى بالإجلال والتوقير.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجْهَرُواْ لَهُۥ بِٱلْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ﴾ قال بعض المفسرين: هذا تكرار للمعنى الأول لأجل التأكيد؛ فإن الجهر هو رفع الصوت، والصحيح أن هذه الجملة لها معنى آخر؛ أي: لا تعلو أصواتُكم صوتَه في خطابكم له، ولا تُساوُوا أصواتكم بصوته؛ فالجملة الأولى نهي عن رفع الصوت عنده، والثانية نهي عن رفع الصوت في مخاطبته، فهي أخصُّ من الجملة الأولى.

ثم علَّل كِلَا النَّهيين بقوله تعالى: ﴿أَن تَحْبَطَ أَعْمَٰلُكُمْ﴾؛ أي: خشيةَ حبوط أعمالكم بالرفع والجهر المذكورين ﴿وَأَنتُمْ لَا تَشْعُرُونَ ۝٢﴾؛ أي: والحال أنكم لا تشعرون ببطلانها؛ لأن هذا قد يجعل في قلب المرء استهانة بالرسول ﷺ، والاستهانة بالرسول ﷺ ردَّة عن الإسلام توجب حُبوط العمل، وهذا الحكم باق بعد موته ﷺ؛ فلا يجوز رفع الصوت عند قبره؛ لأن حرمته وهو ميِّت كحرمته حيًّا.

أخرج البخاري في «صحيحه» عن ابن أبي مُلَكية قال: كاد الخَيِّران أن يهلكا؛ أبو بكر وعمر رضي الله عنهما رفعا أصواتهما عند النبي ﷺ حين قدم عليه ركب بني تميم، فأشار أحدهما بالأقرع بن حابس أخي بني مجاشع، وأشار الآخر برجل آخر، قال نافع: «لا أحفظ اسمه»، فقال أبو بكر لعمر: «ما أردتَ إلا خلافي»، قال: «ما أردتُ خلافك». فارتفعت أصواتهما في ذلك فأنزل الله: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ﴾ الآية.

قال ابن الزبير: «فما كان عمر يُسمِع رسول الله ﷺ بعد هذه الآية حتى يستفهمه، ولم يذكر ذلك (أي: ابن الزبير) عن أبيه؛ يعني: أبا بكر»(١).

وفي رواية عند البخاري أيضًا: فنزل في ذلك: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُقَدِّمُواْ﴾ [الحجرات: ١] حتى انقضت(٢).

وروى الحاكم في «مستدركه» عن أبي بكر رضي الله عنه قال: «فآليتُ على نفسي ألّا أكلِّم رسول الله ﷺ إلا كأخي السِّرار»(٣).

وفي «الصحيح» عن أنس بن مالك، أنه قال: «لما نزلت هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَرْفَعُوٓاْ أَصْوَٰتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ ٱلنَّبِيِّ﴾ إلى آخر الآية، جلس ثابت بن قيس في بيته، وقال: أنا من أهل النار، واحتبس عن النبي ﷺ، فسأل النبي ﷺ سعد بن معاذ، فقال: «**يا أبا عمرو، ما شأن ثابت؟ اشتكى؟**» قال سعد: إنه لجاري، وما علمت له بشكوى، قال: فأتاه سعد، فذكر له قول رسول الله ﷺ، فقال ثابت: أنزلت هذه الآية، ولقد علمتم أنِّي من أرفعكم صوتًا على رسول الله ﷺ، فأنا من أهل النار، فذكر ذلك سعد للنبي ﷺ، فقال رسول الله ﷺ: «**بل هو من أهل الجنة**»(٤).

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَغُضُّونَ أَصْوَٰتَهُمْ﴾؛ أي: يخفضونها حياءً وأدبًا ﴿عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: بحضرته ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱمْتَحَنَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ لِلتَّقْوَىٰ﴾؛ أي: أخلصها للتقوى، تقول العرب: امتحن الصائغ الذهب إذا

---

(١) البخاري (٤٥٦٤). (٢) البخاري (٤١٠٩).

(٣) المستدرك (٣/ ٧٤) وقال الحاكم: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه»، وقوله: «كأخي السِّرار»؛ أي: كالمناجي سِرًّا.

(٤) البخاري (٤٥٦٥)، ومسلم (١١٩) واللفظ له.

أذابه ليخلصه مما خالطه، فالمراد هنا أن هذه القلوب خلصت مما فيها من الشوائب، فلم يبق لغير التقوى مكان فيها ﴿لَهُم مَّغْفِرَةٌ﴾ لجميع ذنوبهم ﴿وَأَجْرٌ عَظِيمٌ ۝٣﴾؛ أي: وثواب وافر في الجنة، وأول مبشَّر بهذا الوعد والثناء وأحقُّه أبو بكر وعمر؛ إذ كان كلٌّ منهما يكلم الرسول ﷺ بعد نزول الآية كأخي السِّرار.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُنَادُونَكَ﴾ أيها الرسول ﴿مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾؛ أي: حُجُراتِك، وهي حُجُرات زوجاته، جمع حُجْرة، وهي البقعة التي يحجرها المرء لنفسه، فلا يشاركه فيها غيره، وذكر الحُجُرات دون البيوت؛ لأن البيت كان بيتًا واحدًا مقسمًا إلى حُجُرات تسع.

فهؤلاء كانوا ينادون النبي ﷺ من وراء الحُجُرات وهو عند أهله، فكأنهم حديثو عهد بإسلام، فلم يتأدبوا بآدابه ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾؛ أي: معظمهم لا يعقلون الأدب مع النبي ﷺ، ولا يعلمون حرمة النبوة؛ لأنهم نادوه من ظاهر الدار مناداةَ أجلافِ الأعراب بعضهم لبعض، ففيه التنبيه على قدره عليه الصلاة والسلام، والأدب معه في هذا، وهو أن ينتظروه ولا يطرقوا بابه.

قوله سبحانه: ﴿وَلَوْ أَنَّهُمْ صَبَرُوا۟﴾ تأدُّبًا معك ـ أيها الرسول ـ ولم ينادوك ﴿حَتَّىٰ تَخْرُجَ إِلَيْهِمْ﴾؛ أي: تخرج من تلقاء نفسك قاصدًا الخروج إليهم ﴿لَكَانَ﴾ الصبر ﴿خَيْرًا لَّهُمْ﴾؛ أي: خيرًا من استعجالهم في المناداة ﴿وَٱللَّهُ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لذنوب عباده، فيستر ذنوبهم، ويتجاوز عنهم ﴿رَّحِيمٌ ۝٥﴾؛ أي: واسع الرحمة، ولم يقل: شديد العقاب، ففي الآية تطمين لهؤلاء بأن الله لم يؤاخذهم بما صدر منهم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ وجوب احترام النبي ﷺ.

٢ ـ علوُّ منزلته عليه الصلاة والسلام عند ربه.

٣ ـ وجوب الأدب مع رسول الله ﷺ بِغَضِّ الصوت عنده، وترك الجهر في خطابه.

٤ ـ الحكمة في النهي عن رفع الصوت والجهر، وهي: وقايتهم من حبوط أعمالهم.

٥ ـ أن رفع الصوت فوق صوت النبي ﷺ والجهر عنده بالقول مما يحبط العمل.

٦ ـ فضل غضِّ الصوت عند النبي ﷺ.

٧ ـ أن غضَّ الصوت عند النبي ﷺ من آثار تقوى القلب.

٨ ـ وجوب غضِّ الصوت عند قبره ﷺ.

٩ ـ وجوب غضِّ الصوت عند قراءة حديثه ﷺ.

١٠ ـ الوعد بالمغفرة والأجر العظيم للذين يغضُّون أصواتهم عند رسول الله ﷺ.

١١ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّا تَجْعَلُوا۟ دُعَآءَ ٱلرَّسُولِ بَيْنَكُمْ كَدُعَآءِ بَعْضِكُم بَعْضًاۚ﴾ [النور: ٦٣] على أحد التفسيرين.

١٢ ـ أن من الجفاء الفاحش رفع الصوت في خطاب النبي ﷺ.

١٣ ـ ذمُّ الله لمن فعل ذلك بعدم العقل.

١٤ ـ أنَّ حسن الأدب من كمال العقل، وسوء الأدب من نقص العقل.

١٥ ـ فضل العقل.

١٦ ـ أن أذى العلماء بسوء الأدب معهم قبيحٌ مذمومٌ.

١٧ ـ إطماع الذين نادوا الرسول ﷺ من وراء الحُجُرات بالمغفرة والرحمة من الله.

١٨ ـ عذر الله لهم بجهلهم.

١٩ ـ الاقتصاد في القول والعدل في الحكم؛ لقوله: ﴿أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ ۝٤﴾.

٢٠ ـ إثبات الاسمين الكريمين لله تعالى: الغفور والرحيم، وما تضمَّناه من صِفَتي المغفرة والرحمة.

٢١ ـ أن العبد قد يحبط عمله وهو لا يشعر.

٢٢ ـ وجوب الحذر من كل ما يحبط العمل.

٢٣ ـ تواضع النبي ﷺ في مسكنه وتَقَلُّلِه من الدنيا؛ لقوله: ﴿يُنَادُونَكَ مِن وَرَآءِ ٱلْحُجُرَٰتِ﴾، فما مسكنه سوى حُجُرات.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ فِيكُمۡ رَسُولَ ٱللَّهِۚ لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ لَعَنِتُّمۡ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ وَزَيَّنَهُۥ فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡكُفۡرَ وَٱلۡفُسُوقَ وَٱلۡعِصۡيَانَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ٧ فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ٨﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات أمر الله المؤمنين بالتثبُّت في خبر الفاسق، فلا ردَّ ولا قبول، ثم يُعْلمهم تعالى أن الرسول لو أطاعهم في كل ما يقترحونه لحصلت لهم فيه مشقة، ثم يمتن الله على أصحاب نبيّه ﷺ بأن حبَّب إليهم الإيمان، وزيَّنه في قلوبهم، وكرَّه إليهم الكفر والفسوق والعصيان، وأنَّ هذا غاية الرشد، وهو فضل من الله ونعمة.

التفسير:

ذهب جمهور المفسرين إلى أن هذه الآيات نزلت في الوليد بن عقبة، وحكاه ابن عبد البر اتفاقًا[١]، ففي مسند الإمام أحمد أن الرسول ﷺ بعثه إلى بني المصْطَلِق ليقبض صدقاتهم، وكانوا قد خرجوا بها إلى الرسول ﷺ لما استبطؤوا المصَدِّق[٢]، وكان كبيرهم الحارث بن أبي ضرارٍ الخزاعي، فلما رآهم الوليد أدركه الخوف، وظنَّ أنهم خارجون لقتله، فرجع إلى الرسول ﷺ، وأخبره أنهم أرادوا قتله، وامتنعوا من أداء الصدقة، فبعث إليهم رسول الله ﷺ بعثًا لقتالهم، فلقيهم

(١) ينظر: «الاستيعاب» (٤/١٥٥٣).

(٢) بتخفيف الصاد، وتشديد الدال المكسورة، هو الذي يقبض الصدقات.

الحارث في أثناء الطريق، فقالوا: هذا الحارث. فلما غشيهم قال لهم: إلى مَن بعثتم؟ قالوا: إليك. قال: ولم؟ قالوا: إن رسول الله ﷺ كان بعث إليك الوليد بن عقبة فزعم أنك منعته الزكاة وأردت قتله، قال: لا، والذي بعث محمدًا بالحق ما رأيته بتة، ولا أتاني.

فلما دخل الحارث على رسول الله ﷺ قال: «**منعت الزكاة وأردت قتل رسولي**»، قال: لا، والذي بعثك بالحق ما رأيتُه ولا أتاني، وما أقبلتُ إلا حين احتبس عليَّ رسولُ رسولِ الله ﷺ خشيتُ أن تكون كانت سَخْطةٌ من الله ﷻ ورسوله. قال: فنزلت الحجرات: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ بِنَبَإٖ فَتَبَيَّنُوٓاْ أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ۝٦﴾ إلى هذا المكان: ﴿فَضۡلٗا مِّنَ ٱللَّهِ وَنِعۡمَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ ۝٨﴾[1].

قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن جَآءَكُمۡ فَاسِقُۢ﴾ وهو الخارج عن طاعة الله بإظهار المعصية، ويذكر المفسرون أن هذا الوصف منطبق على الوليد بن عقبة لما بدر منه في ذلك الحين من الكذب على بني المصْطَلِق عند رسول الله ﷺ، ولا يلزم ثبوت هذا الوصف للوليد مدة حياته، فلا بد أنه تاب ورجع إلى حظيرة الرشد؛ والله أخبر أنه رضي عن صحابة نبيّه ﷺ، وهو تعالى لا يرضى عن القوم الفاسقين، ومن أصول أهل السُّنَّة أن جميع الصحابة عدول.

وذهب بعض المفسرين إلى أن الوليد بن عقبة لم يتعمَّد الكذب؛ بل ظنَّ ظنًّا فأخطأ، والمخطئ لا يسمَّى فاسقًا، والله أعلم.

---

(١) رواه الإمام أحمد في المسند (١٨٤٥٩)، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد (٧/ ١٠٩): «رجال أحمد ثقات». وقال السيوطي في «الدر المنثور» (١٣/ ٥٤٦): «إسناده جيد». وقال الألباني في «السلسلة الصحيحة» (٣٠٨٨): «إسناده صحيح، ورجاله كلهم ثقات». وقال محققو المسند: «حسن بشواهده».

قوله تعالى: ﴿بِنَبَإٍ﴾؛ أي: بخبر ﴿فَتَبَيَّنُوٓاْ﴾؛ أي: فتثبَّتوا من صحة الخبر قبل تصديقه ولا تعجلوا، ويؤيد هذا التفسير قراءة حمزة والكسائي وخلف: (فَتَثَبَّتُوا)، فخبر الفاسق لا يصدَّق ولا يكذَّب؛ بل ينظر فيه إلى الأدلة والقرائن؛ فإن دلَّت الأدلة على صدقه صار صدقًا، وإن دلَّت على كذبه صار كذبًا.

والآية دليل على أن خبر الصادق مقبول، وخبر الكاذب مردود، وخبر الفاسق متوقَّف فيه، فيجب فيه التثبُّت حتى يتبيَّن صدقه فيُقبل، أو كذبه فيُرد، ولهذا كان الأئمة يقبلون روايات كثير من الخوارج وغيرهم من أهل البدع المعروفين بالصدق، ولو كانوا فسَّاقًا.

قوله تعالى: ﴿أَن تُصِيبُواْ قَوۡمَۢا بِجَهَٰلَةٖ﴾؛ أي: خشيةَ أن تصيبوا قومًا بأذى جاهلين حالهم، والجار والمجرور ﴿بِجَهَٰلَةٖ﴾ متعلق بحال محذوفة تقديرها: كائنين؛ أي: ملابسين الجهالة ﴿فَتُصۡبِحُواْ عَلَىٰ مَا فَعَلۡتُمۡ نَٰدِمِينَ ٦﴾؛ أي: فتصيروا على ما فعلتم معهم نادمين، وتتمنَّوا أنكم لم تفعلوا ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَٱعۡلَمُوٓاْ﴾ أيها المؤمنون ﴿أَنَّ فِيكُمۡ﴾؛ أي: بين ظهرانَيكم ﴿رَسُولَ ٱللَّهِۚ﴾ وهو النبي الموحى إليه، المعصوم الرحيم بأمته، وليس المراد من هذا مجرد الخبر؛ بل المقصود لازمه، وهو إرشادهم بأن عليهم أن يطيعوه عليه الصلاة والسلام، ويَصْدُروا عن أمره في كل شيء ﴿لَوۡ يُطِيعُكُمۡ فِي كَثِيرٖ مِّنَ ٱلۡأَمۡرِ﴾؛ أي: لو يطيعكم في كثير مما تقترحونه وليس صوابًا ﴿لَعَنِتُّمۡ﴾؛ أي: لوقعتم في العَنَت وهو المشقة ﴿وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ حَبَّبَ إِلَيۡكُمُ ٱلۡإِيمَٰنَ﴾؛ أي: إذا لم يُجِبْكم النبي ﷺ إلى ما تقترحونه فلن تكرهوا ذلك؛ لأن الله حبَّب إليكم الإيمان؛ يعني: جعله محبوبًا لديكم ﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾؛ أي: وحسَّنه ﴿فِي قُلُوبِكُمۡ وَكَرَّهَ إِلَيۡكُمُ﴾؛ أي:

وبغَّض إلى نفوسكم ﴿ٱلْكُفْرَ﴾ وهو ضد الإيمان ﴿وَٱلْفُسُوقَ﴾؛ أي: الخروج عن طاعة الله بفعل الكبائر ﴿وَٱلْعِصْيَانَۚ﴾؛ أي: عصيان الله بالصغائر، فجاءت الآية على أسلوب التَّدلِّي من الأكبر إلى الأصغر؛ فالمراد أن الله منَّ على المؤمنين بحب الإيمان وبغض ما يناقضه أو يثلمه ﴿أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلرَّٰشِدُونَ ⑦﴾ التفات من الخطاب إلى الغيبة؛ أي: المستقيمون على طريق الحق الثابتون عليه، وفي الآية أسلوب حصر؛ أي: هم أهل الرشاد لا غيرهم.

قوله سبحانه: ﴿فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ﴾؛ أي: منحكم الله ما ذكر من التحبيب والتزيين والتكريه وما أثمره من الرشد فضلًا منه تعالى ﴿وَنِعْمَةًۚ﴾؛ أي: إنعامًا عليكم فاشكروه تعالى على ذلك ﴿وَٱللَّهُ عَلِيمٌ﴾؛ أي: واسع العلم، وهو تعالى أعلم بمن يشكره من عباده ﴿حَكِيمٌ ⑧﴾؛ أي: حكيم في أقواله وأفعاله وشرعه وقدَره، فلا يفعل إلا ما تقتضيه الحكمة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تشريف المؤمنين بتخصيصهم بالخطاب مرة بعد مرة.

٢ ـ وجوب التثبُّت في خبر الفاسق بتحرِّي ما يدل على صدقه أو كذبه.

٣ ـ أن خبر الفاسق لا يُقبل ولا يرد ابتداءً.

٤ ـ اشتراط العدالة في المخبِر بأمرٍ ما.

٥ ـ قبول خبر الواحد العدل.

٦ ـ أن سبب التوقف في خبر الفاسق هو ما يُخشى من غلطه أو كذبه.

٧ ـ أن عدم التثبُّت في خبر الفاسق قد يؤدِّي إلى الظلم ثم الندم، وهو ما يحصل بتصديق النَّمَّام.

٨ ـ أن القراءات يفسِّر بعضها بعضًا، وقد قيل: إن القراءة بمنزلة آية أخرى إذا اختلف معناهما.

٩ ـ أن طاعة ولي الأمر لمطالب الرعية في شأن السياسة قد يعود عليهم بضد مقصودهم.

١٠ ـ أن الصواب في الرأي ليس من لوازم رأي الأكثر.

١١ ـ الاقتصاد في الحكم؛ لقوله: ﴿فِي كَثِيرٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ﴾.

١٢ ـ أن الصحابة يخطئون ويصيبون فيما يرونه مصلحة، ولهذا قال سبحانه: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

١٣ ـ أن وجود الرسول ﷺ بين ظهرانَيهم يوجب الرجوع إليه، وعدم الاستبداد بالرأي دونه.

١٤ ـ أن وجود العالِم بسُنَّة الرسول ﷺ بين الناس يمنع من التخبُّط في الرأي.

١٥ ـ منَّة الله على أصحاب رسوله ﷺ أن حبَّب إليهم الإيمان وزيَّنه في قلوبهم، مما يوجب رضاهم وطاعتهم للرسول ﷺ فيما يراه لهم ولو خالف رأيهم.

١٦ ـ أن تحبيب الإيمان وتزيينه، وتكريه الكفر من أعظم فضل الله على العبد وإنعامه.

١٧ ـ الرد على القدرية.

١٨ ـ تفاوت الذنوب في حكمها وحكم فاعلها؛ لقوله: ﴿وَكَرَّهَ إِلَيْكُمُ ٱلْكُفْرَ وَٱلْفُسُوقَ وَٱلْعِصْيَانَ﴾.

١٩ ـ إثبات أفعال الله الاختيارية؛ لقوله: ﴿حَبَّبَ﴾ و﴿وَزَيَّنَهُۥ﴾.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: **«ثلاث من كُن فيه وجد حلاوة الإيمان: أن يكون الله ورسوله أحبَّ إليه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يكره أن يعود في الكفر، كما يكره أن يقذف في النار»**[١].

٢١ ـ أن محبَّة الإيمان وكراهة الكفر غاية الرسل.

٢٢ ـ أن مَرَدَّ هذا الفضل والإنعام إلى علم الله وحكمته.

٢٣ ـ إثبات الاسمين الكريمين: العليم والحكيم، وما تضمَّناه من صِفْتي العلم والحكمة.

---

(١) رواه البخاري (١٦)، وفي مواضع أخرى، ومسلم (٤٣) عن أنس رضي الله عنه.

ولما كانت الأخبار الباطلة سببًا في وقوع الفتن والقتال بين المسلمين، أرشد سبحانه عباده إلى ما يجب حينئذ؛ فقال تعالى:

﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا ۖ فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ فَقَـٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن فَآءَتْ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ وَأَقْسِطُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ﴿٩﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان أمر الله تعالى المؤمنين بالإصلاح بين الطائفتين منهم إذا اقتتلوا، وبقتال الباغية منهما التي لم تقبل الصلح؛ لترجع عن البغي وتقبل الصلح، ثم يأمر تعالى بإصلاح آخر بعد القتال وفَيئة الطائفة الباغية؛ فالإصلاح الأول لمنع القتال، والإصلاح الثاني لأداء الحقوق، فقال: ﴿بِٱلْعَدْلِ﴾ فيراعَى في الإصلاح حقوق كل من الطائفتين، فلا تُحابَى إحداهما على الأخرى.

ثم أخبر تعالى بالسبب الموجب لهذه الرعاية والعناية بِكفِّ القتال وأداء الحقوق، وهو أخوة الإيمان، فقال سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾، ثم أكَّد الأمر بالإصلاح الأول والثاني مذكرًا بالسبب المقتضي له فقال تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، ثم وصَّى المؤمنين عامة بالوصية الجامعة التي وصَّى الله بها الأولين والآخرين، وبيَّن أن العمل بها سبب الرحمة، فقال: ﴿وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾﴾.

التفسير:

ذكر كثير من المفسرين أن لقوله سبحانه: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ

﴿ٱقۡتَتَلُواْ﴾ سبب نزول، وهو ما أخرجه الشيخان عن أنس رضي الله عنه قال: «قيل للنبي ﷺ: لو أتيت عبد الله بن أُبيٍّ، فانطلق إليه النبي ﷺ، وركب حمارًا، فانطلق المسلمون يمشون معه، وهي أرض سَبِخة، فلما أتاه النبيُّ ﷺ قال: إليكَ عني، والله لقد آذاني نتْن حمارك، فقال رجل من الأنصار منهم: واللهِ لحمارُ رسول الله ﷺ أطيب ريحًا منك، فغضب لعبد الله رجل من قومه فشتمه، فغضب لكل واحد منهما أصحابه، فكان بينهما ضرب بالجريد والأيدي والنعال، فبلغنا أنها نزلت: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ فَأَصۡلِحُواْ بَيۡنَهُمَاۖ﴾»[(١)].

وذهب بعض المفسرين إلى نفي هذا السبب؛ نظرًا إلى أن هذه السورة نزلت سنة تسع؛ أي: عام الوفود، والقصة المذكورة في الخبر وقعت قبل غزوة بدر، وكان ابن أُبيٍّ وأصحابه كفارًا، فلا ينطبق عليهم قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱقۡتَتَلُواْ﴾، ولهذا لم يجزم أنس رضي الله عنه بكون القصة هي سبب نزول الآية؛ بل قال: بلغنا أنها نزلت.

وأما ما رواه الشيخان عن أسامة بن زيد رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ أردفه على حمار على قطيفة فَدَكيَّة، يعود سعد بن عبادة في بني الحارث بن الخزرج قبل وقعة بدر، قال: حتى مر بمجلس فيه عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول، وذلك قبل أن يسلم عبد الله بن أبيٍّ، فإذا في المجلس أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود والمسلمين، وفي المجلس عبد الله بن رواحة، فلما غشيت المجلس عَجاجة الدابة خمَّر عبد الله بن أبيٍّ أنفه بردائه، ثم قال: لا تُغبِّروا علينا، فسلم رسول الله ﷺ عليهم، ثم وقف فنزل، فدعاهم إلى الله، وقرأ عليهم القرآن، فقال عبد الله بن أبيٍّ ابن سلول: أيها المرء؛ إنه لا أحسن مما تقول إن كان

(١) البخاري (٢٦٩١)، ومسلم (١٧٩٩).

حقًّا فلا تؤذنا به في مجالسنا، ارجع إلى رحلك فمن جاءك فاقصص عليه.

فقال عبد الله بن رواحة: بلى يا رسول الله؛ فاغشنا به في مجالسنا فإنا نحبُّ ذلك، فاستبَّ المسلمون والمشركون واليهود حتى كادوا يتثاورون، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم حتى سكنوا[١]. فهذا الحديث ليس فيه ذكر لنزول الآية، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن طَآئِفَتَانِ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱقْتَتَلُوا۟﴾؛ أي: تقاتلوا قتال بغي؛ إما لرئاسة أو لعصبيَّة، أو بسبب عدوان من إحداهما على الأخرى، فالآية نازلة في البغاة وليست في الخوارج الذين يكفِّرون المؤمنين، ويستحلون دماءهم، للبدعة التي انتحلوها، وهي التكفير بالذنب، فهم شرٌّ من البغاة، فثمَّ فرق بين الطائفتين، كما يدل على ذلك نصوص السُّنَّة وعمل الصحابة.

والجمع في ﴿ٱقْتَتَلُوا۟﴾ مراعاة للمعنى؛ لأن كل طائفة تضم جماعة، فهي بمعنى القوم ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بين الطائفتين، وهذا رجوع إلى لفظ المثنى، وهو من التنوُّع في الكلام، وهو معروف في أساليب البلغاء، ويسمَّى: الحمل على المعنى، والحمل على اللفظ.

قوله تعالى: ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: بالوعظ والإرشاد والدعوة إلى حكم الشرع، والتذكير بأخوة الإسلام، وبالدعاء لهما، وغير ذلك مما يكون سببًا للإصلاح، والخطاب في الآية لولاة الأمر، أو مَن له قدرة، وهو خارج الطائفتين، فإن لم يكن في الوجود إلا هاتان الطائفتان

---

(١) البخاري (٤٢٩٠)، ومسلم (١٧٩٨).

المقتتلتان فالخطاب لهما؛ إذ تؤمران بالصلح ﴿فَإِنۢ بَغَتْ إِحْدَىٰهُمَا عَلَى ٱلْأُخْرَىٰ﴾؛ أي: فإن اعتدت إحدى الطائفتين على الأخرى واستطالت بغير حق، ولم تقبل الصلح والرجوع إلى حكم الله ﴿فَقَٰتِلُوا۟ ٱلَّتِى تَبْغِى﴾؛ أي: تظلم وتعتدي ﴿حَتَّىٰ تَفِىٓءَ إِلَىٰٓ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ الفيئة هي الرجوع إلى حالة محمودة؛ أي: حتى ترجع إلى حكم الله، وتقلع عن البغي، و﴿حَتَّىٰ﴾ للغاية، فهي بمعنى (إلى).

وإن امتنعت الطائفتان معًا عن الصلح، وأصرَّتا على القتال والانتقام حتى تُفني إحداهما الأخرى، فيجب قتال الطائفتين لِكَفِّ كلٍّ واحدة منهما عن الأخرى، لاستحقاقهما وصف البغي جميعًا.

وإذا قوتل البغاة فلا يُجهَز على جريحهم، ولا يُطلب هاربُهم، ولا يُقتل أسيرُهم، ولا يُقسم مالُهم؛ لأنهم مؤمنون ويرجى استصلاحهم، كما أنهم لا يقاتَلون حتى يقاتِلوا أو يعزموا على القتال، خلافًا للخوارج الذين هم شرٌّ من البغاة؛ فإنهم يُبدؤون بالقتال إذا كانت لهم شوكة ومنعة ولو لم يقاتِلوا، ويُجهزُ على جريحهم، ولهذا قال ﷺ: «**أينما لقيتموهم فاقتلوهم؛ فإن في قتلهم أجرًا لمن قتلهم يوم القيامة**»[1]، وقال عليه الصلاة والسلام: «**لئن أنا أدركتهم لأقتلنهم قتل عاد**»[2].

قوله تعالى: ﴿فَإِن فَآءَتْ﴾؛ أي: فإن رجعت الطائفة الباغية إلى الحق، وتركت الظلم والبغي ﴿فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَهُمَا بِٱلْعَدْلِ﴾؛ أي: بالإنصاف، ويجب الكفُّ عن قتالهم، وهذا أمر بالصلح، وبالعدل في الصلح، فإن الصلح قد يوجد، ولكن لا يكون بالعدل؛ بل بظلم إحدى الطائفتين وهو محرَّم، وقد يؤدي إلى ثَوَران الفتنة بينهما مرة أخرى، وهذا الإصلاح

---

(١) البخاري (٦٥٣١)، ومسلم (١٠٦٦) عن علي رضي الله عنه.
(٢) البخاري (٣١٦٦)، ومسلم (١٠٦٤) عن أبي سعيد رضي الله عنه.

المأمور به غير الإصلاح الأول؛ الإصلاح الأول لكف القتال، والثاني لإزالة آثار القتال، وتضمين كل واحدة ما أتلفت على الأخرى من الأنفس والأموال.

قوله تعالى: ﴿وَأَقْسِطُوٓاْ﴾؛ أي: واعدلوا في جميع أموركم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ ۝٩﴾؛ أي: العادلين في أقوالهم وأفعالهم، وهذا ترغيب في العدل، قال رسول الله ﷺ: «**إن المقسطين عند الله على منابر من نور، عن يمين الرحمٰن ﷻ، وكلتا يديه يمين، الذين يعدلون في حكمهم وأهليهم وما وَلُوا**»[1]، ومحبة الله تعالى فعل يقوم به سبحانه بمشيئته عند وجود مقتضيه، وليست كمحبة المخلوق.

قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ هذا تنبيه على المقتضي للإصلاح، وهو أخوة الإيمان، وهي أعظم من أخوة النسب، ولهذا قال: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، فهم إخوان وإن تقاتلوا، فهذا القتال لا يسلبهم وصف الإيمان، فأما قوله ﷺ: «**سباب المسلم فسوق، وقتاله كفر**»[2]؛ فالمراد: الكفر الأصغر غير المخرج من الملة.

والتثنية في قوله: ﴿فَأَصْلِحُواْ بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾؛ لأن النزاع لا يكون إلا بين اثنين، وقد يمتد إلى الجماعة، وترتيب الأمر بالإصلاح على وصف الأخوة بالفاء يفيد أن وصف الأخوة عِلة الأمر بالإصلاح، ويؤكده قوله: ﴿بَيْنَ أَخَوَيْكُمْ﴾، ووضع الاسم الظاهر موضع الضمير، فلم يقل: فأصلحوا بينهما، وأضافهم إلينا؛ للحضِّ على المبادرة في الإصلاح ﴿وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ﴾ بفعل أوامره، واجتناب مناهيه ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾؛ أي: كي تُرحموا وتَظفروا برضوانه تعالى.

---

(١) رواه مسلم (١٨٢٧) عن عبد الله به عمرو رضي الله عنه.

(٢) البخاري (٤٨)، ومسلم (٦٤) عن ابن مسعود.

الفوائد والأحكام:

١ ـ تحريم القتال بين المؤمنين.

٢ ـ أن القتال بين المؤمنين لا يُزيل عنهم وصف الإيمان.

٣ ـ الرد على الخوارج والمعتزلة.

٤ ـ وجوب الإصلاح بين المقتتلين لمنع القتال.

٥ ـ الأمر بقتال الطائفة الباغية.

٦ ـ أنه لا يُبدأ بالقتال، بل يُبدأ بالإصلاح.

٧ ـ أن الغاية من قتال الفئة الباغية: أن ترجع إلى شرع الله وحكمه، وتقبل الصلح.

٨ ـ أن من رجع من الفئة الباغية وأدبر فلا يُتبَع.

٩ ـ الأمر بالإصلاح بعد فَيئة الباغية.

١٠ ـ وجوب تَوَخِّي العدل في الصلح.

١١ ـ أن الله يحب المقسطين.

١٢ ـ إثبات صفة المحبة لله تعالى.

١٣ ـ وجوب العدل مع كل أحد، مع العدو والصديق، والقريب والبعيد.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَّا يَنْهَىٰكُمُ ٱللَّهُ عَنِ ٱلَّذِينَ لَمْ يُقَٰتِلُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ أَن تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوٓا۟ إِلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

١٥ ـ أن دين الإسلام هو دين العدل الذي لا تقوم مصالح العباد ولا تستقيم عقولهم ولا أعمالهم إلا به، ولا يبلغ هذه المرتبة شيء من القوانين التي من وضع البشر.

١٦ ـ أن أخوَّة الإيمان تقتضي ترك القتال وأداء الحقوق، والسعيَ في ذلك بالإصلاح أو القتال إذا لم يكن منه بدٌّ.

١٧ ـ إثبات أخوة الإيمان بين المؤمنين.

١٨ ـ تأكيد اتصاف المؤمنين بالأخوة الإيمانية، حتى كأنهم لا صفة لهم غيرها، كما يفيده القصر بـ﴿إِنَّمَا﴾.

١٩ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا﴾ [آل عمران: ١٠٣]، وقوله ﷺ: **«وكونوا عباد الله إخوانًا»**[(١)].

٢٠ ـ وجوب تقوى الله في كل شيء.

٢١ ـ أن تقوى الله سبب للرحمة.

٢٢ ـ إثبات صفة الرحمة لله.

٢٣ ـ جواز جعل الفعل المضاف إلى الله مغيَّر الصيغة؛ أي: مبنيًّا للمفعول؛ للعلم بالفاعل؛ لقوله: ﴿لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ۝١٠﴾.

٢٤ ـ أن دين الإسلام دين الرحمة والإحسان.

٢٥ ـ أن من أعظم موانع الرحمة: عدم القيام بحقوق المؤمنين.

٢٦ ـ أن من أحكام دين الإسلام أحكام السياسة.

---

(١) البخاري (٢٥٤٥)، ومسلم (١٧٩٩).

ولما بيَّن تعالى حكم الاقتتال بين المؤمنين، نهى سبحانه عن موجبات الشر والفتنة، فقال سبحانه:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيتان نهي الله المؤمنين والمؤمنات عن سُخرية بعضهم من بعض، وعن اللمز فيما بينهم، وعن التنابُز بالألقاب، ثم يأمرهم تعالى باجتناب كثير من الظن؛ لأن بعض الظن إثم، ثم ينهاهم عن تجسُّس بعضهم على بعض، وعن اغتياب بعضهم لبعض، وينفرهم عن ذلك بتشبيه غيبة المؤمن بأكل لحمه ميتًا، ثم يختم الله ذلك كله بالوصية بتقواه، ويدخل في ذلك التوبة من المخالفات، ويذكرهم تعالى أنه هو التواب الرحيم.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ ناداهم بوصف الإيمان؛ تنبيهًا على أن الإيمان يقتضي الكفَّ عن كل قبيح ﴿لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ﴾ السخرية هي استهزاء مع احتقار؛ أي: لا يهزأ رجال من رجال ﴿عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ﴾ هذا تعليل للنهي؛ أي: عسى أن يكونوا خيرًا عند الله

من الساخرين، كما قال ﷺ: «**كم من أشعث أغبر ذي طِمْرين لا يؤبه له، لو أقسم على الله لأبرّه**»[1].

قوله: ﴿وَلَا نِسَآءٌ﴾؛ أي: ولا يسخرْ نساءٌ ﴿مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ﴾ ذكر النساء؛ لتأكيد النهي عن السخرية، وإلا فالقوم يشمل الجنسين، ويحتمل أن يكون النص عليهما باعتبار الواقع، وهو أن السخرية تكون من الرجال بالرجال، ومن النساء بالنساء ﴿وَلَا تَلْمِزُوٓاْ أَنفُسَكُمْ﴾؛ أي: ولا يعِب بعضُكم بعضًا بقول أو إشارة؛ وقال: ﴿أَنفُسَكُمْ﴾؛ لأن المؤمنين كنفس واحدة، فإذا عاب المؤمن أخاه فكأنما عاب نفسه.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَنَابَزُواْ بِٱلْأَلْقَٰبِ﴾؛ أي: لا يدْعُ بعضكم بعضًا بلقب يكرهه، يقال: نبَزه بوزن ضربه، إذا دعاه بلقب يكرهه على وجه التعيير، وذكر الألقاب للتأكيد؛ كقوله تعالى: ﴿وَلَا طَٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام: ٣٨]، واللقب ما أشعر بمدح أو ذم، كأن يقول له: يا أعور يا أبله، ومثله: يا فاجر يا فاسق، فأما الألقاب التي صارت كالأعلام لأصحابها فلا بأس بها إذا لم يكرهها المدعو بها، وهذا شيء جرى عليه المحدِّثون والكاتبون في تراجم الرجال، كقولهم: الأعمش لسليمان بن مِهران، والأعرج لعبد الرحمٰن بن هُرمز.

قوله تعالى: ﴿بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَٰنِ﴾ ﴿بِئْسَ﴾ فعل ماض لإنشاء الذم، فالجملة إنشائية لإفادة الذم، المعنى: بئس أن تُسَمَّوا بالفسوق وتوصفوا به بعد أن كنتم مؤمنين ﴿وَمَن لَّمْ يَتُبْ﴾ عمَّا نهي عنه من السخرية واللمز والنبز ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿١١﴾﴾؛ أي: لأنفسهم

---

(١) رواه الإمام أحمد (١٢٤٧٦)، والترمذي واللفظ له (٣٥٨٤) عن أنس ﷺ، وابن ماجه (٤١١٥) عن معاذ ﷺ، قال محققو المسند: صحيح لغيره، وصححه الألباني.

بالمعصية ولغيرهم بالعدوان عليهم بالسخرية واللمز والنبز، وضمير الفصل (هم) لإفادة الحصر، فيفيد تأكيد استحقاقهم للوصف بالظلم.

قوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ أعاد خطاب المؤمنين لاختلاف مدخوله، والتنبيه على مضمونه ﴿ٱجۡتَنِبُواْ كَثِيرٗا مِّنَ ٱلظَّنِّ﴾؛ أي: ابتعدوا عن كثير من الظن بإخوانكم المؤمنين، وهو ظن السوء الذي لا مستند له، وذكر الكثير ليُحتاط ويُتحقق في كل ظن، ثم علَّل الأمر باجتناب كثير من الظن فقال: ﴿إِنَّ بَعۡضَ ٱلظَّنِّ إِثۡمٞۖ﴾؛ أي: مؤثم ويستوجب العقوبة، وهو الظن الذي لا دليل عليه، فالمسلم الذي ظاهره العدالة يحرم ظن السوء به، ومن عُرف بِشر فلا إثم على من ظن به شرًّا، ولهذا لم يقل: اجتنبوا جميع الظن.

قوله تعالى: ﴿وَلَا تَجَسَّسُواْ﴾ أصله: (تتجسَّسُوا) حُذفت إحدى التاءين تخفيفًا؛ أي: لا تبحثوا في عورات الناس ﴿وَلَا يَغۡتَب بَّعۡضُكُم بَعۡضًاۚ﴾؛ أي: لا يذكر أحدكم أخاه في حال غيبته بسوء، قال رسول الله ﷺ: «**أتدرون ما الغيبة؟**» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «**ذكرك أخاك بما يكره**»، قيل: أفرأيت إن كان في أخي ما أقول؟ قال: «**إن كان فيه ما تقول فقد اغتبته، وإن لم يكن فيه فقد بهتَّه**»[1].

ثم مثَّل الله ما يفعله المغتاب بأبشع صورة في الطبع والعقل فقال سبحانه: ﴿أَيُحِبُّ أَحَدُكُمۡ أَن يَأۡكُلَ لَحۡمَ أَخِيهِ مَيۡتٗا﴾؛ أي: بعد مماته، والاستفهام للتقرير، وهو الذي يحمل المخاطبين على الإقرار بأنهم لا يحبون ذلك، وقد أجاب الله قبل أن يجيبوا بقوله سبحانه: ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾؛ أي: ما أحببتموه، ومقتضى الظاهر أن يقال: فتكرهونه، ولكن جيء بالماضي لتحقق كراهتهم له، والفاء في ﴿فَكَرِهۡتُمُوهُۚ﴾ هي الفصيحة التي

---

(١) رواه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

تفصح عن شرط مقدر؛ أي: إنْ عُرض عليكم ذلك فقد كرهتموه، المعنى: إذا ثبت عندكم استقذار أكل جيفة أخيكم الميت وكراهتكم له، فلتعلموا أيضًا أن غيبة إخوانكم المسلمين مثل ذلك.

قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ﴾؛ أي: اتقوه بفعل أوامره واجتناب نواهيه، ومن ذلك: أن تتركوا الظن الكاذب والتجسُّس والغيبة ﴿إِنَّ اللَّهَ تَوَّابٌ﴾؛ أي: كثير التوبة على عباده ﴿رَحِيمٌ (١٢)﴾ واسع الرحمة لخلقه، وجمع بين التوبة والرحمة؛ لأن بالرحمة يكون الإحسان؛ وبالتوبة يكون زوال العقوبة؛ فجمع الله بينهما؛ فهو يتوب؛ وإذا تاب تعالى رحم التائب، ويسَّره لليُسرى، وسهَّل له أمور الخير؛ فحصل على الخير العظيم.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ تحريم سخرية المؤمن من المؤمن، والمؤمنة من المؤمنة.

٢ ـ التنبيه على ما يصرف عن السخرية، وهو أن يكون المسخور منه خيرًا من الساخر عند الله.

٣ ـ أن (القوم) إذا كان مقرونًا بالنساء صار المراد به الرجال، وإذا أفرد كان شاملًا للرجال والنساء، كقوم نوح وقوم هود وقوم صالح.

٤ ـ أن المعتبر في الخيرية: منزلة العبد عند الله، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

٥ ـ تحريم اللمز بين المؤمنين والمؤمنات، وتحريم التنابز بالألقاب.

٦ ـ أن هذه الأفعال موجبة لفسق فاعلها؛ لقوله: ﴿بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ﴾.

٧ ـ تحريم احتقار المسلم والمسلمة.

٨ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**بِحَسب امرئ من الشر أن يحقر أخاه المسلم**»[١].

٩ ـ وجوب التوبة من هذه الأقوال والأفعال.

١٠ ـ أن الإصرار عليها ظلم.

١١ ـ الدعوة إلى التوبة، والتحذير من عدمها.

١٢ ـ تحريم ظن السوء بالمؤمن بغير دليل.

١٣ ـ أن ما كان بعضُه إثمًا وجب اجتناب الكثير منه احتياطًا، فهذه الآية أصل في الورع وسد الذرائع.

١٤ ـ تحريم التجسُّس على المسلمين.

١٥ ـ تحريم غيبة المسلم.

١٦ ـ أنها من كبائر الذنوب، لبشاعة المشبَّه به تنفيرًا عنها.

١٧ ـ أن أكل لحم المسلم حرام، فكيف إذا كان ميتًا.

١٨ ـ اقتضاء أخوة الإيمان ترك الغيبة.

١٩ ـ التنفير عن الشيء بالتشبيه بما تكرهه النفوس طبعًا.

٢٠ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ في الغيبة: «**ذكرك أخاك بما يكره**»[٢].

٢١ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**إياكم والظنَّ؛ فإن الظنَّ أكذبُ الحديث ولا تحسَّسوا، ولا تجسَّسوا، ولا تحاسدوا، ولا تدابروا، ولا تباغضوا، وكونوا عباد الله إخوانًا**»[٣].

٢٢ ـ أن المنهيات في الآيتين من أعظم أسباب نشوء العداوات بين

---

(١) رواه مسلم (٢٥٦٤) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٢) رواه مسلم (٢٥٨٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه.
(٣) البخاري (٥٧١٧)، ومسلم (٢٥٦٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه.

المؤمنين، وما ينشأ عنها من الفتن، وبهذا تظهر مناسبة هاتين الآيتين لما قبلهما.

٢٣ ـ أن المنهيات في الآيتين من أعظم ما ينافي الأخوة بين المؤمنين.

٢٤ ـ وجوب تقوى الله في كل شيء.

٢٥ ـ إثبات اسمين من أسماء الله وهما: التواب والرحيم، وما تضمَّناه من صِفَتي التوبة والرحمة.

ولما نهى الله سبحانه عن السخرية واللَّمز والتنابز بالألقاب ذكر ما يؤكد هذا النهي، وهو التذكير بأصل الناس، وهو أنهم مُنحدرون من أب واحد وأم واحدة، فهم سواء في الأصل الذي ابتدئ خلقهم منه؛ فقال سبحانه:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآية تذكير الناس بأنهم جميعًا خُلقوا من أصل واحد، من ذكر وأنثى، فلا تفاضُل بينهم في أصل الخلق، ولكنه تعالى جعلهم شعوبًا وقبائل ليتعارفوا بقبائلهم وأجناسهم، ثم حكم تعالى بأن أكرمَهم عنده أتقاهُم له، ثم أخبر تعالى أنه عليم خبير؛ ليبين أن مَرَدَّ خلقه وشرعه إلى علمه وخبرته.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ﴾ خاطبهم بالاسم العام دون خصوص المؤمنين؛ لمناسبة ما بعده وهو التذكير بأصل الخلق ﴿إِنَّا خَلَقْنَاكُم﴾؛ أي: أوجدناكم بعد العدم ﴿مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ﴾ هما: آدم وحواء، كما قال ﷺ: «**الناس بنو آدم وآدم من تراب**»[1]، وهذا نفيٌ للفوارق بين البشر، فلا تفاضُل بينهم في أجناسهم، وكانوا في الجاهلية يتفاخرون في

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٧٣٦)، وأبو داود (٥١١٦)، والترمذي (٣٩٥٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، قال الترمذي: حسن صحيح، وقال محققو المسند: إسناده حسن.

الأحساب، ويطعنون في الأنساب، فأبطله الإسلام، قال ﷺ: «**أربع في أمتي من أمر الجاهلية لا يتركونهن: الفخر في الأحساب، والطعن في الأنساب، والاستسقاء بالنجوم، والنياحة**»[1].

قوله تعالى: ﴿وَجَعَلْنَٰكُمْ﴾؛ أي: وصيَّرناكم ﴿شُعُوبًا﴾ شتى ﴿وَقَبَآئِلَ﴾ متعددة، والشُّعوب جمع شَعْب ـ بفتح فسكون ـ وهو مجمع القبائل، فهو الأبُ الأكبرُ الذي ينتمون إليه، والشَّعب أعلى طبقات النَّسب، ومنه تتشعَّب القبائل، والعِمارة تحت القبيلة، والبطن تحت العِمارة، والفخذ تحت البطن، والفصيلة تحت الفخذ، والعشيرة تحت الفصيلة، فليس هناك شَعْب أفضل من شَعْب، ولا قبيلة أكرم بأصلها من قبيلة، فهم متساوون باعتبار الأصل الواحد، وليس في كتاب الله آية واحدة يُمدح فيها أحد بنسبه، ولا يُذم أحد بنسبه، وإنما يمدح بالإيمان والتقوى، ويذم بالكفر والفسوق والعصيان.

وذكر الله الحكمة من هذا التشعُّب؛ فقال سبحانه: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾؛ أي: ليعرف بعضكم بعضًا، وليهتدي الإنسان إلى من يقاربه في النسب فَيَصِلُ رَحِمه ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾؛ أي: إن أرفعكم منزلة عند الله في الدنيا والآخرة هو الأتقى، فالتقوى عليها مدار الشرف والمنزلة عند الله ﴿إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ﴾ بجميع أعمالكم وأحوالكم وبكل شيء ﴿خَبِيرٌ ﴿١٣﴾﴾؛ أي: مطَّلع على نواياكم فيجازي كلًّا بما يستحق.

---

(١) رواه مسلم (٩٣٤) عن أبي مالك الأشعري رضي الله عنه.

الفوائد والأحكام:

١ ـ التنبيه على عظمة الله بذكره نفسه تعالى بصيغة الجمع.

٢ ـ تذكير الله الناس بما يعلمون من أصلهم، وإعلامهم ما لا يعلمون.

٣ ـ أن جميع الناس خُلقوا من أصل واحد من ذكر وأنثى، وهو آدم وحَواء.

٤ ـ أن كل إنسان مخلوق من ذكر وأنثى وهما أبوه وأمه.

٥ ـ أن الله جعل الناس أجناسًا وقبائل، كلُّ قبيلة ترجع إلى أب واحد تختص به، وتُنسَب إليه.

٦ ـ الفرق بين الفعلين (خلق) و(جعل)، وهو أن الخلق أخصُّ بإيجاد الذوات، والجعل أخص بإيجاد الصفات، وجعَل في الآية بمعنى صيَّر.

٧ ـ الندب إلى معرفة الأنساب.

٨ ـ أن معرفة النسب من أسباب التعارُف.

٩ ـ الندب إلى التعارُف بين الناس؛ لأنه الحكمة من جعل الناس شعوبًا وقبائل.

١٠ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعاله تعالى؛ لقوله: ﴿لِتَعَارَفُوٓاْ﴾.

١١ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**تعلموا من أنسابكم ما تصلون به أرحامكم**»[1].

---

(١) رواه الإمام أحمد (٨٨٦٨)، والترمذي (١٧٩٧)، واستغربه، عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال محققو المسند: «سنده حسن، وصحَّحه الألباني».

١٢ ـ إثبات عندية الحكم لله تعالى؛ لقوله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾.

١٣ ـ أنه لا تفاضُل بين القبائل والشعوب إلا بالتقوى والعمل الصالح.

١٤ ـ أن الناس متفاضلون عند الله.

١٥ ـ أن أكرم الناس عند الله أتقاهم.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله ﷺ: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا أحمر على أسود، ولا أسود على أحمر، إلا بالتقوى**»[١].

١٧ ـ الترغيب في التقوى.

١٨ ـ أن المعتبر في كفاءة النكاح الدِّين، لا النسب ولا غيره.

١٩ ـ تحريم الفخر بالأنساب.

٢٠ ـ إثبات اسمَين من أسمائه تعالى، وهما: العليم والخبير، وما تضمَّناه من صِفَتي العلم والخبرة.

٢١ ـ الإشارة إلى تزكية النفوس مما ينافي تقوى الله.

---

(١) رواه الإمام أحمد (٢٣٤٨٩) عن أبي نضرة رضي الله عنه، قال محققو المسند: إسناده صحيح.

ولما بيَّن تعالى أن مَناط الفضل والشرف التقوى، ذمَّ من ادَّعى منزلةً من الإيمان والتقوى لم يبلغها؛ فقال سبحانه:

۞ ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ ءَامَنَّاۖ قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْۖ وَإِن تُطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَٰلِكُمْ شَيْـًٔاۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿١٥﴾﴾.

▣ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر عن جماعة من الأعراب جاؤوا إلى النبي ﷺ، وقالوا له: ﴿ءَامَنَّا﴾ مانِّين عليه بإسلامهم، مدَّعين مرتبة لم يبلغوها من الدين وهي الإيمان، فأمر الله نبيَّه ﷺ بما ينبغي أن يقوله مما هو صادق عليهم، فقال سبحانه: ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا۟ وَلَٰكِن قُولُوٓا۟ أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ ٱلْإِيمَٰنُ فِى قُلُوبِكُمْ﴾، ثم ندبهم إلى طاعة الله ورسوله، وأنهم إذا فعلوا ذلك لم ينقصهم الله من أعمالهم شيئًا لقولهم: أسلمنا، فلا يمنعنكم خوف النقص من أعمالكم من أن تقولوا: أسلمنا بدل آمنَّا، ثم أخبر تعالى عن المؤمنين حقًّا بأنهم آمنوا بالله ورسوله ثم لم يطرأ عليهم شكٌّ، وجاهدوا في سبيل الله بأموالهم وأنفسهم، ووصفهم بأنهم الصادقون؛ أي: في إيمانهم.

▣ التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قَالَتِ ٱلْأَعْرَابُ﴾ الأعراب اسم جنس جمعي واحده أعرابيٌّ، وهم البدو سكان البادية، و(أل) في الأعراب للعهد الذهني؛ فالمراد: جماعةٌ معيَّنةٌ من أعراب بني أسد بن خزيمة ﴿ءَامَنَّا﴾؛ أي:

صدَّقنا بالله ورسوله ودخلنا في الدِّين ﴿قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا﴾؛ أي: قل لهم - أيها الرسول -: لم تؤمنوا بقلوبكم؛ لأن الإيمان يقتضي تصديقَ القلب مع اللسان ﴿وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا﴾؛ أي: انقدنا ظاهرًا فحسب، وفي الكلام رفق بهم في خطابهم؛ إذْ لم يقل لهم: كذبتم في قولكم.

قوله تعالى: ﴿وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾؛ أي: ولم يدخل الإيمان إلى الآن في قلوبكم، ولكن ذلك مرجوٌّ لكم، فإنَّ (لما) وإن كانت أخت (لم) في النفي؛ فإنها تدل على قرب وقوع ما دخلت عليه، كما قال تعالى: ﴿بَل لَّمَّا يَذُوقُوا عَذَابِ﴾ [ص: ٨]؛ أي: سيذوقونه.

وليس هؤلاء الأعراب منافقين، كما ذهب إليه بعض المفسرين؛ لأنهم لو كانوا كذلك لفضحهم القرآن؛ بل هؤلاء معهم أصل الإيمان والتصديق، خلافًا للمنافقين الذين يقولون بألسنتهم ما ليس في قلوبهم، وفرَّقت الآية بين الإسلام والإيمان؛ بأن الإسلام يختص بالأعمال الظاهرة، والإيمان يختص باعتقاد القلب، لكن لو أفرد أحدهما دخل فيه الآخر، كما يقال ذلك في نظائره؛ كالفقير والمسكين، والبر والتقوى.

قوله سبحانه: ﴿وَإِن تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ﴾؛ أي: إن تطيعوا الله ورسوله - أيها الأعراب - بالإيمان الصادق ظاهرًا وباطنًا، وبالقيام بما وجب عليكم من الأعمال، والانكفاف عن المحرمات ﴿لَا يَلِتْكُم مِّنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا﴾؛ أي: لا ينقصكم الله شيئًا من أجور أعمالكم؛ بل يثيبكم الثواب الجزيل، يقال: لاتَه يلِيتُه، بوزن باعه يبيعُه، إذا نقصَه وبَخسه، ولهذا الفعل صيغة أخرى في الاستعمال العربي، وهي: أَلَته يأْلِته، بوزن ضَرَبه يضربِه، وبها قرأ أبو عمرو ويعقوب: (لا يأْلِتُكم)، وعليها قوله تعالى: ﴿وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ﴾ [الطور: ٢١]، وهذا من التنويع في الأساليب، وهو ضرب من البلاغة.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ﴾؛ أي: كثير المغفرة لذنوب عباده، فيستر ذنوبهم، ويتجاوز عنهم ﴿رَّحِيمٌ ١٤﴾؛ أي: واسع الرحمة، وفي ذلك بشارة لأولئك الأعراب بمغفرة الله ورحمته لهم إذا هم أطاعوا الله ورسوله.

قوله سبحانه: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ﴾ هذا من جملة ما أُمِر النبي ﷺ أن يقوله للأعراب؛ ليُبيِّن لهم صفات المؤمنين الكُمَّل؛ أي: إنما المؤمنون ـ حقًّا ـ هم الذين آمنوا بالله ورسوله إيمانًا يواطئ فيه القلبُ اللسان، ويصدق فيه العملُ القول، وهذه صفة المذكورين في هذه الآية، وفي الآية حصر صفة على موصوف، حصر الإيمان على مَن ذُكِر ﴿ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا۟﴾؛ أي: آمنوا إيمانًا صادقًا، ثم لم يقع في قلوبهم شك فيما آمنوا به، و(ثم) للتراخي الرُّتبي إشارة إلى عظيم منزلة الثبات؛ إذْ بها قوام الإيمان ﴿وَجَـٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ﴾؛ أي: قاتلوا أعداء الله وأعداءهم الكفار، وبذلوا أموالهم وأنفسهم ﴿فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾؛ أي: في طريق طاعة الله؛ أي: لوجه الله تعالى وإعلاء كلمته، لا سمعة ولا رياء، والجهاد أعظم مصدِّق لدعوى الإيمان، وتقديم الأموال على الأنفس؛ لأنها التي يبتدأ بها عند الإعداد للقتال؛ فالتقديم باعتبار الواقع المحسوس، وهو أن بذل الأموال قبل بذل النفوس.

قوله تعالى: ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّـٰدِقُونَ ١٥﴾ هذه صيغة حصر بتعريف الطرفين، حصر صفة الصدق في المؤمنين الموصوفين بتلك الصفات، واسم إشارة البعيد ﴿أُو۟لَـٰٓئِكَ﴾ لعلو منزلتهم؛ أي: أولئك هم ـ وحدهم ـ الذين صدَقوا في إيمانهم، وفيه تعريض بالأعراب بأنهم لم يبلغوا هذه المنزلة.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ غلبة الجهل والجفاء على الأعراب.

٢ ـ أن الأعراب الذين جاؤوا إلى النبي ﷺ مسلمون لا منافقون.

٣ ـ أن الإيمان لم يتمكن من قلوبهم.

٤ ـ علم الله بأحوال القلوب.

٥ ـ إطْلاع الله نبيَّه ﷺ على حقيقة هؤلاء الأعراب.

٦ ـ الفرق بين مرتبتي الإسلام والإيمان.

٧ ـ أن مرتبة الإيمان أعلى من مرتبة الإسلام.

٨ ـ الرد على الكرَّامية الذين يقولون: الإيمان هو الإقرار باللسان.

٩ ـ عدم وجوب الاستثناء في دعوى الإيمان بالجملة الفعلية، كقول من يقول: آمنتُ، دون الاسمية كقوله: أنا مؤمن.

١٠ ـ ذمُّ المبالغة في مدح الإنسان نفسه.

١١ ـ إرشاد من أخطأ في الحكم إلى الصواب.

١٢ ـ أن من دخل الإسلام صادقًا يرجى له أن يتمكن الإيمان في قلبه بعدُ.

١٣ ـ أن من أطاع الله ورسوله من حديثي العهد بالإسلام، ولم يبلغ مرتبة الكُمَّل من المؤمنين، لا ينقصه الله من أجر طاعته شيئًا.

١٤ ـ أن علامة الصدق في الإيمان: اليقين والجهاد في سبيل الله.

١٥ ـ فضل الجهاد في سبيل الله.

١٦ ـ أن القعود عن الجهاد علامة ضعف الإيمان.

١٧ ـ اعتبار الإخلاص لله في الجهاد وفي كل عمل؛ لقوله: ﴿فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾.

١٨ ـ أن الارتياب لا يجامع الإيمان الصادق.

١٩ ـ في الآية شاهد لما وصف الله به المهاجرين بقوله سبحانه: ﴿لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ﴾ [الحشر: ٨].

۞ قال تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ ﴿١٦﴾ يَمُنُّونَ عَلَيْكَ أَنْ أَسْلَمُوا۟ قُل لَّا تَمُنُّوا۟ عَلَىَّ إِسْلَٰمَكُم بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾ إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات أمر الله نبيَّه ﷺ أن ينكر على أولئك الذين جاؤوا يدَّعون الإيمان، وكأنهم يعلِّمون اللهَ بما لا يعلم، وأن يخبرهم الرسول بأن علمه تعالى محيط بما في السماوات وما في الأرض، ثم يذمهم تعالى بمنّتهم على الرسول ﷺ بإسلامهم، ويأمر الله نبيَّه أن ينهاهم عن المنَّة عليه بإسلامهم إن كانوا صادقين، وأن يعلمهم بأن المنَّة لله عليهم أن هداهم للإيمان، ثم أكَّد تعالى ما أخبر به من إحاطة علمه بما في السماوات والأرض وبكل شيء فقال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ﴾ هذا من تتمة الإنكار على الأعراب في دعواهم الإيمان، ولمَّا يدخلْ في قلوبهم؛ فالله يأمر نبيه ﷺ أن يقول لهم: أتخبرون الله بالدين الذي تدينون به، وبما في ضمائركم من الإيمان والتصديق؟ والاستفهام إنكار عليهم وتوبيخ لهم في دعوى الإيمان ولم يؤمنوا الإيمان الحق؛ فإنَّ الله عليم بأحوالهم، ومطَّلع على ما في قلوبهم، ولهذا أخبرهم سبحانه بعموم علمه بما في السماوات والأرض فقال سبحانه: ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ فلا

تخفى عليه خافية فيهما، ومن كان هذا وصفه في العلم فليس بحاجة إلى أن يعلمه أحد بما هو به عليم.

وتخصيص السماوات والأرض بالذكر؛ لأنهما منتهى علم المخاطبين، والأكثر في القرآن تقديم السماوات على الأرض، وذلك لعظمها وعلوها وشرف سكانها، والتعبير بالمضارع ﴿يَعۡلَمُ﴾ لدوام علمه سبحانه وشموله لكل ما يقع في كل زمان، فهو تعالى لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في السماء ولا أصغر من ذلك ولا أكبر، ولا يخفى عليه سرٌّ ولا علانية، ولهذا قال سبحانه مؤكِّدًا عموم علمه على سبيل التَّرَقِّي: ﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ١٦﴾ فهذا عموم لا أعمَّ منه، ولا مخصِّص له، وفيه تحذيرٌ لأولئك الأعراب من سوء مقالتهم، ولمن كان مثلهم، وترغيبٌ لهم في الإيمان والعمل الصالح.

روى النسائي في «الكبرى» عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قدم وفد بني أسد على رسول الله ﷺ، فتكلموا، فقالوا: قاتلتك مضر، ولسنا بأقلهم عددًا، ولا أكَلِّهم شوكة، وصَلْنا رحمك، فقال لأبي بكر وعمر رضي الله عنهما: **«أيتكلَّمون هكذا؟»**، قالوا: لا، قال: «**إنَّ فقه هؤلاء قليل، وإن الشيطان ينطق على ألسنتهم**»، قال عطاء في حديثه: فأنزل الله جلَّ وعزَّ: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ الآية[1].

قوله تعالى: ﴿يَمُنُّونَ عَلَيۡكَ أَنۡ أَسۡلَمُواْۖ﴾ المنُّ هو: تعداد النعم على المنعَم عليه، وهو مذموم من الخلق ممدوح من الله تعالى؛ أي: يمنُّ عليك الأعراب بإسلامهم، واتِّباعهم لك، وانكفافهم عن قتالك، فيرون ذلك منَّة تستوجب معرفة ذلك لهم ﴿قُل لَّا تَمُنُّواْ عَلَيَّ إِسۡلَٰمَكُمۖ﴾ تكرار

(١) «السنن الكبرى» (١١٤٥٥)، ورواه أبو يعلى الموصلي في مسنده (٢٣٦٣) دون قوله: قال عطاء. قال محققه حسين سليم أسد: «رجاله رجال الصحيح».

﴿قُلْ﴾ لتوكيد تنبيههم، وبيان اختصاصهم بهذا الخطاب؛ أي: قل لا تمنُّوا عليَّ بإسلامكم، فثمرته عائدة إليكم، وإضافة الإسلام إليهم تشعر بضعفه في نفوسهم ﴿بَلِ ٱللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَىٰكُمْ لِلْإِيمَٰنِ﴾ (بل) حرف إضراب، وهو إضراب إبطاليٌّ لما سبق؛ أي: ليس لكم منَّة على الرسول ﷺ بإسلامكم؛ بل المنَّة لله وحده، فهو الذي يمنُّ عليكم أن وفَّقكم للإيمان، ولم يقل: إيمانكم، مطابقة لقولهم: ﴿ءَامَنَّا﴾ [الحجرات: ١٤]، أو لأنه الإيمان المعهود الذي يجب أن يكون عليه المكلَّف ﴿إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: إن كنتم صادقين في إيمانكم فلِلَّهِ المنة عليكم.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾؛ أي: يعلم كل ما غاب واستتر في السماوات والأرض، وهذا تأكيد لإحاطة علمه تعالى بكل شيء ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: عالم بأحوالكم، ومطَّلع على جميع أعمالكم ظاهرها وخفيِّها، وسيجازيكم عليها، وهذا وعد ووعيد.

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن التعليم يأتي بمعنى الإعلام، تقول: علَّمته؛ أي: أعلمته بكذا.

٢ ـ ذمُّ من يقصد بإقراره بالإيمان إعلامَ الله بذلك.

٣ ـ امتناع أن يُعلِم اللهَ أحدٌ من الخلق بما لا يعلمه.

٤ ـ تحريم التلفظ بالنية في العبادات؛ لأنه من قبيل تعليم العبد ربَّه بدينه.

٥ ـ إحاطة علم الله بما في السماوات وما في الأرض.

٦ ـ إحاطة علم الله بكل شيء.

٧ ـ إثبات اسم الله العليم وما يدل عليه من صفة العلم.

٨ ـ إثبات علمه تعالى بالكليات والجزئيات، ففيها:

٩ ـ الردُّ على الفلاسفة والمتكلمين في مسألة العلم.

١٠ ـ ذمُّ من يمنُّ بدخوله في الإسلام على الرسول ﷺ أو على المؤمنين.

١١ ـ أنَّ من سوء الأدب مع الرسول المنة عليه بالدخول في الإسلام.

١٢ ـ أنَّ المنَّة لله على من هداه الله للإيمان.

١٣ ـ أنَّ على الذي منَّ الله عليه بالإيمان أن يشكر الله، لا أن يمنَّ بإسلامه.

١٤ ـ أنَّ التوفيق للإيمان منَّة من الله على العبد.

١٥ ـ استشعار نعمة الله ومنّته عند كل ما يوفَّق له العبد من علم أو عمل.

١٦ ـ فقر العبد إلى ربه في الهداية.

١٧ ـ مشروعية استهداء العبد ربَّه.

١٨ ـ في الآية شاهد لقوله تعالى في الحديث القدسي: **«يا عبادي كلكم ضالٌّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدكم»**[(١)].

١٩ ـ الرد على القدرية القائلين: إن اهتداء العبد ليس بمشيئة الله؛ بل من ذات العبد.

٢٠ ـ أن الصدق في الإيمان يمنع من المنَّة به.

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر رضي الله عنه.

٢١ ـ تعليم الله محاجة المخالفين من المنافقين والكفار وغيرهم.

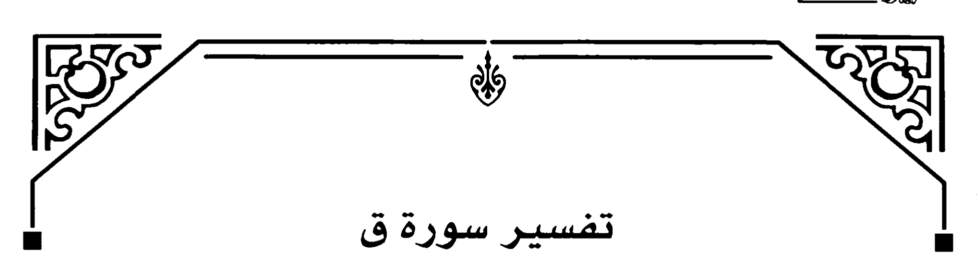
٢٢ ـ أن الله يعلم كلَّ غيب في السماوات والأرض مما لا يعلمه ملك مقرَّب ولا نبيٌّ مرسل.

٢٣ ـ بصر الله بأعمال العباد.

٢٤ ـ إثبات أن للعبد عملًا يجزَى به؛ لقوله: ﴿بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٨﴾﴾.

٢٥ ـ مناسبة آخر السورة لأولها بالإرشاد إلى الأدب مع الله ورسوله ﷺ.





تفسير سورة ق

سميت هذه السورة باسم الحرف الذي افتُتحت به من الحروف المقطَّعة، وهي مكيَّة بالإجماع، قاله ابن عطية[1]، وعدد آياتها خمس وأربعون، وافتتاحها بحرف من الحروف المقطَّعة يدل على أنها من القرآن المكي، ويؤكد ذلك: أنها اشتملت على تقرير أصول الاعتقاد من التوحيد والنبوة والمعاد، وعلى مجمل من قصص الأنبياء، وخُتمت بمثل ما افتُتحت به من التنويه بالقرآن في قوله: ﴿وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾، وقوله: ﴿فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ﴾ [ق: ٤٥].

ولِعظم ما اشتملت عليه هذه السورة كان النبي ﷺ يقرؤها أحيانًا يوم الجمعة على المنبر[2]، وكان يقرأ بها في صلاة العيدين أحيانًا[3]؛ وذلك لاشتمالها على ابتداء الخلق، والبعث والنشور، والمعاد، والقيام، والحساب، والجنة والنار، والثواب والعقاب، وفي حديث جابر بن سَمُرة أن النبي ﷺ كان يقرأ في الفجر بـ﴿قٓ وَٱلْقُرْءَانِ ٱلْمَجِيدِ ۝١﴾[4].

---

(١) «المحرر الوجيز» (١٥/١٥٨).
(٢) مسلم (٨٧٣) عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها.
(٣) مسلم (٨٩١) من حديث أبي واقد الليثي رضي الله عنه.
(٤) مسلم (٤٥٨).

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿قٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١ بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ فَقَالَ ٱلۡكَٰفِرُونَ هَٰذَا شَيۡءٌ عَجِيبٌ ۝٢ أَءِذَا مِتۡنَا وَكُنَّا تُرَابٗاۖ ذَٰلِكَ رَجۡعُۢ بَعِيدٞ ۝٣ قَدۡ عَلِمۡنَا مَا تَنقُصُ ٱلۡأَرۡضُ مِنۡهُمۡۖ وَعِندَنَا كِتَٰبٌ حَفِيظُۢ ۝٤ بَلۡ كَذَّبُواْ بِٱلۡحَقِّ لَمَّا جَآءَهُمۡ فَهُمۡ فِيٓ أَمۡرٖ مَّرِيجٍ ۝٥﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الخمس الإقسامَ من الله بالقرآن المتضمِّن أخبار البعث، فلذا أُتبع بالخبر عن تعجُّب الكفار من أمر البعث تعجُّبًا مقرونًا بالتكذيب والاستبعاد، ثم الردِّ عليهم بإحاطة علمه تعالى بما تأكله الأرض من رفات الأموات، وتأكيدِ الرد عليهم بأن ما كذَّبوا به هو الحق، وأنهم في هذا التكذيب مضطربون وحائرون، فهم في أمر مريج.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿قٓۚ﴾ هذا حرف من حروف المعجم، ويعرف عند علماء التفسير بأنه من الحروف المقطَّعة التي افتُتِحت بها بعض سور القرآن مثل: ﴿الٓمٓ﴾، و﴿صٓۚ﴾، و﴿نٓۚ﴾، وتنطق بأسمائها، فيقال: ألف لام ميم، وصاد، ونون، وقاف، وهذه الحروف لا محل لها من الإعراب، وقد اختلف المفسرون في معناها اختلافًا كبيرًا، وحاصل كلامهم فيها يرجع ـ كما تقدم في تفسير الأحقاف ـ إلى قولين:

الأول: أن هذه الحروف ليس لها معنى مفهوم، فهي من المتشابه الذي استأثر الله بعلمه.

الثاني: أن لها معنى، ثم اختلفوا في المعنى المراد، وفي بعض ما ذكروا إغراب، وأصح ما ذكر في ذلك أنها تنبيه للأذهان، وإشارة إلى إعجاز القرآن، وإقامة للحجة على المعاندين الذين قالوا عن القرآن: إنه كلام بشر، فكأنه قيل لهم: إن هذا القرآن منظوم من هذه الحروف التي تعرفونها ويتألَّف منها كلامكم، ومع ذلك لا تقدرون على أن تأتوا بسورة من مثله، وأنتم أهل البيان وأمراء البلاغة، فإذا ثبت عجزهم تبيَّن لهم أنه ليس كلام بشر، وقامت الحجة عليهم به.

ويؤيد هذا التفسير: أن هذه الحروف المقطَّعة غالبًا ما تُتبع بذكر القرآن، كما في قوله تعالى: ﴿الٓمٓ ۝١ ذَٰلِكَ ٱلۡكِتَٰبُ لَا رَيۡبَۛ فِيهِۛ هُدًى لِّلۡمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١، ٢]، وقوله: ﴿صٓۚ وَٱلۡقُرۡءَانِ ذِي ٱلذِّكۡرِ﴾ [ص: ١]، وكما في هذه السورة.

قوله تعالى: ﴿وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡمَجِيدِ ۝١﴾ هذا قسم من الله بالقرآن المجيد؛ أي: ذي المجد والشرف والرفعة على سائر الكتب السماوية؛ لما فيه من العلوم والشرائع، وأنباء الغيب الماضية والمستقبلة، وما فيه من وجوه الإعجاز، فهو قسَم من الله بالقرآن الموصوف بالمجد لفظًا ومعنى، وجواب القسم محذوف دلَّ عليه ما بعده؛ أي: إنهم ليبعثُنَّ، وإنك لنذير مبين، كما قال تعالى: ﴿يسٓ ۝١ وَٱلۡقُرۡءَانِ ٱلۡحَكِيمِ ۝٢ إِنَّكَ لَمِنَ ٱلۡمُرۡسَلِينَ ۝٣﴾، إلى قوله: ﴿لِتُنذِرَ قَوۡمًا مَّآ أُنذِرَ ءَابَآؤُهُمۡ﴾ [يس: ١ ـ ٦]، وحذْفُ جواب القسم من البلاغة بمكان؛ لما فيه من الإيجاز، ولأن النفس تتطلع إلى معرفته، فإذ تبيَّن لها من السياق تمكَّن في النفس تمكُّنًا تامًّا.

قوله تعالى: ﴿بَلۡ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٞ مِّنۡهُمۡ﴾ (بل): حرف إضراب وانتقال من كلام إلى كلام آخر؛ أي: ليس امتناع الكفار من الإيمان بالقرآن لقصور في مجده وشرفه؛ بل لأنْ جاءهم رسول منهم جنسًا

ونسبًا، وهو محمد ﷺ، وتخصيص الإنذار بالذكر، لأنه أهم، ولأنه المقصود الأعظم من السورة؛ فالنبيُّ مخوِّفٌ لهم من العذاب، كما قال سبحانه: ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا نَذِيرٌ لَّكُم بَيْنَ يَدَيْ عَذَابٍ شَدِيدٍ﴾ [سبأ: ٤٦]، ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾ هذا تفصيل لتعجُّبهم، كما في قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي﴾ [هود: ٤٥].

قوله تعالى: ﴿فَقَالَ الْكَافِرُونَ﴾؛ أي: قريش، وذكر الكافرين من إقامة الظاهر موضع المُضمَر، لم يقل: فقالوا؛ لذمِّهم بالكفر، وذَكَرهم قبلُ بالضمير في قوله: ﴿بَلْ عَجِبُوا﴾ لتعيُّنهم بما أسند إليهم من العَجَب أن جاءهم منذر منهم ﴿هَٰذَا شَيْءٌ عَجِيبٌ ۝٢﴾؛ أي: رسالتُه لهم، وإنذارُه إياهم شيءٌ منكرٌ مستغربٌ، والآية إنكار لتعجُّبهم مما ليس بعَجَب، وما ذاك إلا لجهلهم بأحوال الأمم السابقة، وسنن الله في رسالاته؛ فإنه تعالى لم يزل يرسل للناس رسلًا من أنفسهم وبلسانهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ إِلَّا رِجَالًا نُّوحِي إِلَيْهِم﴾ [يوسف: ١٠٩]، وقال: ﴿قَالَتْ لَهُمْ رُسُلُهُمْ إِن نَّحْنُ إِلَّا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ﴾ [إبراهيم: ١١].

ولما أخبر الله عن تعجُّبهم ذكَر استبعادهم وإنكارهم لما أخبر به الرسول قائلين: ﴿أَإِذَا مِتْنَا وَكُنَّا تُرَابًا﴾؛ أي: أَحِينَ نموت ونصير ترابًا نرجع أحياءً كما كنَّا؟! ثم أكَّدوا إنكارهم بقولهم: ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: البعث بعد الموت ﴿رَجْعٌ بَعِيدٌ ۝٣﴾؛ أي: في غاية البعد؛ لاستحالته بزعمهم، ووجه إنكارهم البعث: تفتُّت الجسم وفناؤه، فردَّ الله عليهم بأنه عالم بما تفتَّت وما فَني منهم في الأرض؛ ليستدل به على قدرته على ما يشاء من خلقه بدءًا وإعادة، فقال سبحانه: ﴿قَدْ عَلِمْنَا مَا تَنقُصُ الْأَرْضُ مِنْهُمْ﴾؛ أي: ما تأكله الأرض من أجسادهم بعد الموت، فلا يغيب عنَّا منها شيء ﴿وَعِندَنَا﴾ مع علمنا بذلك، والجملة حالية ﴿كِتَابٌ حَفِيظٌ ۝٤﴾؛ أي: تامٌّ

الحفظ لتفاصيل الأشياء كلها، ومنها عددهم وأسماؤهم، وما ذهب من أجسادهم في الأرض، وهذا الكتاب محفوظ من التغيير والتبديل، وهو اللوح المحفوظ كتاب القَدَر.

ولا شك أن مَنْ لَطُف عِلمُه حتى أحاط بما تنقصُه الأرض من لحوم الموتى وعظامهم قادر على بعثهم ورجْعهم أحياءً، وقد تقرَّر أن صحة البعث والحشر مبنية على ثلاث مقدمات: العلم، والقدرة، وقبول الأجزاء للجمع، واكتُفي هنا ببيان العلم؛ لأنه الأصل.

ثم ذكَر الله عن الكافرين ما هو أشنع وأفظع من تعجبهم، وهو تكذيبهم بالقرآن العظيم، فقال سبحانه: ﴿بَلْ كَذَّبُوا۟ بِٱلْحَقِّ لَمَّا﴾؛ أي: حين ﴿جَآءَهُمْ فَهُمْ فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ ۝٥﴾؛ أي: حالٍ مضطربٍ ورأيٍ مختلف لا يتأتَّى معه الإيمان، وأصل المَرْج والمروج: الاختلاط، قال الله عنهم: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ﴾ [الذاريات: ٨]، والفاء في قوله: ﴿فَهُمْ﴾ جزائية؛ للدلالة على أنهم لما عدَلوا عن الحق كان كل ما يقولونه باطلًا لا يمكنهم الثبات عليه، قال قتادة في هذه الآية: «من ترك الحقَّ مرَج عليه أمره، والتبس عليه دينه»(١).

الفوائد والأحكام:

١ ـ الإشارة إلى إعجاز القرآن للعرب بافتتاح السورة بأحد الحروف المقطَّعة، التي يتألَّف منها كلام الناس.

٢ ـ عِظم شأن القرآن؛ لإقسام الله به، وقد أقسم الله به خمس مرات في سورة يس وص والزخرف والدخان، وفي هذه السورة، ونوَّه الله بشأن القرآن فيما لا يُحصى من الآيات.

---

(١) رواه عبد الرزاق في تفسيره (٢/ ٢٨)، وابن جرير الطبري (٢١/ ٤٠٧).

٣ ـ أن من كلام الله القَسَم.

٤ ـ أن القرآن هو أشهر أسماء الكتاب المنزَّل على محمد ﷺ.

٥ ـ أن من أوصاف القرآن: المجيد.

٦ ـ إثبات رسالة نبيّنا محمد ﷺ؛ لقوله: ﴿بَلْ عَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ﴾.

٧ ـ أن النبي ﷺ بشَر.

٨ ـ جهل الكفار؛ لتعجُّبهم من ذلك.

٩ ـ أن من طُرُق الدعوة: إنذارَ الناس عذاب الله؛ وقد جاء ذلك في آيات كثيرة، ومن ذلك قوله: ﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَآ أَنَا۠ لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾ [الحج: ٤٩].

١٠ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَكَانَ لِلنَّاسِ عَجَبًا أَنْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ رَجُلٍ مِّنْهُمْ أَنْ أَنذِرِ ٱلنَّاسَ﴾ [يونس: ٢].

١١ ـ جهل الكفار بربهم.

١٢ ـ سَفَه الكفار؛ لتعجُّبهم من كل ما خالف عقولهم، وتكذيبِهم به؛ فتعجَّبوا من الرسول أن كان بشرًا، ومما جاءهم به من أمر البعث.

١٣ ـ جهلُهم وجحدُهم كمالَ علم الله، وكمال قدرته.

١٤ ـ أن هذا هو مَنْشأ استبعادهم للبعث.

١٥ ـ أن البعث واقع لا محالة.

١٦ ـ الرد على منكري البعث بتقرير إحاطة علم الله بما يتحلل من أجساد الأموات.

١٧ ـ أن ما تنقصه الأرض من أجساد الموتى مُثْبَت في كتاب القدر.

١٨ ـ أن هذا الكتاب محفوظ لا يصل إليه تغيير ولا تبديل.

١٩ ـ إثبات علم الله بالكليات والجزئيات.

٢٠ ـ إثبات عندية المكان لله.

٢١ ـ ذمُّ الكفار بتكذيبهم بالحق الذي جاءهم من عند الله.

٢٢ ـ أن تكذيبهم بالحق صيَّرهم في اختلاف شديد، ويتفرع عليه:

٢٣ ـ سوء عاقبة ردِّ الحق.

٢٤ ـ أن التناقض في الأقوال والأحكام دليلٌ على فسادها.

٢٥ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿إِنَّكُمْ لَفِى قَوْلٍ مُّخْتَلِفٍ ۝٨ يُؤْفَكُ عَنْهُ مَنْ أُفِكَ﴾ [الذاريات: ٨، ٩].

۞ قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَـٰهَا وَزَيَّنَّـٰهَا وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ۝٦ وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍۭ بَهِيجٍ ۝٧ تَبْصِرَةً وَذِكْرَىٰ لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨ وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً مُّبَـٰرَكًا فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّـٰتٍ وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩ وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَـٰتٍ لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠ رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ ۖ وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ بَلْدَةً مَّيْتًا ۚ كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات دليلين من أدلة البعث، وهما: خلق السماوات والأرض، وإحياء الأرض بالماء بعد موتها، وقد ورد ذكر هذين الدليلين في مواضع كثيرة من القرآن.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ هذا شروع في ذكر أدلة قدرته تعالى على البعث ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟﴾ الفاء عاطفة على محذوف، والاستفهام للإنكار والتوبيخ؛ أي: أغفَلوا وعَمُوا فلم ينظروا ﴿إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ﴾ نظرَ اعتبارٍ وتفكُّرٍ؛ فإنها ليست غائبة عنهم؛ بل هي فوق رؤوسهم يشاهدونها، والمراد: السماء الدنيا، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ زَيَّنَّا ٱلسَّمَآءَ ٱلدُّنْيَا بِمَصَـٰبِيحَ﴾ [الملك: ٥].

وتعدية فعل النظر بـ(إلى) دون (في) للإشارة إلى أن مجرد النظر إلى السماء كافٍ للعلم بكمال قدرة الله على الخلق بدءًا وإعادة؛ فإن من قَدِر على خلق هذه السماوات العظيمة قادر على أن يعيدهم مرة أخرى إلى الحياة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَـٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يُحْـِۧىَ ٱلْمَوْتَىٰ ۚ بَلَىٰٓ إِنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

وقوله تعالى: ﴿كَيْفَ بَنَيْنَاهَا﴾؛ أي: أحكَمنا خلقها ورفعناها بغير عمد ﴿وَزَيَّنَّاهَا﴾ بالكواكب، وتقديم البناء على التزيين؛ لأنه الأصل، والزينة فرع ﴿وَمَا لَهَا مِن فُرُوجٍ ﴿٦﴾﴾ الجملة حالية؛ أي: والحال أن ليس فيها شقوق ولا صدوع، فهي محكمة غاية الإحكام، واللام في ﴿وَمَا لَهَا﴾ بمعنى في، ومجيء ﴿مِن﴾ للتنصيص على عموم النفي؛ ليستغرق النفي جميع أفراد المنفي، وللزمخشري هنا كلمة بديعة عند قـولـه تـعـالـى: ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفًا مَّحْفُوظًا ۖ وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٢] يحسن الوقوف عندها، وهذا نصُّها: «قوله: ﴿عَنْ آيَاتِهَا﴾: أي: عمَّا وضَع الله فيها من الأدلة والعبر بالشمس والقمر وسائر النيِّرات ومسايرها وطلوعها وغروبها؛ على الحساب القويم والترتيب العجيب، الدَّال على الحكمة البالغة والقدرة الباهرة، وأيُّ جهل أعظم مِن جهل مَن أعرض عنها، ولم يذهب به وهمه إلى تدبُّرها والاعتبار بها، والاستدلال على عظمة شأن من أوجدها عن عدم، ودبَّرها ونَصَبها هذه النِّصْبة، وأودعها ما أودعها مما لا يَعرف كُنهه إلا هو! عزَّت قدرته، ولطف علمه»[1].

قوله تعالى: ﴿وَالْأَرْضَ مَدَدْنَاهَا﴾؛ أي: بسطناها ووسعناها، وهذا لا ينافي كونها كُرويَّة؛ لأن سطحها ممدود واسع ﴿وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ﴾؛ أي: جبالًا ثوابت؛ لئلا تميد بأهلها ﴿وَأَنبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ زَوْجٍ﴾؛ أي: صنف ﴿بَهِيجٍ ﴿٧﴾﴾؛ أي: ذي بهجة وحُسن يَسر الناظرين؛ فـ﴿بَهِيجٍ﴾ صفة مشبهة، وهو بمعنى فاعل. معنى الآية: هذه المخلوقات العظيمة من السماء والأرض والجبال والنبات أوجدناها ﴿تَبْصِرَةً﴾؛ أي: ليكون عند العبد بصيرة؛ أي: علم ومعرفة ﴿وَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكيرًا بقدرتنا، وكلٌّ من

---

(١) «الكشاف» (٢/ ٥٧١).

﴿تَبْصِرَةً﴾ و﴿وَذِكْرَىٰ﴾ مفعول لأجله ﴿لِكُلِّ عَبْدٍ مُّنِيبٍ ۝٨﴾؛ أي: مقبل على الله بالتوبة والطاعة.

وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾؛ أي: السَّحاب ﴿مَآءً مُّبَٰرَكًا﴾؛ أي: كثير المنافع، والبركة كثرة الخير، ووصف الماء بذلك؛ للترغيب بشكر منزله ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ جَنَّٰتٍ﴾؛ أي: بساتين كثيرة الأشجار ﴿وَحَبَّ ٱلْحَصِيدِ ۝٩﴾ وحبَّ الزرع المحصود مثل القمح؛ فالحصيد صفة لموصوف محذوف، و(حصيد) فعيل بمعنى مفعول، وتخصيص الحبِّ بالذكر؛ لأنه قوت ﴿وَٱلنَّخْلَ بَاسِقَٰتٍ﴾؛ أي: وأخرجنا النخل طويلات مستويات، فـ﴿بَاسِقَٰتٍ﴾ حال مقدَّرة من البُسوق، وهو الطول، والنخل اسم جنس يذكر ويؤنث ويجمع، وخصَّت بالذكر مع دخولها في الجنات؛ لأنها أدل على القدرة؛ لارتفاعها ولكثرة منافعها، فهذا من عطف الخاص على العام ﴿لَّهَا طَلْعٌ نَّضِيدٌ ۝١٠﴾ الطَّلع هو: أول ما يظهر من ثمر النخل، ويسمَّى الكُفُرَّى ﴿نَّضِيدٌ ۝١٠﴾؛ أي: منضود ملتصق بعضه ببعض، متراكب لكثرته، كحَبِّ الرمان، وإذا خرج من أكمامه فليس بنضيد.

وقوله سبحانه: ﴿رِّزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾ مفعول لأجله، وهو عائد لجميع ما ذكر من الجنات والحب والنخل؛ أي: أخرجنا كلَّ ذلك لأقوات العباد وأرزاقهم ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾؛ أي: بالماء ﴿بَلْدَةً مَّيْتًا﴾؛ أي: يابسة لا نبات فيها، المعنى: جعلنا الأرض القاحلة منبتة بسبب نزول المطر، وتذكير ﴿مَّيْتًا﴾؛ لأن البلدة بمعنى البلد أو المكان، فهذا مثال للبعث، فكما أحيا الله هذه الأرض بعد هُمودها، ولبست ثوب الحياة واهتزت وازَّيَّنت، فكذلك يحيى الله الموتى، ويبعثهم للحساب، ولهذا قال: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ۝١١﴾؛ أي: مثلُ ذلك خروجُ الموتى من قبورهم.

الفوائد والأحكام:

١ ـ ذمُّ الكفار بالإعراض عن آيات الله السماوية والأرضية.

٢ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف: ١٠٥].

٣ ـ الإرشاد إلى التفكُّر في خلق السماوات والأرض.

٤ ـ أن السماء محدَثة، ففيه:

٥ ـ الرد على الفلاسفة القائلين بقِدم العالم.

٦ ـ إثبات كمال قدرته سبحانه.

٧ ـ الاستدلال بقدرته على خلق السماوات والأرض على قدرته على بعث الناس من قبورهم.

٨ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿لَخَلْقُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَكْبَرُ مِنْ خَلْقِ ٱلنَّاسِ﴾ [غافر: ٥٧].

٩ ـ التنبيه على ما في السماء من الزينة والإحكام.

١٠ ـ إضافة البناء إلى الله، وقد جاء ذلك في مواضع من القرآن؛ كقوله: ﴿وَٱلسَّمَآءَ بَنَيْنَٰهَا بِأَيْي۟دٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ﴾ [الذاريات: ٤٧].

١١ ـ أن الأرض ممدودة، وذلك يدل على سعتها، كما يشهد به الحسُّ، وهذا مدٌّ غير مدِّها يوم القيامة المذكور في قوله: ﴿وَإِذَا ٱلْأَرْضُ مُدَّتْ﴾ [الانشقاق: ٣].

١٢ ـ أن من آيات الله: إلقاءَ الجبال الرواسي في الأرض؛ كيلا تميد بأهلها.

١٣ ـ أن من آيات الله: إنباتَ أنواع النبات الذي يبهج بحسنه الناظرين.

١٤ ـ الحكمة من وجود هذه الآيات، وهي: التبصرة والتذكير.

١٥ ـ أن المنتفع بالآيات هم أهل الإنابة إلى الله.

١٦ ـ أن من آيات الله الدالة على قدرته وحكمته ورحمته: إنزالَ الماء من السماء غيثًا للعباد.

١٧ ـ أن ماء المطر مبارك.

١٨ ـ أنه سبب لإنشاء الجنات والزروع والنخيل.

١٩ ـ التنبيه على الحكمة من إخراج هذه الجنات والزروع والنخيل؛ لقوله: ﴿رِزْقًا لِّلْعِبَادِ﴾.

٢٠ ـ أن من أدلة البعث: إحياءَ الأرض الميتة بالماء على إحياء الموتى وخروجهم من القبور؛ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ ٱلْخُرُوجُ ١١﴾.

٢١ ـ إثبات الأسباب؛ لقوله: ﴿فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ﴾، ﴿وَأَحْيَيْنَا بِهِۦ﴾.

٢٢ ـ إثبات الحكمة والتعليل في أفعال الله، ففيه:

٢٣ ـ الردُّ على مُنكري الحكمة والأسباب.

٢٤ ـ إثبات القياس، وهو إعطاءُ الشيء حكمَ نظيره.

قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ ﴿١٢﴾ وَعَادٌ وَفِرْعَوْنُ وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾ وَأَصْحَابُ الْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ كُلٌّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ أَفَعَيِينَا بِالْخَلْقِ الْأَوَّلِ بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ مِنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴿١٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الإخبار عن ثمان من الأمم المكذبة للرسل على سبيل الإجمال، وما حقَّ عليهم من وعيد الله؛ تحذيرًا للذين كفروا بمحمد رسول الله ﷺ، وتهديدًا أن يحل بهم ما حلَّ بتلك الأمم، ثم ذكر سبحانه دليلًا ثالثًا من أدلة البعث، وهو: الخلق الأول للإنسان.

التفسير:

هذه الآيات من الكلام المستأنف الذي قصد به أن هؤلاء المكذبين من كفار مكة ليسوا بدعًا في تكذيبهم للرسل وجحدهم للبعث؛ بل سبقهم أمم، كما قال تعالى: ﴿وَإِن تُكَذِّبُوا فَقَدْ كَذَّبَ أُمَمٌ مِّن قَبْلِكُمْ﴾ [العنكبوت: ١٨]، وقال هنا: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ﴾؛ أي: قبل كفار مكة ﴿قَوْمُ نُوحٍ﴾ وهو أول الرسل ﴿وَأَصْحَابُ الرَّسِّ﴾ الرسُّ هي: البئر التي لم تطو؛ أي: لم تُبْن، وهم قوم أرسل إليهم نبي فكذبوه، بدليل نظمهم في هذه الأمم، ويظهر أن الله أضافهم إلى البئر؛ لأن لها شأنًا يتعلق بهم ﴿وَثَمُودُ﴾ وهم قوم صالح ﴿وَعَادٌ﴾ وهم قوم هود.

والمطَّرد في قصص القرآن تقديم عاد على ثمود؛ لسبقهم في الزمن، وقُدمت ثمود هنا ـ والله أعلم ـ لتناسب الفواصل ﴿وَفِرْعَوْنُ﴾ هو صاحب موسى عليه السلام، وخصَّه الله بالذكر دون قومه؛ لأنه أصل الطغيان والتكذيب ﴿وَإِخْوَانُ لُوطٍ ﴿١٣﴾﴾ وهم أهل سَدوم، والمراد بالأخوَّة: أخوَّة

النسب، كما هو ظاهر القرآن، كما قال تعالى في الشعراء: ﴿إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الشعراء: ١٦١].

قوله تعالى: ﴿وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ﴾ هم قوم شعيب عليه السلام، والأيكة: هي الشجرة الملتف بعضها ببعض ﴿وَقَوْمُ تُبَّعٍ﴾ وهم في اليمن، و﴿تُبَّعٍ﴾ لقب لكل من ملك بلادهم، كقيصر عند الروم، وكسرى عند فارس، ويجمعون على تبابعة ﴿كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ﴾ هذا إجمال بعد تفصيل للتأكيد، ولذكر ما حقَّ عليهم من الوعيد؛ أي: كلٌّ من المذكورين كذَّبوا رسولهم، وإنما جمع ﴿ٱلرُّسُلَ﴾؛ لأن تكذيب واحد تكذيبٌ للجميع، كما قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَوْمُ نُوحٍ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٠٥]، ﴿كَذَّبَتْ عَادٌ ٱلْمُرْسَلِينَ﴾ [الشعراء: ١٢٣]، وقوله سبحانه: ﴿فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾﴾ بحذف ياء المتكلم تخفيفًا؛ أي: وجب عليهم وعيدي ونزل بهم عذابي، فأهلك قوم نوح بالغرق، وثمود بالصيحة، وعاد بالريح الحاصب، وفرعون بالغرق، وقوم لوط بالخسف وإرسال الحاصب، كما قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنۢبِهِۦ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ ٱلصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ ٱلْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا﴾ [العنكبوت: ٤٠].

وخصَّ الله هذه الأمم بالذكر؛ لأنهم في بلاد العرب، وكانوا كفارًا، يسمعون أخبارهم، ويشاهدون آثارهم، كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّكُمْ لَتَمُرُّونَ عَلَيْهِم مُّصْبِحِينَ ﴿١٣٧﴾ وَبِٱلَّيْلِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الصافات: ١٣٧، ١٣٨]. وفي الآيات تسلية للنبي ﷺ وتهديد لقومه.

قوله تعالى: ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؛ أي: أفعجَزنا، يقال: عَيِيَ به يعيا ـ بوزن رضِي يرضَى ـ إذا عجَز عنه، والباء في ﴿بِٱلْخَلْقِ﴾ بمعنى (عن)، والاستفهام للإنكار المفيد للنفي، المعنى: لم نعجِز عن ابتداء خلقهم، وهو ما يقرون به، فنعجِزَ عن إعادتهم مرة أخرى، وهذا

احتجاج عليهم بطريق الإلزام بما يقرون به، والخلق الأول شامل لخلق آدم من تراب، وخلق ذريته من ماء مهين ﴿بَلْ هُمْ فِي لَبْسٍ﴾؛ أي: لكنهم في شك وحيرة ﴿مِّنْ خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾؛ أي: من البعث بعد الموت، فهي كقوله تعالى: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ [الرعد: ٥]، وعرَّف الخلق الأول ﴿أَفَعَيِينَا بِٱلْخَلْقِ ٱلْأَوَّلِ﴾؛ لأنه معروف لهم، وهم يقرون به، ونكَّر الثاني ﴿خَلْقٍ جَدِيدٍ ۝١٥﴾؛ لأنهم جاحدون له.

الفوائد والأحكام:

١ ـ كثرة المكذبين للرسل.

٢ ـ أن من منهج القرآن: الإجمالَ والتفصيل في قصص الرسل وأممهم؛ لأنَّ هذه الأمم المذكورة في هذه الآيات على وجه الإجمال قد فصَّل الله أخبارهم في مواضع أخرى من القرآن؛ كسورة الأعراف وهود والشعراء، إلا أصحاب الرس وقوم تبَّع؛ فلم يذكروا في القرآن إلا على سبيل الإجمال، كما في هذه السورة وسورة الفرقان والدخان.

٣ ـ أن من الأمم من لم يسمَّ رسولهم؛ كأصحاب الرس وقوم تبع.

٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿مِنْهُم مَّن قَصَصْنَا عَلَيْكَ وَمِنْهُم مَّن لَّمْ نَقْصُصْ عَلَيْكَ﴾ [غافر: ٧٨].

٥ ـ أن سُنَّة الله في المكذبين أن يحق عليهم ما توعدهم به من العقاب.

٦ ـ تحذير الكفار من قريش وغيرهم أن يَحقَّ عليهم الوعيد.

٧ ـ تسلية النبي ﷺ، بذكر تكذيب الأمم السابقة لرسلهم؛ ففيها

شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِن يُكَذِّبُوكَ فَقَدْ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَعَادٌ وَثَمُودُ﴾ الآيات [الحج: ٤٢].

٨ ـ أن تكذيب الرسل سبب لعقوبات الدنيا والآخرة.

٩ ـ أن من أدلة البعث: مبدأ خلق الإنسان.

١٠ ـ أن القادر على بدء الخلق قادر على إعادته؛ بل أولى.

١١ ـ إقرار المشركين بالخلق الأول؛ أي: المبدأ، وإنكارهم الخلق الجديد، وهذا تناقُض منهم؛ لأنه تفريق بين متماثلين، ولهذا قرَّرهم الله فيما أقرُّوا به، وذمَّهم بِشَكِّهم في الخلق الجديد، وهو إعادة خلقهم لبعثهم.

١٢ ـ أن من الأدلة العقلية: قياس الأولى، وأنه يكون في الكونيات كما يكون في الشرعيات.

١٣ ـ أن من محسنات الكلام: تناسُب أواخر الجمل، وهو ما يسمَّى بالسَّجع، وجواز التقديم والتأخير.

١٤ ـ وصف قوم الرسول الكافرين بأخوَّة النسب مع نبيِّهم، لقوله: ﴿وَإِخْوَٰنُ لُوطٍ ⑬﴾.

١٥ ـ أن الأمم المكذبة التي قصَّ الله علينا خبرها في القرآن منحصرة في هذه الأمم الثمان المذكورة هنا.

١٦ ـ أن أول الأمم المكذبة على الإطلاق هم قوم نوح، كما يدل له ما جاء في حديث الشفاعة أن نوحًا أول الرسل[1].

---

(١) البخاري (٣١٦٢)، ومسلم (١٤٩) عن أبي هريرة ﷺ.

ولما أشار الله إلى الخلق الأول للإنسان فصَّل بذكر بعض أحواله مما يدل على كمال قدرته وسعة علمه تعالى، فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر عن خلقه تعالى للإنسان، وإحاطة علمه بما يخفى أو يظهر من أمره، وإحصائه لأعماله، بما وكَّل به من ملائكته الكاتبين.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ ﴿وَلَقَدْ﴾ اللام هي الموطئة للقسم؛ أي: والله لقد خلقنا، و(قد) لتأكيد الخبر، والمراد جنس الإنسان فيفيد العموم؛ أي: جميع بني آدم، وخَلْق الإنسان هو إنشاؤه وإيجاده بعد العدم مما وصف الله في كتابه، كما تقدم.

قوله تعالى: ﴿وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ الجملة معطوفة على قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾، وقيل: الجملة حالية؛ أي: والحال أنا (نعلم ما توسوس)؛ أي: ما تُحدِّث ﴿بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ من خواطر وأفكار، وإن لم يتكلم بها الإنسان، وقوله: ﴿وَنَعْلَمُ﴾ بصيغة المضارع يفيد استمرار علمه تعالى بما توسوس به نفس الإنسان، وهذا ما يدل عليه المضارع في ﴿تُوَسْوِسُ﴾، والمقصود بذلك التنبيه على سعة علمه وإحاطته بالعبد، وأنه لا يخفى عليه من أحواله شيء.

قوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: أقرب إليه

بملائكتنا الكاتبين لأعماله، وذهب بعض المفسرين إلى أن المراد قربه تعالى؛ أي: ونحن أقرب إليه بعلمنا وإحاطتنا وقدرتنا، والصحيح الأول؛ وهو المأثور عن السلف، وإنما أضاف الله القرب إلى نفسه وإن كان المراد قرب الملائكة؛ لأن الملائكة قائمون بأمره تعالى في إحصاء عمل العبد، كما قال تعالى في المحتضَر: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنكُمْ وَلَٰكِن لَّا تُبْصِرُونَ﴾ [الواقعة: ٨٥]؛ أي: قرب الملائكة، وقال تعالى مخاطبًا نبيَّه ﷺ: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، والقارئ جبريل عليه السلام، وأضاف الله القراءة إلى نفسه؛ لأنها كانت بأمره تعالى.

ولشيخ الإسلام ابن تيمية كلام حسن في ذلك، يقول رحمه الله: «وسياق الآيتين يدل على أن المراد: الملائكة فإنه قال: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾ إِذْ يَتَلَقَّى الْمُتَلَقِّيَانِ عَنِ الْيَمِينِ وَعَنِ الشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾ مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾؛ فَقيَّد القرب بهذا الزمان، وهو زمان تَلَقِّي المتلقِّيَيْن: قعيد عن اليمين، وقعيد عن الشمال، وهما: الملكان الحافظان اللذان يكتبان، كما قال: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾، ومعلوم أنه لو كان المراد قرب ذاته لم يختص ذلك بهذه الحال، ولم يكن لذكر العتيد والرقيب معنى مناسب»(١).

فأما قربه تعالى الذي هو صفته جل جلاله فهو خاص بعابديه وداعيه، كما في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: ١٨٦]، وقوله عن نبيِّه صالح: ﴿إِنَّ رَبِّي قَرِيبٌ مُّجِيبٌ﴾ [هود: ٦١].

إذا تبيَّن هذا فقوله تعالى: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ ﴿١٦﴾﴾؛ أي: الملائكة أقرب إلى العبد من حبل وريده، الذي هو أقرب شيء إليه، وهو عِرق بصفحة العنق، سمي حَبْلًا؛ لمشابهته له، وإضافة الحبل إلى الوريد إضافة بيانية على معنى (مِن) مثل: خاتم فضة، وجدار طين؛

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/٥٠٥).

أي: الحبل الذي هو الوريد، وللإنسان وريدان مكتنفان صفحتي العنق في مقدَّمه، متصلان بالوتين، وهو عِرق في القلب، وحبل الوريد يضرب به المثل في شدة القرب، والمراد قرب الملائكة من الإنسان.

قوله تعالى: ﴿إِذْ يَتَلَقَّى ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ ﴿إِذْ﴾ ظرف لأقرب، و﴿ٱلْمُتَلَقِّيَانِ﴾ هما: الملكان الموكَّلان بالإنسان يحفظان عمله، المعنى: نحن أقرب إلى الإنسان من كل قريب حين يتلقى المَلَكان عنه كلَّ عمله، فيحصيانه عليه، وعلمُه تعالى بعبده كاف عن استحفاظ الملكين؛ فالله ﷻ أعلم به منهما، ولكنه تعالى أراد إقامة الحجة على العبد، كما استشهد عليه جوارحه، مع أنه مكتوب عليه كل شيء، ولا شك أن العبد إذا استحضر ذلك كان أدعى له إلى الخوف من الله، والبعد عن معصيته.

قوله سبحانه: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾؛ أي: الملكان أحدهما قاعد عن يمين الإنسان، والآخر عن شماله، فـ﴿قَعِيدٌ﴾ مفرد أقيم مقام المثنى؛ لأن فعيلًا يستوي فيه المفرد والمثنى والجمع؛ أي: عن اليمين وعن الشمال قاعدان، ﴿قَعِيدٌ ﴿١٧﴾﴾ مبتدأ، خبره الجار والمجرور ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ﴾؛ فالذي عن يمينه يكتب الحسنات، والذي عن شماله يكتب السيئات، وهذان الملَكان غير الحفظة المذكورين في قوله سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ [الرعد: ١١].

فهذان الملكان يرصدان كلَّ ما يصدر من الإنسان من قول، ولهذا قال سبحانه: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ ﴿مَّا﴾ نافية، و﴿مِن﴾ حرف جر زائد للتنصيص على عموم النفي، و﴿قَوْلٍ﴾ نكرة في سياق النفي؛ أي: لا يفوت من قوله شيء أيًّا كان ﴿إِلَّا لَدَيْهِ﴾؛ أي: عنده ملك ﴿رَقِيبٌ﴾؛ أي: مراقب ﴿عَتِيدٌ ﴿١٨﴾﴾؛ أي: حاضر مع الإنسان، والمراد بالرقيب العتيد: الملَكان، فكلٌّ منهما رقيب وعتيد، وذكر الله القول في قوله: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ﴾ دون الفعل؛ لأنه أكثر، وقد ذكر الله عموم كتابة كل ما يصدر

من العبد في قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾ [الانفطار: ١٠ ـ ١٢].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الإنسان مخلوق وليس بخالق.

٢ ـ أن الله هو خالقه.

٣ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع الدالة على العظمة في قوله: ﴿خَلَقْنَا﴾ و﴿وَنَعْلَمُ﴾.

٤ ـ التعبير عن باطن الإنسان بالنفس.

٥ ـ إحاطة علم الله بما في النفوس.

٦ ـ إثبات قرب الله من الإنسان؛ قيل: المراد قربه تعالى بملائكته الكاتبين لعمله.

٧ ـ أن الإنسان موكَّل به ملكان يحصيان عليه أقواله.

٨ ـ أن الملكين قاعدان عن يمين الإنسان وشماله.

٩ ـ شدة قرب الملكين من الإنسان.

١٠ ـ أنهما يرقبان ما يلفظ به العبد ليكتباه.

١١ ـ أنهما مهيآن لذلك.

١٢ ـ أنهما يحصيان عليه كل أقواله.

١٣ ـ وجوب حفظ الإنسان لسانَه عمَّا لا خير فيه.

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَإِنَّ عَلَيْكُمْ لَحَافِظِينَ ﴿١٠﴾ كِرَامًا كَاتِبِينَ ﴿١١﴾ يَعْلَمُونَ مَا تَفْعَلُونَ﴾.

١٥ ـ أن الملائكة أصناف، منهم الموكَّل بعمل العبد.

١٦ ـ جواز تسمية المخلوق برقيب.

ولمَّا ذكر اللهُ إنكارَهم للبعث، واحتج عليهم بالدلائل القاطعة، أخبر عن قرب القيامتَين: الصغرى والكبرى، فقال سبحانه:

﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ ١٩ وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ ذَٰلِكَ يَوۡمُ ٱلۡوَعِيدِ ٢٠ وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١ لَّقَدۡ كُنتَ فِي غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات الخبر عن تحقق القيامتين: الصغرى في قوله تعالى: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾، والكبرى في قوله: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِۚ﴾، وعن بعض مشاهد القيامة في قوله: ﴿وَجَآءَتۡ كُلُّ نَفۡسٖ مَّعَهَا سَآئِقٞ وَشَهِيدٞ ٢١﴾.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَتۡ﴾؛ أي: أتت وحضرت ﴿سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ﴾؛ أي: سكرة موتك ـ أيها الإنسان ـ وهي شدته وغمرته التي تذهل العقول، حتى إنها تحصل للأنبياء، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ كان بين يديه رَكوة أو علبة فيها ماء، فجعل يُدخل يده في الماء فيمسح بها وجهه ويقول: «**لا إلٰه إلا الله، إن للموت سكرات**». ثم نصب يده فجعل يقول: «**في الرفيق الأعلى**»، حتى قُبض ومالت يده[1].

قوله سبحانه: ﴿بِٱلۡحَقِّۖ﴾؛ أي: وجاءت سكرة الموت بالأمر الحق من فراق الدنيا واستقبال الآخرة بأهوالها ولقاء الله ﷻ ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي:

(١) البخاري (٦١٤٥).

ذلك الأمر العظيم، وهو الموت وما بعده ﴿مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيدُ ﴿١٩﴾﴾؛ أي: الذي كنت منه تفِرُّ وتفزع، والخطاب في الآية وإن كان لعموم الإنسان، المذكور في قوله: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَـٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ﴾ [ق: ١٦]؛ فإن المقصود به أولًا الكافر المكذب بالبعث، ولهذا جاء الكلام بطريق الخطاب بعد الغيبة زجرًا له وتخويفًا، وتنبيهًا له من غفلته.

قوله تعالى: ﴿وَنُفِخَ فِى ٱلصُّورِ﴾ وهي النفخة الثانية، نفخة البعث، والصُّور بوق يُنفخ فيه، وهو مخلوق عظيم، وجاء في السُّنَّة أنه قرنٌ، كما في حديث عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما أن أعرابيًّا جاء إلى النبي ﷺ، فقال: ما الصور؟ فقال: «**قرن يُنفخ فيه**»[1]، والنافخ مَلَك، وأجمع العلماء على أن النافخ هو إسرافيل، كما يقول القرطبي[2]، وجاءت بذلك أخبار ولكنها لا تصح في أفرادها.

والتعبير بالفعل الماضي في قوله: ﴿وَجَآءَتْ﴾ ﴿وَنُفِخَ﴾ لتحقُّق الوقوع في المستقبل حتى عُبِّر عنه بما يعبَّر به عن الواقع ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: يومُ القيامة الذي فيه النفخ ﴿يَوْمُ ٱلْوَعِيدِ ﴿٢٠﴾﴾ الذي توعَّد الله به المكذبين، وهو أيضًا يوم الوعد للمتقين، ولكن خُص الوعيد بالذكر؛ لأن السياق من أول السورة في الكفار، والسورة مكية.

قوله سبحانه: ﴿وَجَآءَتْ كُلُّ نَفْسٍ﴾؛ أي: مؤمنة وكافرة ﴿مَّعَهَا سَآئِقٌ﴾؛ أي: ملك يسوقها إلى المحشر ﴿وَشَهِيدٌ ﴿٢١﴾﴾ يشهد عليها، قيل: من الملائكة، وقيل: عمله أو جوارحه، ثم يقال له يومئذ: ﴿لَّقَدْ كُنتَ فِى

---

(١) رواه أحمد (٢/ ١٩٢، ١٦٢)، والترمذي (٢٤٣٠) وحسَّنه، وأبو داود (٤٧٤٢)، وصححه الألباني في السلسلة الصحيحة (١٠٨٠).

(٢) «الجامع لأحكام القرآن» (٧/ ٢٠) عند تفسيره آية الأنعام (٧٣) وهي قوله تعالى: ﴿قَوْلُهُ ٱلْحَقُّ وَلَهُ ٱلْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِى ٱلصُّورِ﴾.

﴿غَفۡلَةٖ مِّنۡ هَٰذَا﴾؛ أي: هذا اليوم العصيب، والخطاب لعموم المكلفين مسلمهم وكافرهم، وهذا قول الجمهور، كما يقول القرطبي، وصح عن ابن عباس ومجاهد أنه خطاب للكافر[1]، ويشهد له قوله: ﴿فَكَشَفۡنَا عَنكَ غِطَآءَكَ﴾؛ أي: أزلنا عنك غفلتك ﴿فَبَصَرُكَ ٱلۡيَوۡمَ حَدِيدٞ ٢٢﴾؛ أي: حادٌّ في غاية القوة والنفوذ، فصرت تبصر ما كنت تنكره في الدنيا، كما قال تعالى: ﴿أَسۡمِعۡ بِهِمۡ وَأَبۡصِرۡ يَوۡمَ يَأۡتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨]، وقال سبحانه: ﴿وَلَوۡ تَرَىٰٓ إِذِ ٱلۡمُجۡرِمُونَ نَاكِسُواْ رُءُوسِهِمۡ عِندَ رَبِّهِمۡ رَبَّنَآ أَبۡصَرۡنَا وَسَمِعۡنَا فَٱرۡجِعۡنَا نَعۡمَلۡ صَٰلِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [السجدة: ١٢].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن الموت آتٍ لا محالة؛ فلا مفرَّ منه، وكلُّ نفس ذائقته.

٢ ـ أن الموت يجيء بالحق الذي أخبرتْ به الرسل؛ إذْ يعاين المحتضَر ما كان غائبًا عنه من الملائكة والوعد والوعيد، سواء كان مقرًّا به كالمؤمن، أو منكرًا له كالكافر.

٣ ـ أن الموت يجيء بالحق، وليس المراد أن الموت حقٌّ؛ لأن الموت لا يجحده أحد.

٤ ـ أن من طبع الإنسان الفرارَ من الموت.

٥ ـ أن القيامة آتية يقينًا، وأولها: النفخ في الصور.

٦ ـ إثبات الصُّور، وهو قرن ينفخ فيه.

٧ ـ أن من أسماء يوم القيامة: يوم الوعيد.

٨ ـ إثبات البعث والجزاء.

---

(١) روى الأثرين ابن جرير (٢١/ ٤٣٥).

٩ ـ أن كل نفس من المكلفين تأتي يوم القيامة، فلا يتخلف عن هذا الحضور أحد.

١٠ ـ أن كل نفس معها سائق يسوقها، وشهيد يشهد عليها.

١١ ـ الجمع في الذكر بين القيامتين، ولهذا نظائر في القرآن، فمن ذلك: قوله تعالى في سورة المؤمنون: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ﴾، إلى قوله: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ فَلَآ أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَآءَلُونَ﴾ [المؤمنون: ٩٩ ـ ١٠١]، وفي سورة الواقعة ذُكرت القيامة الكبرى في أولها: ﴿إِذَا وَقَعَتِ ٱلْوَاقِعَةُ﴾ [الواقعة: ١]، والقيامة الصغرى في آخرها: ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ﴾ [الواقعة: ٨٣] إلى آخر السورة، وهكذا في سورة القيامة.

١٢ ـ أن الكافر في هذه الدنيا غافل عن يوم القيامة؛ لأنه لا يؤمن بها.

١٣ ـ أن على بصره غطاء، وهو الغشاوة، ﴿وَعَلَىٰٓ أَبْصَٰرِهِمْ غِشَٰوَةٌ﴾ [البقرة: ٧].

١٤ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِّلْكَٰفِرِينَ عَرْضًا ۝١٠٠ ٱلَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِى غِطَآءٍ عَن ذِكْرِى﴾ [الكهف: ١٠٠، ١٠١].

١٥ ـ أن الكافر يوم القيامة يكشف الغطاء عن بصره، فيبصر مشاهد القيامة ببصر حاد فيستيقن ما كان غافلًا عنه، وجاحدًا له.

١٦ ـ فيها شاهد لقوله تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [مريم: ٣٨].

قال تعالى: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾ أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾ مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾ الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَٰهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾ قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾ قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُم بِالْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾ مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر عمَّا يقوله قرين الإنسان من الملائكة، وقرينه من الشياطين، وما يقال لهما، والقرين من الملائكة هما: السائق والشهيد، يقول القرين من الملائكة: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: حاضر، ويقال لهما: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾، إلخ الآيات في شأن الكافر، ويقول قرينه من الشياطين: ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُۥ وَلَٰكِن كَانَ فِي ضَلَٰلٍ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾، ومعناه: التبرؤ منه، فيقول الله للكافر وقرينه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ﴾ وقد أعذرت إليكم؛ إذ قد قدمت إليكم بالوعيد، ﴿مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿وَقَالَ قَرِينُهُۥ﴾؛ أي: يقول الملَك الموكَّل به، قيل: إنه واحد، وقيل: اثنان، السائق والشهيد، ويؤيده قوله: ﴿أَلْقِيَا﴾، ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ﴾؛ أي: يا رب هذا الذي عندي ووكَّلْتني به ﴿عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾؛ أي: حاضر معدٌّ، وإعراب الآية: ﴿هَٰذَا﴾ مبتدأ، والاسم الموصول ﴿مَا﴾ خبره، و﴿لَدَيَّ﴾ صلة الموصول، و﴿عَتِيدٌ ﴿٢٣﴾﴾ خبر ثان، وقوله: ﴿أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ﴾ مقول قول محذوف دلَّ عليه السياق؛ أي: قال الله: ﴿أَلْقِيَا فِي

﴿جَهَنَّمَ﴾؛ أي: اقذفا في جهنم ﴿كُلَّ كَفَّارٍ﴾؛ أي: جاحد لله تعالى، و﴿كَفَّارٍ﴾ صيغة مبالغة، فتفيد أنه مبالغ في الكفر ﴿عَنِيدٍ ﴿٢٤﴾﴾؛ أي: شديد العناد للحق منكر ومعارض له ﴿مَّنَّاعٍ لِّلْخَيْرِ﴾؛ أي: كثير المنع لما وجب عليه في ماله ولكل خير ﴿مُعْتَدٍ﴾ على حدود الله، ومعتد على الآخرين، فهو ظالم ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾؛ أي: شاكٌّ في دين الله ووعده ووعيده.

قوله سبحانه: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ﴾؛ أي: اتخذ مع الله إلـٰهًا آخر يعبده، ويسويه به ﴿فَأَلْقِيَاهُ فِى ٱلْعَذَابِ ٱلشَّدِيدِ ﴿٢٦﴾﴾؛ أي: أشد عذاب جهنم، وكرَّر الأمر ﴿فَأَلْقِيَاهُ﴾ للتأكيد، وليُبنى عليه ما بعده من وصف عذاب جهنم بالشدة ﴿قَالَ قَرِينُهُۥ﴾ هذا كلام مستأنف؛ أي: قال قرين الكافر، وهو الشيطان المقيَّض له، المذكور في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُۥ شَيْطَٰنًا فَهُوَ لَهُۥ قَرِينٌ﴾ [الزخرف: ٣٦]، فالشيطان يتبرأ منه قائلًا: ﴿رَبَّنَا﴾؛ أي: يا ربَّنا ﴿مَآ أَطْغَيْتُهُۥ﴾؛ أي: ما أضللتُه وما أغويتُه قسْرًا ﴿وَلَٰكِن كَانَ فِى ضَلَٰلٍۭ بَعِيدٍ ﴿٢٧﴾﴾؛ أي: بعيدٍ عن الحق، فهو الذي اختار الكفر والضلال على الهدى والإيمان، كما أخبر الله عن الشيطان أنه يقول في النار لمن أغواهم: ﴿وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم﴾ [إبراهيم: ٢٢].

وظاهرٌ أن في الكلام حذفًا، وأن هاهنا مقاولة بين الكافر وقرينه الشيطان، وأن الكافر يقول: يا ربِّ هو أغواني، والشيطان ينكر ذلك، وحينئذ يقطع الله على الكافرين وقرنائهم الأمل في النجاة من العذاب، فيقول سبحانه: ﴿لَا تَخْتَصِمُوا۟ لَدَىَّ﴾؛ أي: لا تتنازعوا وتتجادلوا عندي في موقف الحساب والجزاء، فلا فائدة من ذلك، والنهي للتيئيس ﴿وَقَدْ قَدَّمْتُ

إِلَيْكُم بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾؛ أي: والحال أني قد قدَّمت إليكم في الدنيا وعيدًا على الكفر بما أنزلت إليكم من الكتب وعلى ألسنة الرسل، والباء في ﴿بِٱلْوَعِيدِ ﴿٢٨﴾﴾ للتعدية على أنَّ ﴿قَدَّمْتُ﴾ ضُمِّن معنى تقدمتُ.

قوله سبحانه: ﴿مَا يُبَدَّلُ ٱلْقَوْلُ لَدَىَّ﴾ ﴿مَا﴾ نافية، والقول هو ما قاله الله في وعيده للكافرين؛ كقوله: ﴿لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، المعنى: حكمتُ بتعذيب الكفار فلا تغيير لحكمي ﴿وَمَآ أَنَا۠ بِظَلَّٰمٍ لِّلْعَبِيدِ ﴿٢٩﴾﴾ هذا تنزيه لله عن الظلم مطلقًا؛ فلا يعذب أحدًا بغير ذنب، كما لا يعذب أحدًا بذنب غيره، وقد حرم الله ذلك على نفسه، كما في الحديث القدسي: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي، وجعلته بينكم محرما، فلا تظالموا**»[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ﴾ [النساء: ٤٠]، وقال: ﴿وَلَا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

وصيغة المبالغة (ظلَّام) للنسبة؛ أي: ما أنا بذي ظلم؛ لئلا يتوهم أن نفي المبالغة يفيد إثبات أصل الظلم، ولك أن تقول: إن نفي المبالغة؛ يعني: المبالغة في النفي، و﴿لِّلْعَبِيدِ﴾ جمع عبد، مثل عِباد، وجيء بالعبيد هنا مراعاة للفواصل.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن للإنسان قرينًا من الملائكة، وقرينًا من الجن.

٢ ـ أن السائق والشهيد موكَّلان بإحضار الكافر للحشر والحساب.

٣ ـ أنهما يؤمران بإلقائه في جهنم.

٤ ـ ذكر ست صفات قبيحة لذلك الشقيِّ.

---

(١) رواه مسلم (٢٥٧٧) عن أبي ذر ﷺ.

٥ ـ أن هذه الصفات هي السبب فيما صار إليه من جهنم.

٦ ـ إثبات النار، وأن من أسمائها جهنم.

٧ ـ أن أعظم أسباب شقاء الإنسان: الكفر والشرك.

٨ ـ أن الكافر معاند لربه ولرسله.

٩ ـ أن من صفات الكافر: البخل بماله ونفسه، فلا يفعل خيرًا.

١٠ ـ أن من صفاته: الاعتداء على حدود الله، والاعتداء على عباد الله.

١١ ـ أن من صفات الكافر: الشك في ربه، وفيما جاءت به الرسل؛ لقوله: ﴿مُّرِيبٍ ﴿٢٥﴾﴾.

١٢ ـ أن من أعظم موجبات العذاب: الشرك.

١٣ ـ أن الكافر وقرينه الشيطان يختصمان عند الله؛ هذا يدَّعي عليه، وهذا يتبرأ منه.

١٤ ـ أن الله لا يَعذُرهما، وقد أبلغهما الوعيد على ألسن رسله.

١٥ ـ أن وعيد الله للكافرين لا يُخلَف، فلا ترجى لهم مغفرة.

١٦ ـ تنزيه الله تعالى عن الظلم.

١٧ ـ إثبات عندية الحكم؛ لقوله: ﴿هَٰذَا مَا لَدَيَّ﴾.

۞ قال ﷻ: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ هَلِ ٱمْتَلَأْتِ وَتَقُولُ هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾ وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾ هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾ مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾ ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾ لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾.

۞ المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات الخبر من الله عن أمور تتعلق بالجنة والنار يوم القيامة، ومن ذلك: ما يقال للنار وما تقول، وتقريبُ الجنة للمتقين، وذكرُ أسباب دخولها، وما يقال لهم عند دخولها، من البشارة بالخلود وكمال النعيم، وزيادة على هذا النظر إلى وجه الله الكريم.

۞ التفسير:

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ﴾ ﴿يَوْمَ﴾ ظرف متعلق ﴿بِظَلَّٰمٍ﴾؛ أي: وما أنا بظلَّام للعبيد يومَ نقول لجهنم: ﴿هَلِ ٱمْتَلَأْتِ﴾؛ أي: هل امتلأت من الكفار، وهذا سؤال تقرير؛ أي: أَقرِّي بأني قد ملأتُك كما وعدتُك ﴿وَتَقُولُ﴾ جهنم ﴿هَلْ مِن مَّزِيدٍ ﴿٣٠﴾﴾؛ أي: هل من شيء يُزاد فيَّ؟ وهذا سؤال طلب، وخطاب الله للنار وجوابها حقيقة، وذلك على الله يسير، وليس هو من باب المجاز أو التخييل الذي يقصد به تصوير المعنى في القلب وتثبيته، دون أن يكون له حقيقة.

ويوم القيامة هو يوم الأهوال، والهول هو: الأمر الغريب غير المألوف عند الناس، ولقد ثبت في الحديث أن رسول الله ﷺ قال: **«احتجت النار والجنة، فقالت النار: يدخلني الجبارون والمتكبرون، وقالت الجنة: يدخلني الضعفاء والمساكين، فقال الله ﷻ لهذه: أنت**

عذابي أعذب بك من أشاء، وقال لهذه: أنت رحمتي أرحم بك من أشاء، ولكل واحدة منكما ملؤها»[١]؛ فالله قد وعد النار بملئها، كما قال سبحانه: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [هود: ١١٩]، وقال: ﴿وَلَٰكِنْ حَقَّ ٱلْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ﴾ [السجدة: ١٣]، فهو سبحانه يسأل النار تحقيقًا لوعده بملئها، وهي تطلب مزيدًا؛ لأنها امتلأت امتلاءً لا يمنعها من احتمال الزيادة، كأولِّ مراتب الشِّبَع، وجاء في حديث أبي هريرة قال ﷺ: **«فلا تمتلئ حتى يضع ـ أي: الجبار ـ رجله فتقول: قط قط قط، فهنالك تمتلئ»**[٢]، وفي حديث أنس: **«لا تزال جهنم يلقى فيها وتقول: هل من مزيد، حتى يضع رب العزة فيها قدمه، فينزوي بعضها إلى بعض، وتقول: قط قط، بعزتك وكرمك»**[٣].

ولما بيَّن حال الكافرين بيَّن حال المؤمنين فقال سبحانه: ﴿وَأُزْلِفَتِ ٱلْجَنَّةُ﴾؛ أي: قُرِّبت وهُيِّئت ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾، وهم الذين اتقوا ربهم بأداء فرائضه وترك محارمه، فتُدنَى لهم الجنة بحيث تكون بمرأى منهم؛ مبالغة في إكرامهم، والفعل الماضي ﴿وَأُزْلِفَتِ﴾ لتحقق الوقوع في المستقبل حتى عبِّر عنه بما يعبَّر به عن الواقع، ولذلك قال تعالى: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ ﴿٣١﴾﴾، فهو تأكيد لما قبله، كما تقول: فلان كريم غير بخيل، وقوله: ﴿غَيْرَ بَعِيدٍ﴾؛ أي: مكانًا لا يبعد عنهم، فـ﴿غَيْرَ﴾ منصوب على الظرفية؛ كقولك: اجلس غيرَ بعيد عني، فينظر المتقون إلى الجنة قبل دخولها، فإذا شاهدوها قيل لهم: ﴿هَٰذَا مَا تُوعَدُونَ﴾؛ أي: النعيم الذي ترونه الآن هو ما كنتم توعدونه في الدنيا على ألسنة الرسل ﴿لِكُلِّ أَوَّابٍ حَفِيظٍ ﴿٣٢﴾﴾

---

(١) رواه مسلم (٢٨٤٦) بهذا اللفظ، وأصله في البخاري (٤٨٥٠) عن أبي هريرة ﷺ.
(٢) البخاري (٤٥٦٩)، ومسلم (٢٨٤٦).
(٣) البخاري (٦٢٨٤)، ومسلم (٢٨٤٨).

هذا بدل من ﴿لِلْمُتَّقِينَ﴾ بإعادة حرف الجر، والأوَّاب هو: الكثير الرجوع إلى ربه بالتوبة كالتوَّاب، والحفيظ هو: الشديد المحافظة على دينه ﴿مَّنْ خَشِيَ ٱلرَّحْمَٰنَ بِٱلْغَيْبِ﴾؛ أي: خاف ربه في سره كما يخافه في علانيته، والخشية أخصُّ من الخوف؛ فهي خوف مع تعظيم للمخوف منه، وإنما قرَن الله اسمه ﴿ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الدال على سعة الرحمة بالخشية؛ للثناء البالغ على الخاشي، فهو يخشى الله مع علمه أنه الواسع الرحمة ﴿وَجَآءَ بِقَلْبٍ مُّنِيبٍ ﴿٣٣﴾﴾؛ أي: جاء يوم القيامة بقلب خاضع خاشع، ووصف القلب بالإنابة؛ لأن المعتبر منها هو ما ثبت في القلب.

ثم يقال لهم تكريمًا: ﴿ٱدْخُلُوهَا بِسَلَٰمٍ﴾؛ أي: ادخلوا الجنة سالمين من الآفات، آمنين من كل ما تكرهون ﴿ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُلُودِ ﴿٣٤﴾﴾؛ أي: ذلك اليوم الذي تدخلون فيه الجنة هو يوم البقاء الذي لا انتهاء له أبدًا؛ لأنه لا موت في الجنة ولا فناء، ولهذا أخبر النبي ﷺ أنه ينادي في أهل الجنة مناد: **«إن لكم أن تصحوا فلا تسقموا أبدًا، وإن لكم أن تحيوا فلا تموتوا أبدًا»**(١).

قوله سبحانه: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ فِيهَا﴾؛ أي: لهم في الجنة كلُّ ما تشتهيه أنفسُهم، وتلذُّ به أعينُهم ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ﴿٣٥﴾﴾ المزيد: اسم مفعول كالمبيع؛ أي: وعندنا زيادة على ما يشاؤون من النعيم مما لا يخطر على قلب بشر، ومن ذلك: النظر إلى وجه الله الكريم، فقد ثبت في «الصحيح» أن الزيادة في قوله تعالى: ﴿لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ ٱلْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ﴾ [يونس: ٢٦] أنها النظر إلى وجهه تعالى(٢)، هذا؛ والمقصود من ذكر النار وأهوالها، والجنة وأحوالها هو: الترهيب من أسباب دخول النار من الكفر والمعاصي، والترغيب في أسباب دخول الجنة من الإيمان والعمل الصالح.

---

(١) مسلم (٢٨٣٧) عن أبي سعيد وأبي هريرة رضي الله عنهما.

(٢) مسلم (١٨١) عن صهيب رضي الله عنه.

۞ الفوائد والأحكام:

١ ـ خطاب الله لجهنم، وأنها تُسأل وتجيب.

٢ ـ أنها تتكلم.

٣ ـ أن النار واسعة لأهلها؛ فلا تمتلئ بهم، ولذا لا تزال تطلب المزيد، حتى يضع الرب فيها رجله، فينزوي بعضها على بعض، فتقول: قط قط؛ أي: حسبي، كما جاء في الحديث الصحيح(١).

٤ ـ أن الجنة تُقرَّب لأهلها يوم القيامة، كما أن النار يُجاء بها، وتُبرَز لأهلها.

٥ ـ ذكر أسباب دخول الجنة، وهي حفظ الله وحفظ حدوده، وخشيته، والإنابة إليه.

٦ ـ ذكر ما يقال لأهل الجنة عند الانتهاء إليها.

٧ ـ بشارتهم بالسلامة والخلود فيها.

٨ ـ أن من ثواب المتقين: النظر إلى وجه الله الكريم، وهو الزيادة والمزيد.

٩ ـ أن المتقين في الجنة خالدون.

١٠ ـ أن لهم فيها ما يشاؤون من النعيم.

١١ ـ إثبات عندية الملك، وذلك في قوله: ﴿وَلَدَيْنَا مَزِيدٌ ۝٣٥﴾.

---

(١) تقدم تخريجه قريبًا.

ثم إنه تعالى لما خوَّف المشركين بالموت والبعث وإلقاء الكفار في النار خوَّفهم بعذاب الدنيا العاجل، فقال سبحانه:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآية الخبر من الله عن كثرة المهلَكين من الأمم الماضية قبل كفار قريش وغيرهم من العرب، وكانوا أشدَّ منهم بطشًا، ومع ذلك لم يجدوا محيصًا من عذاب الله، وقد طلبوا ذلك بكل حوْل وحيلة، فلم يُجد ذلك عليهم شيئًا.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّن قَرْنٍ﴾ (كَمْ) خبرية للتكثير، والقرن هم: الجيل من الناس، سمُّوا بذلك؛ لأنهم مقترنون في زمان واحد. المعنى: وأهلكنا كثيرًا من الأمم المكذبين قبل هؤلاء الكفار من قومك ﴿هُمْ أَشَدُّ مِنْهُم بَطْشًا﴾؛ أي: هم أشدُّ من قريش قوة وسَطوة ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾؛ أي: أثَّروا فيها، وتصرَّفُوا فيها بالملك والعمران والسفر للتجارات، هذا تفسير ابن عباس ومجاهد[1]، وقال بعض المفسرين: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾؛ أي: ضربوا في الأرض هاربين من عذاب الله، ولكن هيهات ﴿هَلْ مِن مَّحِيصٍ ﴿٣٦﴾﴾؛ أي: لا مفرَّ لهم ولا لغيرهم من عذاب الله، والمحيص قيل: مصدر ميمي، والصحيح أنه اسم مكان، من

(١) رواه عنهما ابن جرير في تفسيره (٢١/ ٤٦٠).

حاص يَحِيص، بمعنى حاد وعدَل وهرَب؛ فالمحيص هو المهرب والملاذ من القضاء المحقَّق، وقد جاء التعبير عنه بألفاظ مختلفة في القرآن، منها: المناص والملجأ والموئل والمفَرُّ والوَزَر، في قوله تعالى: ﴿كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَوا وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ﴾ [ص: ٣]، وقوله: ﴿مَا لَكُم مِّن مَّلْجَإٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُم مِّن نَّكِيرٍ﴾ [الشورى: ٤٧]، وقوله: ﴿بَل لَّهُم مَّوْعِدٌ لَّن يَجِدُوا مِن دُونِهِ مَوْئِلًا﴾ [الكهف: ٥٨]، وقوله: ﴿يَقُولُ الْإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ ۝ كَلَّا لَا وَزَرَ﴾ [القيامة: ١٠، ١١].

الفوائد والأحكام:

١ ـ كثرة الأمم المكذبة للرسل.

٢ ـ أن الأمم المهلَكة قويَّة، وأن قوتهم لم تمنعهم من عذاب الله.

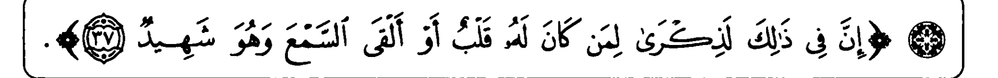
٣ ـ أنهم بقوتهم طوَّفوا في البلاد، وعمروا الأرض وأثاروها غرسًا وبناءً.

٤ ـ أنهم لم يجدوا ملجأ ولا مفرًّا يتقون به عذاب الله.

٥ ـ الردُّ على الجبرية؛ لقوله: ﴿فَنَقَّبُوا فِي الْبِلَادِ﴾، فدلَّ على أن لهم إرادةً وعملًا.

***

ولما كانت هذه السورة مملوءة من أولها بذكر أدلة التوحيد والبعث وذكر أحوال القيامة، وما فعله الله بالأمم المكذبة للرسل، قال تعالى:



﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾.

المعنى الإجمالي:

هذا خبر من الله بما تضمَّنته السورة من التذكير لذوي القلوب الحيَّة وأهل الإقبال على سماع الحق مع حضور القلب.

التفسير:

قوله سبحانه: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ﴾ اسم الإشارة راجع إلى جميع ما تقدم من أول السورة، وصُدِّرت الآية بمؤكِّدَين: ﴿إِنَّ﴾ واللام؛ لتأكيد مضمونها ﴿لَذِكْرَىٰ﴾؛ أي: تذكيرًا وموعظة، فالذِّكرى اسم مصدر ﴿لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلْبٌ﴾؛ أي: عقلٌ يتدبر به الآيات، ويعي به المواعظ والمثُلات، فعبَّر عن العقل بالقلب؛ لأنه موضعه، فصاحب العقل الواعي يعلم مِن هذه الآيات أن مَآل كلِّ مكذب هو العذاب في الدنيا والآخرة، وكلُّ مؤمن مآله الرحمة في الدنيا والآخرة، فيسوقه ذلك إلى الإيمان، ومن لا يعي قلبُه فكأنه لا قلب له ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾؛ أي: أصغى بسمعه لما يتلى عليه من الآيات ﴿وَهُوَ شَهِيدٌ ۝٣٧﴾؛ أي: يسمع وهو حاضر القلب غير غافل، وفيه إشارة إلى أن الإصغاء لا يفيد بلا حضور قلب، ودلَّت ﴿أَوْ﴾ في قوله: ﴿أَوْ أَلْقَى ٱلسَّمْعَ﴾ على تقسيم حال المتذكر إلى كونه تاليًا بنفسه، وكونه سامعًا من غيره.

الفوائد والأحكام:

١ ـ عِظم شأن هذه السورة؛ لما اشتملت عليه من الحجج والمواعظ، ولذا كان النبي ﷺ يقرأ بها على المنبر يوم الجمعة[١].

٢ ـ أن فيها تذكيرًا بما يجب على العبد أن يتذكره.

٣ ـ أن المنتفع بذلك من كان له قلبٌ حيٌّ.

٤ ـ أن كمال الانتفاع يكون بالإقبال وإلقاء السمع.

٥ ـ أنه لا يتم الانتفاع بالاستماع إلا بحضور القلب.

٦ ـ أن الغافل والمعرض لا ينتفع بما يتلى من الآيات.

٧ ـ قيام الحجة على المكذبين بما في القرآن من البراهين.

٨ ـ فضل القلب على سائر أعضاء البدن، وأن عليه المعوَّل في العلم والتذكُّر.

٩ ـ أن السمع تابع للقلب؛ وذلك لأن الله قيَّد السمع بحضور القلب.

---

(١) رواه مسلم (٨٧٣) عن أم هشام بنت حارثة بن النعمان رضي الله عنها.

ولمَّا احتجَّ على منكري البعث بما يدل على كمال قدرته، وهدَّدهم بما يلاقونه عن قريب من عذاب الآخرة، ثم خوَّفهم بعذاب الدنيا عاد إلى الدليل الأول على البعث، وهو خلق السماوات والأرض، كما في الآيتين (٦) و(٧) من أول السورة؛ فقال سبحانه:

﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾ فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ﴿٣٩﴾ وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ وَأَدْبَٰرَ ٱلسُّجُودِ ﴿٤٠﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت هذه الآيات خبرًا من الله عن دليل من أدلة قدرته، وهو خلق السماوات والأرض وما بينهما في ستة أيام، وفي ذلك تسلية لنبيِّه ﷺ؛ لأنه في كفاية القدير على كل شيء، ولهذا قال: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ وفي ضمنه: وتوكَّل على الذي خلق السماوات والأرض، ثم أمره بما يعينه على ذلك من التسبيح في المساء والصباح، وأول الليل وآخره.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾ هذه الآية مؤكِّدة لقوله تعالى في أول السورة: ﴿أَفَلَمْ يَنظُرُوٓا۟ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَٰهَا وَزَيَّنَّٰهَا﴾ [٦]، وقيل: إنها عطف على قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ﴾ [١٦]، ففيها مزيد تقرير للبعث والمعاد بعد الموت؛ لأن من قَدِر على خلق السماوات والأرض وما بينهما في هذه المدة اليسيرة، فهو أقدر على إحياء الموتى وإعادة الخلق

كما بدأهم أول مرة، كما قال تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُمۚ﴾ [يس: ٨١].

ولِعِظم ما اشتملت عليه الآية من خبر صُدِّرت بالتأكيد بـ(قد) والقسم المقدَّر؛ أي: والله لقد خلقنا السماوات والأرض، والمراد السماوات السبع، وقُدِّمت السماوات على الأرض لعُلوها ولِعِظمها، وعِظم ما احتوت عليه من الأملاك والأفلاك وغيرها، ولشرف سُكانها، وجُمعت السماوات؛ لأنَّ كل سماء مستقلة عن السماء الأخرى، وأفردت الأرض؛ لأنها بخلاف ذلك؛ أي: متصل بعضها ببعض ﴿وَمَا بَيْنَهُمَا﴾؛ أي: من جميع ما خلق الله بين السماوات والأرض مما على الأرض من الإنس والجن والحيوان والنبات والجبال، أو في السماء من الشمس والقمر والكواكب والسحاب، فكل هذه مخلوقات عظيمة بدليل عطفها على السماوات والأرض ﴿فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ﴾ من أيامنا المعهودة؛ وقيل: من أيام الله التي مقدار اليوم منها ألف سنة، والظاهر الأول؛ لأن الله يخاطبنا بما نعلم من دلالات اللغة المعلومة بيننا، وأول هذه الأيام الأحد، وآخرها الجمعة، والله قادر على أن يخلق السماوات والأرض في أقل من لمح البصر؛ لأن أمره إذا أراد شيئًا أن يقول له: كن، فيكون، ولكن خَلَقها في ستة أيام لحِكَم، قال بعض العلماء: منها أن يُعلِّم العباد التأنِّي في الأمور، والله أعلم.

قوله سبحانه: ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ ﴿٣٨﴾﴾؛ أي: ما أصابنا إعياء ولا تعب، و﴿مِن﴾ زائدة لتنصيص العموم؛ أي: ما مسَّنا أيُّ لغوب، وهذه الآية كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّ ٱللَّهَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَلَمْ يَعْىَ بِخَلْقِهِنَّ﴾ [الأحقاف: ٣٣]، وفي الآية ردٌّ على اليهود الذين يزعمون أن الله خلق السماوات والأرض في ستة أيام، ثم استراح في

اليوم السابع، وإنما يستريح من يتعب، والله منزَّه عن ذلك لكمال قدرته ﷻ.

قوله تعالى: ﴿فَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ﴾ الخطاب للنبي ﷺ، والفاء هي الفصيحة التي تفصح عن شرط مقدر؛ أي: إذا لم يؤمنوا بك فاصبر على تكذيبهم واستهزائهم، وامض في دعوتهم، فلك أسوة بالرسل قبلك، قال كثير من المفسرين: هذا قبل الإذن بقتالهم، كما قال سبحانه: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟﴾ [الأنعام: ٣٤]، والمضارع في قوله: ﴿يَقُولُونَ﴾ يدل على تكرُّر ذلك منهم ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ أكثر المفسرين على أن المراد بالتسبيح هنا: الصلاة، وذكر ابن عطية أنه إجماع منهم[1]، والتسبيح من أسماء الصلاة، والباء في ﴿بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾ للمصاحبة؛ أي: تسبيحًا مقترنًا بالحمد، وهذا يدل على أن المراد الصلاة؛ لأن الصلاة يُثنَّى فيها قول: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَـٰلَمِينَ﴾ بتكرار الفاتحة فيها، ثم عيَّن الصلاة فقال: ﴿قَبْلَ طُلُوعِ ٱلشَّمْسِ﴾؛ أي: صلاة الفجر ﴿وَقَبْلَ ٱلْغُرُوبِ ۝٣٩﴾؛ أي: صلاة الظهر والعصر ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَسَبِّحْهُ﴾؛ أي: المغرب والعشاء، ويدخل في ذلك التهجد، ﴿وَمِنَ﴾ للتبعيض؛ أي: فصَلِّ لله بعض الليل تهجدًا، كما قال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّيْلِ فَتَهَجَّدْ بِهِۦ نَافِلَةً لَّكَ﴾ [الإسراء: ٧٩]، واشتملت الآية على أوقات الصلوات الخمس.

قوله تعالى: ﴿وَأَدْبَـٰرَ ٱلسُّجُودِ ۝٤٠﴾ (أَدْبَارَ) منصوب على الظرفية، جمع دُبُر وهو: آخر الشيء؛ أي: سبِّح ربك أعقابَ الصلوات المكتوبة، والمراد: النوافل، ويحتمل أن يكون المراد حقيقة التسبيح؛ أي: الذكر؛

---

(١) «المحرر الوجيز» (٨/ ٥٧).

لأنه يكون عقب الصلاة؛ أي: نزِّه ربك عن كل نقص بلسانك وقلبك، وكِلَا القولين جاء عن السلف، ولا مانع أن تكون الآية دالة على المعنيين: صلاة النوافل، والذكر بعد الصلاة.

وفي الآيات تسلية للنبي ﷺ مما يلاقي من عنت الكافرين وتكذيبهم في مكة، وحثٌّ له على الصبر، واللجأ إلى رب العالمين، والإقبال عليه بالصلاة والذكر، ولما كانت هذه حاله ﷺ في مكة كان هذا النوع من الآيات في السورة المكية، كما في سورة الأعراف والحجر وطه والروم وغافر والطور والإنسان.

▣ الفوائد والأحكام:

١ ـ أن السماوات والأرض محدَثة ليست أزلية.

٢ ـ الرد على الفلاسفة في قولهم بِقِدَم العالم.

٣ ـ كمال قدرته تعالى.

٤ ـ أن خلق السماوات والأرض كان في ستة أيام.

٥ ـ أن ظاهر القرآن أنها ستة أيام من أيامنا، وأولها الأحد وآخرها الجمعة.

٦ ـ تنزيهه تعالى عن أيسر شيء من اللغوب، فكيف بالكثير؟!

٧ ـ وعد الله نبيَّه بكفايته أعداءه.

٨ ـ أن السَّبَّ والتكذيب كان يؤذي النبي ﷺ، وإن كان لا يضره.

٩ ـ أن الصبر والتوكل على الله من أعظم الأسباب في تحمُّل الأذى، والوصول إلى المطالب الكبيرة.

١٠ ـ أن مما يعين على الصبر: الإقبالَ على العبادة بالذكر والتسبيح والصلاة في سائر الأوقات.

١١ ـ في الآيات شاهد لقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّكَ يَضِيقُ صَدْرُكَ بِمَا يَقُولُونَ ﴿٩٧﴾ فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَكُن مِّنَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴾ [الحجر: ٩٧، ٩٨].

١٢ ـ إثبات الربوبية الخاصة بالنبي في قوله: ﴿وَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ﴾.

١٣ ـ وجوب التسبيح في الصلاة.

١٤ ـ الإشارة إلى أوقات الصلوات الخمس.

ولـمَّا أمر الله نبيَّه ﷺ بالصبر على أذى قومه، وإقام الصلاة والتسبيح لربه، أتبع ذلك بالأمر بترقُّب يوم القيامة الذي فيه الاقتصاص من أولئك، والانتصار للنبي الكريم ﷺ، فقال سبحانه:

﴿وَٱسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾ يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾ إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾ يَوْمَ تَشَقَّقُ ٱلْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا ذَٰلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ ﴿٤٤﴾ نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ وَمَآ أَنتَ عَلَيْهِم بِجَبَّارٍ فَذَكِّرْ بِٱلْقُرْءَانِ مَن يَخَافُ وَعِيدِ ﴿٤٥﴾﴾.

المعنى الإجمالي:

تضمَّنت الآيات أمر الله لنبيِّه ﷺ أن يستمع لما يوحَى إليه من أنباء اليوم العظيم يوم القيامة، ويترقَّب ذلك اليوم، ويستمع نداء المنادي، فقد حان أوانه، وهو الصيحة للخروج من القبور، ذلك يوم الخروج، وحينئذ تتشقق الأرض عنهم بعد أن أحياهم الله في قبورهم، فيخرجون من القبور مسرعين إلى الحشر، وليس هنا أطوار ولا انتقالات في الخروج من القبور؛ بل بعث بسرعة وبلا مهلة، وهذا أحد مشاهد القيامة العظيمة الهائلة، ثم يعود السياق إلى تسلية النبي ﷺ، وأمره بالمضيِّ في الدعوة، وأن واجبه التذكير بالقرآن، لا إكراههم على الإيمان.

التفسير:

قوله تعالى: ﴿وَٱسْتَمِعْ﴾ الخطاب للنبي ﷺ ولكل سامع، وللمفسرين في هذا الفعل (استمع) تأويلان:

أحدهما: أنه مضمَّن معنى: انتظر وترقَّب، والمفعول محذوف دلَّ

عليه قوله: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾؛ أي: استمع نداءَ المنادي، فقد حان أوانُه؛ أي: هو قريب.

الثاني: أن الفعل (استمع) على بابه، ومفعوله محذوف؛ أي: استمع لما أنبئك به من حديث القيامة وأهوالها، وعلى هذا القول يحسن الوقوف على (استمع)، وتجد في هذا الفعل تهويلًا وتفخيمًا لشأن المخبَر به والمتحدَّث عنه، زاد في تهويله وتفخيمه ما تضمَّنه من الإبهام، ولذا قال تعالى مبيِّنًا ذلك النبأ وزمانه: ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾؛ أي: اذكرْ يومَ، و﴿ٱلْمُنَادِ﴾ أصلها المنادي، وهو الملَك الموكَّل بالنفخ في الصور، وهو إسرافيل، فينادي بالحشر ﴿مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ ﴿٤١﴾﴾؛ أي: من موضع قريب بحيث يسمعه جميع الخلائق ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ ٱلصَّيْحَةَ بِٱلْحَقِّ﴾ هذا بدل من ﴿يَوْمَ يُنَادِ ٱلْمُنَادِ﴾ لزيادة التفصيل والبيان، والصيحة هي الصوت العظيم بسبب النفخ في الصور، و(أل) في ﴿ٱلصَّيْحَةَ﴾ للعهد الذهني؛ أي: يوم يسمعون النفخة الثانية بالحق الذي هو البعث، والباء في ﴿بِٱلْحَقِّ﴾ للملابسة؛ أي: المصاحبة، والجار والمجرور في موضع الحال من الصيحة؛ أي: مقترنةً بالحق الذي ينكرونه ﴿ذَٰلِكَ﴾؛ أي: يومُ الصيحة ﴿يَوْمُ ٱلْخُرُوجِ ﴿٤٢﴾﴾ من القبور للحشر والنشر والحساب.

ثم ذكر الله الأصل الذي يرجع إليه كلُّ ما ورد في السورة من أولها في شأن البعث، والخلق، والقدرة، وإهلاك الظالمين، فقال: ﴿إِنَّا نَحْنُ نُحْيِۦ وَنُمِيتُ﴾؛ أي: نحيي من نشاء، ونميت من نشاء، والمضارع يدل على أن هذا الوصف مستمرٌّ لله دائمًا، وجاءت الآية على أسلوب الحصر ﴿إِنَّا نَحْنُ﴾ الدال على التأكيد، وكذا قوله: ﴿وَإِلَيْنَا ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٣﴾﴾؛ أي: الرجوع إلينا لا إلى غيرنا للحساب والجزاء، وذلك في الآخرة.

قوله تعالى: ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ﴾ أصله: تتشقق، حذفت إحدى التاءين تخفيفًا ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الْأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعًا﴾؛ أي: يومَ القيامة؛ إذْ تنفرج الأرض عنهم بأمر الله تعالى فيخرجون منها مسرعين إلى إجابة الداعي لا يلتفتون عنه يمينًا ولا شمالًا، ثم يتوجهون إلى المحشر، ﴿سِرَاعًا﴾ جمع سريع، مثل كريم وكرام ﴿ذَلِكَ﴾ الأمر العظيم الذي هو الشَّقُّ والإخراج ﴿حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ (٤٤)﴾؛ أي: جمعٌ وبعثٌ هيِّنٌ علينا.

قوله سبحانه: ﴿نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ﴾؛ أي: نحن أعلم بما يقول الكفار من التكذيب بالبعث، والاستهزاء والطعن في جناب النبي ﷺ، وهذا تهديد لهم، وتسلية للنبي ﷺ ﴿وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ﴾؛ أي: وما أنت عليهم بمسلَّط تُجبرهم على الإيمان، إنما بُعثت نذيرًا لهم، ومُبلغًا ما أرسلتَ به، فقُم بذلك، ولذا قال سبحانه: ﴿فَذَكِّرْ بِالْقُرْآنِ﴾؛ أي: دُمْ على الوعظ وذكِّر بالقرآن من يخاف وعيدي؛ أي: عذابي في الآخرة، فهؤلاء هم الذين تنفعهم الذكرى؛ كما قال تعالى: ﴿سَيَذَّكَّرُ مَنْ يَخْشَى (١٠) وَيَتَجَنَّبُهَا الْأَشْقَى﴾ [الأعلى: ١٠، ١١]، وأفرد الضمير في قوله: وعيدي ـ خلافًا للضمائر السابقة ـ وذلك لتعلُّق خوف المؤمنين به، وهم يعبدونه بالتوحيد. والباء في قوله: ﴿بِالْقُرْآنِ﴾ هي باء الاستعانة، وهي الداخلة على الآلة، وبعض النحاة يُسمِّيها سببية[1].

الفوائد والأحكام:

١ ـ أن على النبي ﷺ أن يستمع لما يُلقى إليه من القرآن، ومن هذا المعنى: قوله تعالى: ﴿فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ﴾ [القيامة: ١٨]، ونظير الآية قوله تعالى لموسى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣].

---

(١) للشاطبي في شرح الألفية (٣/ ٦٢٥) بحث مطنب محرَّرٌ في هذه الباء، لا تجد له نظيرًا في كتب النحو.

٢ ـ اقتراب يوم القيامة يومِ النفخ في الصور.

٣ ـ الندب إلى استحضاره وترقُّبه لقُربه.

٤ ـ عِظم ذلك اليوم؛ لما فيه من الأمور العِظام.

٥ ـ أن النفخ في الصور يصحبه صوت عظيم، ولذا سمِّي صيحة، وقد عُبِّر عنه بذلك في عدد من الآيات، كقوله تعالى: ﴿إِن كَانَتْ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾ [يس: ٥٣]، وقوله: ﴿وَمَا يَنظُرُ هَٰؤُلَاءِ إِلَّا صَيْحَةً وَاحِدَةً مَّا لَهَا مِن فَوَاقٍ﴾ [ص: ١٥].

٦ ـ أن من أسماء يوم القيامة: يوم الخروج؛ أي: من القبور.

٧ ـ أن الله يحيي ويميت، وليس ذلك إلا له سبحانه، كما قال إبراهيم: ﴿رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: ٢٥٨].

٨ ـ أن مصير كلِّ شيء إلى الله وحده.

٩ ـ أن مصير العباد المكلَّفين إلى الله؛ فينبئهم بأعمالهم ويجزيهم عليها.

١٠ ـ صفة خروج الموتى من القبور، وذلك بتشقُّق الأرض عنهم بإذن الله، وهو بعثرة القبور.

١١ ـ صفة حال الموتى عند الخروج من القبور، وهو خروجهم مسرعين.

١٢ ـ كمال قدرة الرب على البعث والحشر.

١٣ ـ إثبات علم الله تعالى، وأنه تعالى أعلمُ من النبي ﷺ بما يقول الكفار له من أقوال الغيب والتكذيب.

١٤ ـ جواز استعمال صيغة التفضيل في وصف الله تعالى، كأعْلَم وأرْحَم وأحْكَم.

١٥ ـ ذكر الله نفسه بصيغة الجمع ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ﴾.

١٦ ـ تسلية النبي ﷺ بذلك، وتهديد أعدائه.

١٧ ـ أنه ليس من شأن النبي ﷺ إجبارُ الناس على الإيمان، وليس في قدرته هدايتهم.

١٨ ـ أن واجب النبي ﷺ هو التذكير، وبه يكون البلاغ.

١٩ ـ أن النبي ﷺ عبدٌ مكلَّف ورسول؛ لقوله: ﴿فَذَكِّرْ﴾، وقال سبحانه: ﴿تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا﴾ [الفرقان: ١].

٢٠ ـ أن القرآن أعظم ما يكون به التذكير.

٢١ ـ أن المنتفعين بالتذكير هم من يخاف وعيد الله، فهم أولى بالتذكير.

٢٢ ـ مناسبة آخر السورة لأولها من وجوه؛ منها: أنه تعالى أقسم في أولها بالقرآن المجيد، وأمَر في آخرها بالتذكير بالقرآن، ومنها: ذكر البعث في أولها وآخرها.

تمَّ تفسير هذا الجزء، والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات.



فهرس الموضوعات